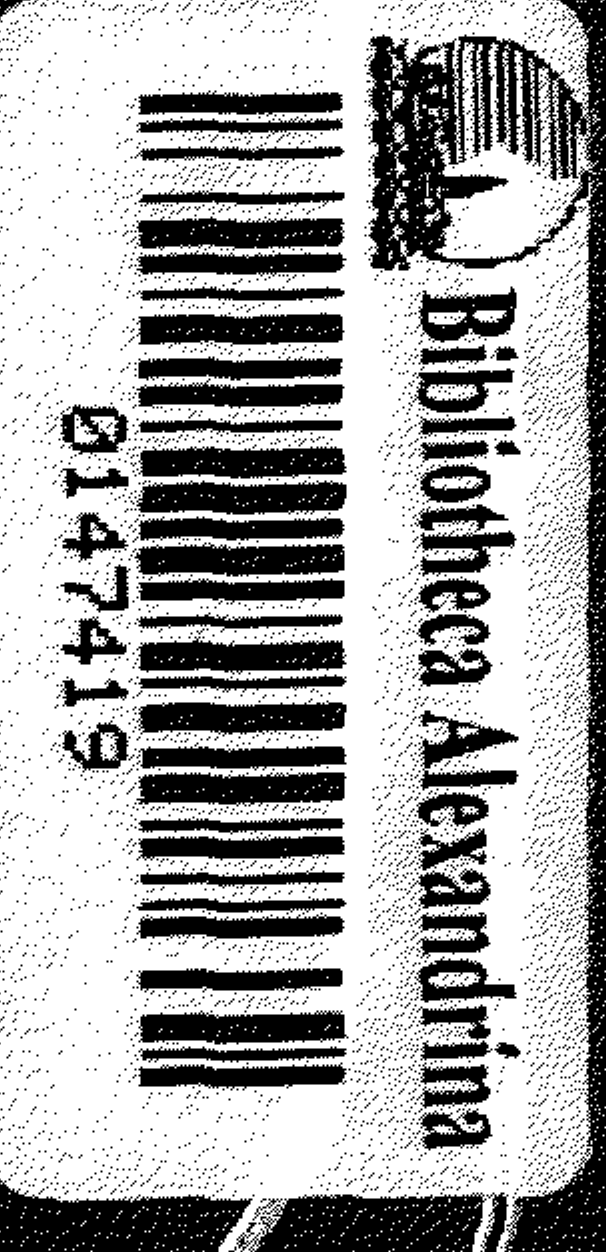
الدكتور حسين عطوان

الزندقة والشعوبية

في العصر العبّاسيّ الأوّل



دار الجيل
بيروت

الزندقة والشعوبية

في العصر العباسي الأول



الزندقة والشعوبية

في العصر العباسي الأول

تأليف
الدكتور حسين عطوان

دار الجيل
بيروت

المحتويات

مقدّمة

أفردتُ هذا الكتابَ للزَّنْدقةِ والشُّعوبية في العَصْرِ العباسيِّ الأول ، لانْتشارِ هاتينِ الظّاهرتين فيه واشْتدادهما ، وتَعَاظُمِ شَرِّهما ، وتفاقُمِ خَطرهما.

وعلى أنَّ دراستها تُثِيرُ العَواطِفَ الدينيَّة ، وتَهيجُ المشاعرَ القَوْميَّة ، لأنَّ رُؤُوسَ الزَّنادقة والشُّعوبية كانوا من الموالي الفُرْس ، وكانوا يُريدونَ إطْفاءَ الشَّريعة الإسْلامية ، وإزالةَ الدَّوْلَة العَربيَّة ، وإحياءَ الدِّيانات الثَّنْويَّةِ ولاسيَّما المانويَّةُ والمَزْدكيَّة ، وإقَامَةَ الدَّولَةِ الفارسيَّةِ ، فإنني الْتَزَمْتُ الحَيْدَةَ في دِراسَتِهمَا التزاماً شديداً.

وقد سَعَيْتُ أنْ أُحَدِّدَ مَعْناهما ، وأسبابَ ظُهُورهما ، وغاياتِ أصْحَابهما ، وأعْلَامهما من الشُّعراء ، وآثارهما في أشْعَارهم. ولبُلُوغِ ذلك رَجعْتُ إلى كُتُب الفرقِ والتاريخ والتّراجم والأدبِ والدّواوين والمجاميع الشِّعْريَّة ، ورجعتُ أيضاً إلى بعضِ الدراساتِ الفَلْسفيةِ والتاريخيَّةِ والأدبيَّةِ التي اهتم مُصَنِّفُوها بهاتَيْنِ الظّاهرتَيْن.

وتحَرَّيْتُ الدِّقَةَ في العَرْضِ والحُكْمِ جميعاً ، وانْتَفَعْتُ بكثيرٍ من النُّصوصِ والأخبارِ والأشعار والآراء ، ونظرتُ فيها ، وميَّزتُ بينها ، وقَلَّبتُهَا على وُجُوهها ، وناقَشتُهَا ، لأَخْلُص إلى الرَّأْيِ الرّاجح ، والحُكْمِ الواضح.

وأرْجُو أنْ أكُونَ وُفِّقْتُ بعضَ التَّوْفيقِ في دراسةِ هاتين الظّاهرتين. والله أسْأَلُ أنْ يَهْديني الى الصَّواب في القَوْلِ والعمل.

عمان في ١٥/ ٨/ ١٩٨٤

حسين عطوان

الفصل الأول

الزَّنْدقةُ في التّاريخ

(١) معنَى الزَّنْدَقة

يختلفُ الباحثون في أصل كلمة الزندقة اختلافاً كبيراً ، فمن قائل : إنه إغريقي[١] ، ومن قائل : إنه آرامي[٢] ، ومن قائل : إنه فارسي معرب عن زنديك[٣] . والرأي الأخير هو الصَّحيحُ ، فإنّ الكلمة كانت تطلق بمعناها الأصلي على المؤمن المخلص من أتباع ماني . ولما كان الزرادشتية يعدون المانوية ملحدين خارجين على الزرادشتية ، فقد أطلقت الكلمة عندهم على كل ملحد لا يؤمن بالدين الحق[٤] . وفي ذلك يقول براون شارحاً له ومدللاً عليه : «كلمة زنديق صفة فارسية معناها مُتّبع الزند ــ أي الشروح القديمة للأفستا وهو كتاب زرادشت ــ المفضل له على النص المقدس . وقد سمي المانوية زنادقة لميلهم الى تأويل الكتب المقدسة للديانات الأخرى وشرحها حسب آرائهم وأهوائهم[٥] » .

ومعنى ذلك أن الزنادقة في المجتمع الساساني هم أصحاب ماني المفكر المصلح الذي أعلن الثورة الاجتماعية على الزرادشتية ، وهي دين الدولة الرسمي الذي كان

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ١٠ : ٤٤١ .

(٢) قصة الأدب الفارسي ص : ٦٠ .

(٣) الحضارة الإسلامية ، لفون كريمر ص : ١٠١ .

(٤) قصة الأدب الفارسي ص : ٦١ .

(٥) العصر العباسي الأول ، للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ١١٠ ، والحضارة الإسلامية ص : ١٠١ .

يمنح الجماعة الحاكمة امتيازات واسعة ، ويسمح بالتفاوت الطبقي الحاد بينها وبين أفراد الشعب ، ويبيح لها استغلالهم واستعبادهم[١] . فمن هم الزنادقة في المجتمع العربي الإسلامي؟ ومتى ظهروا فيه؟ وما الأسباب التي هيأت لنشأتهم؟ وما الأهداف التي كانوا يتوخون بلوغها؟ وما موقف الخلفاء العباسيين منهم؟

يذهب ابن النديم إلى أن الزنادقة هم المانوية الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الزندقة ، وأنهم كانوا منظمين لهم رؤساؤهم من كبار الوزراء والأدباء والكُتَّاب والشعراء من الموالي الفُرسِ خاصةً ، ولهم كُتُبهم التي كانوا يتداولونها ويتدارسونها[٢] . ومما يدعم رأيه ما نقله المسعودي عن تَعَقُّبِ المأمون لهم ، وأنه كان يسألهم عن أحوالهم ، ويستكشفهم عن مذهبهم ، ويدعوهم إلى التوبة والرجوع عنه ، ويمتحنهم بضروب المحن كإظهار صورة ماني لهم ، وطلبه إليهم أن يَتْفُلوا عليها ، ويتبرّأوا منها ، وأمْرِهِ لهم أنْ يَذْبحوا طائر ماء وهو الدراج ، فمن أجابه إلى ذلك نجا ، ومن تخلف عنه قتل[٣] .

واستئناساً بالخبر الذي رواه المسعودي عن مُلاحقةِ المأمون للزنادقة ، واختِبارِهِ لهم ، قَرَّر جورج فيدا أن الزندقة التي حاربها المهدي والهادي هي المانوية ، واستدل على ذلك أيضاً بوصية المهدي لابنه بمطاردتهم[٤] .

وليس من شك في أن كثيراً من الزنادقة كانوا من المانوية ، غير أنه كان بجانبهم فئاتٌ أخرى كانت تَعْتَنِقُ ديانات فارسية قديمة كالمرقُونية والدَّيْصانية ، والمزدكية ،

---

(١) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص : ٥١.

(٢) الفهرست ص : ٣٣٨.

(٣) مروج الذهب ٤ : ٩.

(٤) من تاريخ الالحاد في الإسلام ص : ٣١.

وكان كل مَنْ يَعْتَقدُ بملةٍ من هذه الملل يُعَدّ زنديقاً ، كما أن وصية المهدي لابنه بتتبع الزنادقة تشير إلى أنه كان يريد بهم المانوية والمزدكية معاً ، فإنه يقول فيها[1] : «يا بني إنْ صارَ لك هذا الأمر فتجرّد لهذه العصابة — يعني أصحاب ماني — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تَخْرِجُها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوّباً ، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين احدهما النار والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الاطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارْفَعْ فيها الخشب ، وجرّد فيها السيف ، وتقرّب بأمرها إلى الله ، لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني بسيفين وأمر بقتل أصحاب الاثنين» .

فتعاليم المانوية تختلط بتعاليم المزدكية في الوصية ، ذلك أن المانوية لا تحرم ذبح الحيوان ، وأكل اللحم ، ولا تدعو إلى الإباحة ، أما المزدكية فهي التي تحلُّ ذلك لمتحليها ، فإن مزدك «نَهَى عن المخالفة والمباغضة والقتال . ولما كان أكثر ذلك يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركةً فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ[2] » ، «وأمرَ أصحابه بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط ، وترك استبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ، ولا يمنعه[3] » مما يرجح أن الزندقة منذ خلافة المهدي كانت تطلق على المانوية

---

(١) تاريخ الطبري ٨ : ٢٢٠.

(٢) الملل والنحل ٨ : ٢٢٩.

(٣) الفهرست ص : ٣٤٢.

والمزدكية ، وأن الجملة الاعتراضية التفسيرية في وصية المهدي لابنه الهادي ، وهي : —يعني أصحاب ماني— مقحمة عليها ، وليست منها . ويقوّي ذلك أن المهدي لم يترصّدِ للزنادقة من المانوية ولم يعاقبهم دون غيرهم ، وإنما أنْزلَ العقابَ بكل من كان يدين بالنحل الفارسية القديمة التي لم يكن أصحابها يدخلون في عداد أهل الذمة ، فقد «أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديّصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنفه في ذلك ابن أبي العَوْجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس في تأييد المذاهب المانية والدّيْصانية والمَرْقُونية ، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤُهُمْ في الناس»[1] ، وتفيد نُصوص أخرى أن الزنادقة كان يقصد بهم المانوية ، وكل أرباب النحل من غير أهل الكتاب كالحرانيين وغيرهم[2] .

فالزندقة كانت تعني في أوّل الأمر المانوية ، ثم تطورت دلالتها ، وأصبحت تستغرق كافة أصحاب الديانات الفارسية ، كالدّيصانية والمَرَقونية ، والمزدكية ، ثم اتسعت دلالتها ، وصارت تشمل كل الملحدين والمتشككين في الدين[3] وهذه المعاني هي التي كان الخاصة يريدونها عندما كانوا يستعملون كلمة زنديق ، أما العامة

(١) مروج الذهب ٤ : ٣١٥.

(٢) الفهرست ص : ٣٢٠.

(٣) ضحى الإسلام ١ : ١٥٤ ، والعصر العباسي الأول ، للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ١١٣ ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٢٤ ، ورسالة ابن القارح برسائل البلغاء ، لمحمد كرد علي ص : ٢٥٩ .

وأشباههم فكانوا يُسَمُّون المستهترَ الماجنَ زنديقاً [1]. والزندقة في هذا الاستعمال تحمل معنى التهتك ، ثم التدرج فيه إلى الخروج عن الدين أحياناً بألفاظ ماسة ، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد عن غير نَظَرٍ أو تَفْكيرٍ [2] .

---

(١) ضحى الاسلام ١ : ١٤٦ .

(٢) ضحى الإسلام ١ : ١٥٠ .

(٢) أسباب ظهور الزندقة

لم تظهر الزندقة في المجتمع العربي الإسلامي في القرن الأول ، لأنَّ الدولة الأموية كانت في عنفوان قُوَّتها ، وأوجِ عزَّتها ، كما كانت بالمرصاد لكل أرباب الملل المناقضةِ للرُّوح الإسلاميّة ، ولكل أصحاب النزعات القومية الأعجمية المعارضة للسيادة العربية . ومن أجل ذلك فإن الزنادقة إنما نشأوا في القرن الثاني ، وكان عددهم في أوله محدوداً ، ونشاطهم سريّاً وأول ما يلقانا من استخدام كلمة الزندقة لا يتجاوز التهم التي رُمي بها بعض كبار الشخصيات في تلك الحقبة المتقدمة ، مثل الخليفة الوليد بن يزيد ، ومؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى[١] والخليفة مروان بن محمد ، ومؤدبه الجعد بن درهم[٢] ، وخالد بن عبد الله القَسْري[٣] . وهي تُهَمٌ أشاعها عليهم خُصومهم السياسيون ، ليُشنّعوا عليهم ، ويوقِعُوا بهم[٤] .

وقد نشط الزنادقة في العراق نشاطاً واسعاً بعد قيام الدولة العباسية ، وأصبحوا يُشَكِّلُون حركةً منظمة قويةً مدمرةً ، وساعدهم على ذلك عدة أسباب منها الفرعي ،

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) : ٧ : ٢ ، ٣

(٢) الفهرست ص : ٣٣٨.

(٣) الأغاني (طبعة الساسي) ١٩ : ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، وثلاث رسائل للجاحظ ، نشرة يوشع فنكل ص : ٢٩— ٣٠.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابي الوليد بن يزيد عرض ونقد ص : ١١١— ١٢١ ، ٢١٩— ٢٥٣ ، ٣١٠— ٣٣٦ ، ٤١٩— ٤٣٣.

ومنها الأساسي ، أما الأسباب الفرعية فمنها طبيعة التركيب البشري في العراق ، إذ كان فيه بجانب العَرب أجناسٌ مختلفةٌ من الناس ، وكان لكل جنس منهم ثقافته وديانته ، وفي ظِلّ هذه الظروف الاجتماعية والثقافية المضطربة تبدو ظاهرة الزندقة أو الإلحاد ضرورة حتميةً[1] . ومنها النهضة العلمية التي بدأت منذ أواخر العصر الأموي ، وازدهرت في العصر العباسي ، وتراوحت بين العلوم النظرية الفلسفية الجدلية ، والعلوم التجريبية التطبيقية . وهي نهضة حركت العقول ، وفتحت أمامها أبواب الاجتهاد ، وأعطتها الحرية في التفكير ، فحَرَفتْ بعض المشتغلين بها ، والمتابعين لها ، والرّاغبين فيها إلى ضروب من الضياع والإلحاد[2] ، وخَرَّجَتْ طائفة من الزنادقة المتخبطين المفسدين ، كانت تتخذ من الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكري ، التي يلجأ إليها الشكّاك دائماً يَرُومونَ من ورائها العبثَ بعقائد الناس ، بعقد حَلَبات النضال بينها ، والانتصار للضعيف المغلوب على القوي السائد منها ، وإظهار ميلهم إلى الأول لا لشيء إلا ليجدوا السلوى ، حيث لا سلوى ، والعزاء ، وليس ثم عزاء ، فهي حالة نفسية عنيفة تتملّكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكري ، والمجون الشكّي[3] . وقريب من هذه الزندقة الفكرية التي نجمت عن النهضة العلمية ، الزندقةُ الاجتماعية التي انتجها ونمّاها الجو الاجتماعي الزاخر بألوان الترف والظرف ، والطائفة التي استجابت لهذا النوع من الزندقة ، وروّجت له هي التي اصطنعت الزندقة وسيلةً من وسائل التظرف ، وحُسْنِ المنادمة ، وسمةً على الرُّقي الثقافي والاجتماعي[4] .

---

(١) الفلسفة والمجتمع ص : ٧١ ، ٧٢ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ٥١ ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٣١ .

(٢) مروج الذهب ٤ : ٣١٤ ، وضحى الاسلام ١ : ١٣٨ .

(٣) من تاريخ الإلحاد في الاسلام ص : ٣٤ .

(٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٤٠ .

ومنها الغُلُوّ في التشيع عند غلاة الشيعة بالكوفة[1] ، الذين لا سبيل إلى إنكارِ أثرهم في الزندقة ، فعقائدُهُم المتطرفةُ المتضمنةُ مبادئ تجسيم الله وتشخيصه ، وتأليه الأئمة ، وتناسخ الأرواح ، والحلول والرجعة شاهد على كفرهم وإلحادهم[2] ، ومجونهم وعبثهم دليل على انحرافهم وفسادهم[3] ولكن يحسنُ التنبيه على أن الغُلُوّ في التَّشيُّعِ ليس عربياً ولا إسلامياً لا من جهة أصله ، ولا من جهة المعتقدين به ، فهو أجنبيّ مأخوذ عن النحل الفارسية القديمة ، وأكثر المؤمنين به من الفرس ، كما أن الأئمة العلويين من أبناء فاطمة كافحوه وصدوا أتباعهم عنه[4] . ولذلك يجب إرجاع أثر غلاة الشيعة في انتشار الزندقة إلى مصدره الأصلي ، وهو المذاهب الفارسية الموروثة .

ووراء هذه الأسباب الفرعية سببان أساسيان أدى كل منهما إلى نشأة الزندقة واستفحال خطرها ، أولهما ديني ، إذ يميل جورج فيدا إلى الاعتقاد بأن الديانة المانوية هي أصل الزندقة ، ومنبعها الأول ، وأن أنصارها كانوا يؤمنون بها إيماناً صحيحاً صادراً عن رغبة دينية صادقة ، كما كانوا مخلصين في اتخاذها عقيدة لهم ، محافظين عليها أشد الحفاظ[5] . وبدا مما تَقَدَّمَ أنَّ الزندقة الدينية الحقيقية لا تعود إلى المانوية وحدها ، بل تعود إلى الملل الفارسية التي ظهرت قبل المانوية كالمرقونية والديصانية ،

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص : ١٨١ .

(٢) الفرق بين الفرق ص : ١٣٠ .

(٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٣٨ .

(٤) الفرق بين الفرق ص : ١٤٣ ، والملل والنحل ١ : ١٥٥ ، والعصر العباسي الأول للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ٢١٩ ، ومقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص : ٦٨ ، والسيادة العربية ص : ٩٤ .

(٥) من تاريخ الالحاد في الاسلام ص : ٣٤ .

والتي جاءت بعدها كالمزدكية ، وسَلَفَ أن المسعودي ذكر أن المهدي لم يحارب المانوية فحسب ، بل حارب أيضاً أهل الديانات الفارسية الأخرى[1] .

وأما السبب الأساسي الثاني فهو سياسي ، فقد رأى بعض الفرس أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق لهم مطالبهم ، إذ انتقلوا من يد عربية ، وهي اليد الأموية إلى يد أخرى ، وهي اليد العباسية ، ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، وفي سلطتها ، ولغتها ودينها ، ورأوا ذلك لا يتحقق لهم والإسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن أمْكَنَ ، وخفيةً إذا لم يمكن[2] . وقد لمح الجاحظ أثر النزعة القومية الفارسية في ظهور الزندقة وفُشُوّها ، ونص عليه بقوله : «ربما كانت العداوةُ من جهة العصبية ، فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه ذلك من الشعوبية ، فإذا أبغضَ شيئاً أبغضَ أهله ، وإن أبغضَ تلك اللغة أبغضَ تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تتنقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف والقدوة»[3] .

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٣١٥ ، وضحى الاسلام ١ : ١٣٩ .

(٢) ضحى الاسلام ١ : ١٣٩ ، وأنظر من تاريخ الإلحاد في الاسلام ص : ٣٤ ، وحديث الاربعاء : ١٦٢ .

(٣) الحيوان ٧ : ٢٢٠ .

(٣) الزَّنادقة من المَوالي الفُرْس

كان أغلب الزنادقة على اختلاف الدوافع التي ساقتهم إلى الزندقة ، وتباين الغايات التي كانوا يبتغون تحقيقها من الموالي الفرس ، وكان منهم موظفون كبار في الدولة العباسية ، فستروا أمّرهم ، وأعانوهم بكل ما أوتوا من قوة . إذ يروي ابن النديم أنه كان يقال إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة ، كما قيل في الفضل بن سهل وأخيه الحسن مثل ذلك ، وأن محمد بن عبيد الله كاتب المهدي كان زنديقاً ، وأنه اعترف له بذلك فقتله[1] ، أما العرب فلم يوصف منهم بالزندقة إلا أربعة ، وهم ابنٌ لداود بن علي ، ويعقوب بن الفضل ، قبض عليهما المهدي فأقرا له بالزندقة ، ولم يقتلها لأنهما هاشميان ، فمات أولها في سجنه ، وأعدم الثاني في عهد الهادي[2] ، ويقال إنه وجد ابنة الأول حبلى منه ، وإنها ماتت من الرعب بعد أن أقرت له بالزندقة[3] ، وآدم بن العزيز الأموي الذي أخذه المهدي وضربه لخلاعته ومجونه ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة ، فقال له : والله ما أشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشياً تزندق[4] ، ولكنه طرب غلبني ، وشعر

---

(١) الفهرست ص : ٣٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٩١ .

(٣) تاريخ الطبري ٨ : ١٩١ .

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٥ : ٢٨٧ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٦ .

طَفَحَ على قلبي في حال الحداثة ، فنطَقْتُ به ، فخلّى سبيله[1] ، ويحيى بن زياد الحارثي ، الذي رمي بالزندقة لعبثه ومعاشرته ، بعض الزنادقة من الموالي[2] .

(١) الأغاني ١٥ : ٢٨٦ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٦.

(٢) جمهرة أنساب العرب ص : ٤١٧ ، والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٢٧٩ .

(٤) غايات الزندقة الهدّامة

كان الزنادقة من الموالي الفرس يرومون تفسيخ الدولة العربية الإسلامية، وتصديع كيانها، وتدمير أخلاقها ومثلها وقيمها، ونسف الإسلام وهو عمادها وقوامها، وبنسفه تتحطم قواعدها ودعائمها، وتتهدم قلاعُهَا وحُصُونها، ويتهيأ لهم أنْ يُحيُّوا تُراثهم الثقافي والديني، ويعيدوا مجدهم السياسي على انقاضها، ولبلوغ ذلك الهدف اتبعوا ثلاث وسائل: أولاها بعث الديانات الفارسية القديمة، والسعي إلى نشرها عن طريق ترجمتها إلى اللغة العربية وإشاعتها بين العرب، كما هو واضح في صنيع ابن المقفع الذي يقول المهدي عنه: «ما وجدتُ كتابَ زندقة قط إلا أصله ابن المقفع»[١] وفي صنيع أمثاله كعبد الكريم بن أبي العوجاء، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس[٢]. وثانيتها تشويهُ الدين الإسلامي بالطعن فيه، والدسّ عليه، ومكّنَهُمْ من ذلك أنهم أجادوا العربيةَ، وتفقّهوا بعض التَّفَقُّهِ في الدين، فأصبحوا في جملة العلماء العارفين المجتهدين، وأنهم كانوا يعلنون الإسلام، ويبطنون الكفر[٣]. وموّه على الناس حقيقةَ زندقتهم أنّ المانوية تشترك مع الإسلام في بعض

---

(١) أمالي الشريف المرتضي ١ : ١٣٤، وخزانة الأدب ٣ : ٤٥٩.

(٢) مروج الذهب ٤ : ٣١٥.

(٣) أمالي الشريف المرتضي ١ : ١٢٧.

الشعائر كالصلاة والصوم[1]. وتواطأ على ذلك منهم زنادقة الكتاب والشعراء والأدباء[2]. وثالثها إغراء الشباب في المجتمع العربي الإسلامي بالفجور والتعهر، وإدمان الخمر، وطلب اللهو واللذة، والاستهتار بالتغزل بالمذكر، واللواط بالغلمان، واستباحة الحرمات، وانتهاك الأعْراض. وقامت عصابات الزنادقة المجان بذلك كله، على نحو ما هو معروف عن حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان[3]، ومطيع بن إياس[4] وبشار بن برد[5].

(١) الفهرست ص: ٣٣٣.

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ، نشرة يوشع فنكل ص: ٤٢، وأمالي الشريف المرتضي ١ : ١٢٨، وتاريخ الطبري ٨ : ٤٨، والفرق بين الفرق ص: ١٦٣، ١٦٤.

(٣) طبقات ابن المعتز ص: ٦٩، والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤ : ٣٢٢.

(٤) طبقات ابن المعتز ص: ٩٦، والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٢٧٩.

(٥) طبقات ابن المعتز ص: ٢١.

(٥) محاربة العباسيين للزَّنادقة

أدرك الخلفاء العباسيون نيّات الزَّنادقة الخبيثة ، وأهدافهم الهدّامة ، فتصدوا لهم ، وجاهدوهم جهاداً صارماً ، قابضين عليهم ، ومحاكمين لهم ، وَقاتلينَ من ثبتت عليه التهمة منهم ، وناصبين العلماء لمجادلتهم ، ونَقْضِ شُبُهَاتِهم . وبدأت محاربتهم بالسيف في عهد المنصور ، ثم خلفه ابنه المهدي ، فجدّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولى أمرهم عمر الكلواذي ، فقطع رؤوس كثيرٍ منهم [١] . وفي سنة ثمان وستين ومائة مات صاحب الزنادقة فعين مكانه حمدويه ، كما بطش بالزنادقة في بغداد [٢] ، ثم أعقبه ابنه الهادي فاشتد في تعقبهم ، وصرع جماعة منهم [٣] . واستمر الرشيد يلاحقهم في أرجاء الدولة ، فأعدم بعضهم في خراسان [٤] ، وآخرين منهم في بغداد [٥] وسار المأمون سيرة أسلافه معهم ، فنكل بهم ، وقتل غير قليل منهم [٦] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٨٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٦٥ ، ومروج الذهب ٤ : ٣١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٦٧ .

(٣) تاريخ الطبري ٨ : ١٩٠ .

(٤) تاريخ الطبري ٨ : ٢٦٦ .

(٥) تاريخ الطبري ٨ : ٢٩٧ .

(٦) مروج الذهب ٤ : ٩ .

ونهض المتكلمون في أيام المهدي بمُناظَرتهم ، وكَشْفِ أباطيلهم ، إذ يقول المسعودي : «كان المهدي أولَ من أمرَ الجَدليين من أهل البَحْثِ والمتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين من الجاحدين وغيرهم ، فأقاموا البراهين على المُعاندين ، وأزَالُوا شُبُهَ المُلْحِدين ، وأوضحوا الحق للشاكين»[1] . وكان للمعتزلة في ذلك النصيب الأوفر ، فهم الذين عاشوا يناظرون الزنادقة ، ويَدْفعون شرهم عن العامة والخاصة ، مُوضِّحين ما في مزاعمهم من زَيْفٍ وفسَادٍ ، وما في عقائدهم من خَللٍ ومناقضةٍ للعَقْلِ السَّليم[2] .

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٣١٥.

(٢) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص : ٨١.

الفصل الثاني

الزندقة في الشعر

(١) أبو دُلَامَة

اتُّهم ، أبو دُلَامَةَ زند بن الجون مَوْلى بني أسدٍ الكوفي بالزندقة ، وقد اتَّهمه بها أبو الفرج الأصفهاني ، فهو يقول[١] : «كان فاسدَ الدين ، رديءَ المذهب ، مرتكباً للمحارم ، مُضَيِّعاً للفروض ، مجاهراً بذلك» . ولم يصمه القدماء من السابقين لأبي الفرج الأصفهاني[٢] واللاحقين به[٣] بالزندقة صراحة ، كما وصموا بها غيره ، كما أنهم لم يكرروا الحكم الذي أصدره عليه ، ولم يقتبسوا شيئاً منه . وإذا صح أنه لم يتأثر بالزندقة والشعوبية فإن استهانته بالدين وتحلله من أركانه ، واستخفافه بها تدخل في المجانة والخلاعة ، وابن المعتز يصفه بأنه «كان ماجناً خليعاً»[٤] ، أو تدخل فيما سماه الدكتور محمد مصطفى هدارة «الزندقة الاجتماعية التي اتخذها أصحابها وسيلة من وسائل التظرف ، وحسن المنادمة ، وسمةً على التحرر ، والانطلاق من قيود

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٠ : ٢٣٥ .

(٢) أنظر الشعر والشعراء ص : ٧٧٦ ، وطبقات ابن المعتز ص : ٥٤ .

(٣) انظر معجم الأدباء ١١ : ١٦٥ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٢٠ ، ومرآة الجنان ١ : ٣٤١ ، وشذرات الذهب ١ : ٢٤٩ .

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ٦٠ .

المجتمع»[1]. وهي زندقة اجتماعية دفعه إليها مزاجه الشخصي، وحياة الجندية القاسية التي عاشها في نهاية الدولة الأموية[2]، ونشأته في صدر شبابه بالكوفة التي كانت تضطرب باللهو والانحراف، وسمح له أن يلج فيها لعهد أبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور، والمهدي، نزوله منهم بمنزلة المضحك والمرفّه والمسلي بما كان يلقيه عليهم ويسرهم به من نوادره ومداعباته وفكاهاته، مما جعلهم يغضون الطرف عن إباحته، ويسكتون عن معاقبته[3]، وهم يطاردون أمثاله من مجان الزنادقة، ويسومونهم القتل على ما شَرَكَهم فيه من العبثِ والفساد.

وكثير من شعره ينطق بزندقته الاجتماعية، ويجلو حقيقتها، كقوله وقد دعاه موسى بن داود العباسي أن يحج معه، على أن يدفع له عشرة آلاف درهم فلما دفعها إليه أخذها وهرب إلى السواد، وجعل ينفقها هناك، ويشرب بها الخمر، فطلبه موسى فلم يجده، وخشي أن يفوته الحج فخرج، فلما شارف القادسية إذا هو به خارجاً من قرية إلى أخرى وهو سكران، فأمر بأخذه وتقييده، فاستعطفه أن يطلقه، مصرحاً أنه لا يرغب في الحج، لأن طريقه خالية من الحانات، وهو لا يصبر عن الخمر، وأنه لا خير فيه حتى يثنيه عن اللهو، ويهديه إلى الحق، فقد فسد فساداً لا صلاح له بعده[4]:

إني أَعُوذ بـداودٍ وأَعْـظُـمِـهِ من أن أُكلّفَ حجّا يا ابنَ داودِ
خُبِّرتُ أنَّ طريقَ الحج معطشةٌ من الشرابِ وما شُربي بتَصْريدِ

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص: ٢٤٤.

(٢) الأغاني ١٠: ٢٤٥.

(٣) الأغاني ١٠: ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٥٠.

(٤) طبقات ابن المعتز: ٥٦، والأغاني ١٠: ٢٤٦.

واللهِ ما فيّ من أجرٍ فتطلبه ولا الثناءُ على ديني بمحمود

وقوله، وقد بلغ أبا جعفر المنصور أنه معتكف على الخمر، لا يحضر صلاةَ ولا مسجداً، حتى أفسد فتيان العسكر، فأمره بلزوم الجماعة في مسجد قصره، وشدد في ملاحظته ومراقبته. فشق عليه ذلك. فتوسل إليه أن يُعْفيه، مردداً أنه لا يريد الصلاة ليغفر الله له ذنوبه، بل يريد أن يظل منغمساً في المجون والخمر، ولو حمل آثام البشر جميعاً[1] :

أَلَمْ تَرَيا أَنَّ الخليفةَ لَزَّني بمسجدِهِ والقصرِ ما لي وللقَصْرِ!
فقد صدَّني عن مسجدٍ استَلِذُّهُ أُعَلَّلُ فيه بالسماعِ وبالخمرِ
يُكَلِّفُني من بَعْدِ ما شبتُ توبةً يَحُطُّ بها عني المَثاقيل من وِزْري
لقد كان في قومي مساجدُ جمةٌ ولم يَنْشَرِحْ يوماً لغشيانها صَدْري
وواللهِ ما لي نيةٌ في صلاتهِ ولا البرّ والإحسانُ والخير من أمري
وما ضَرَّهُ والله يَغْفِرُ ذنْبَهُ لو أنّ ذنوبَ العالمينَ على ظهري!

وقوله، وقد طلب إليه القيام معه في مسجد قصره في شهر رمضان، متضرعاً إلى رَيْطَةَ زَوْجِ ابنه المهدي أن تَتَشَفَّعَ له إلى عمِّها، لعله يفكّ أسره، معلناً أن يستثقل شهر رمضان، ويمقت ليلة القدر مقتاً شديداً[2] :

أبلغا ريطةَ أني كنتُ عبداً لأبيها
فَمَضَى يرحَمُهُ اللهُ وأوصَى بي إليها

---

(1) الاغاني ١٠ : ٢٤٨، وطبقات ابن المعتز ص : ٦١، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٣٢.

(2) الأغاني ١٠ : ٢٤٩.

جــــاء شهــــرُ الصومِ يمشي مشـــــيـــــةً مـــــا أشتهيها
قـــائـــداً لي لـــيـلـــة الـــقـــدِ رِ كـــأني أبـــتـَــغيهـــا
ولـــقـــد عشتُ زمـــانـــاً في فـــيـــافيّ وَجـــيـــهَـــا
قـــاعـــداً أوقـــدُ نـــاراً لضـــبـــابٍ أشتويها
وصـــبـــوحٍ وغـــبـــوقٍ في عِلاب أحْـــتـــسـيـــهَـــا
مـــا أُبـــالي لـــيـلـــة الـــقـــدْ ر ولا تُـــســـمـــعـــنيهـــا
فـــاطـــلـبي لي فـــرجـــاً مـــ ـنها وأجـــري لك فيهـــا

وعلى هذا النحو قَضَى حياته وهو يمجن في شعره أمام الأمراء والخلفاء العباسيين، متحللاً من فرائض الدين وعابثاً بها، وهم يُسرّون بمجونه، ويطربون له، ويضحكون لعبثه، ويستزيدونه منه، للطف محله عندهم.

(٢) مطيع بن إياس

يَلُفُّ الغموضُ أصْلَ مطيع بن إياس الكوفي ، إذ يَرْوي أبو الفرج الأصفهاني [١] وغيره [٢] أنه عربيٌّ صميمٌ واضحُ النَّسبِ في بني كنانة . ولكن أبا الفرج الاصفهاني لم يلبث أن ارتابَ بنَسبهِ فيهم [٣] . وحذفه ابن دريدٍ وابن حزم من بني كنانة . ولم يُثْبتَاهُ في رجالهم . وقد رَجَح الدكتور شوقي ضيف أنه من الموالي . واسْتدل على ذلك بما يُعْرفُ من فساده وكثرة ما يضاف إليه من سَوْءات عَصْره ، فهو يقول [٤] : « كل شيءٍ فيه يؤكد أنه لم يكن عربياً . إنما كان من الموالي فقد كان مُتحلِّلَ الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد » .

ويجمع القدماء على رَمْيِهِ بالزندقة [٥] ، وفيه يقول أبو الفرج الأصفهاني : [٦]

---

(١) الأغاني ١٣ : ٢٧٤ .

(٢) أمالي الشريف المرتضى ١ : ١٤٢ . وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٢٥ . وخزانة الأدب ٤ : ٢٨٦ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٢٧٥ .

(٤) العصر العباسي الأول ص : ٣٩٠ .

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٢٧٦ ، وأمالي الشريف المرتضي ١ : ١٤٢ ، وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٢٥ ، وخزانة الأدب ٤ : ٢٨٦ .

(٦) الأغاني ١٣ : ٢٧٦ ، وخزانة الأدب ٤ : ٢٨٦ .

«كان ماجناً متهماً في دينه بالزندقة». ويقول مرة أخرى[1] : «كان مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب، يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة». ومما يقطع بزندقته أن الرشيد أتي ببنت له في الزنادقة، فقرأت كتابهم، واعترفت به، وقالت: هذا دينٌ علمنيه أبي، وتبْتُ منه فقبل توبتها، وردّها إلى أهلها[2] . وهي زندقة ساقه إليها علمه بالديانات الفارسية، وتوفره عليها، وتأليفه فيها، إذ يروي المسعودي أنه كان يُصنف الكتب مع رفاقه من الزنادقة في تأييد المذاهب المانية. والديصانية والمرقونية[3] .

وعلى الرغم من اتفاق القدماء على دمغه بالزندقة، وحديثهم عن وضعه الكتب فيها، وتعليمه لابنته إياها، فإن شعره ليس فيه ما يكشف عن الملل الفارسية التي كان يبطنها ويؤمن بها. ومن الطبيعي أن تندثر أشعاره وأشعار غيره من الزنادقة التي نظموها في إعلاء مذاهبهم ومعتقداتهم الفاسدة المنحرفة فإن الدولة كانت تكافحها، كما كان الرواة يزورون عنها، ولا يبالون بها. وإذا كان شعره الذي يتضمن الجانب النظري أو الفكري الديني لزندقته قد ضاع، فإننا نظفر بشواهد من أخباره، وبمقطوعات من أشعاره تؤكد زندقته، منها أنه كان ميالاً إلى غلاة الشيعة، فقد كان يُكفر أبا بكر وعمر ويخفي تكفيره لهما، إبقاءً على حياته، إذ يقول[4] .

---

(١) الاغاني ١٣ : ٢٧٩ . والديارات ص : ٢٥٠ .

(٢) الاغاني ١٣ : ٢٩٥ . وأمالي الشريف المرتضي ١ : ١٤٢ .

(٣) مروج الذهب ٤ : ٣١٥ .

(٤) الأغاني ١٣ : ٢٩٥ . وشعراء عباسيون ص : ٤٩ .

أمسيتُ جمّ بَلابلِ الصدرِ دَهْراً أُزجيه إلى دَهْرِ
إن فُهْتُ طلّ دمي وإن كُتِمتْ وقدتْ عليّ توقدَ الجمرِ
مما جناهُ علي أبي حسنٍ عمرٌ وصاحبهُ أبو بكرِ

وسَبَقَ أنَّ أكثرَ غلاة الشيعة كانوا من الموالي الفرس . وأن تسلط الآراء والأفكار الدينية الفارسية عليهم هو الذي جرّهم إلى الإفراط في التشيع . والتورط في الكفْر.

ويدلّ كثيرٌ من شعره على انسلاخه من الدين ، وإزرائه به ، واشتغاله عنه بالانطراح في مواضع اللذات . فقد كان يمجن في الصلاة مجوناً فاحشاً منكراً كان يتغنى به في شعره ، ويجاهر به مجاهرة[1] . وكان يؤثر الانهماك في شرب الخمر هو ورفيقه يحيى بن زياد بدير زرارة قربَ الكوفة على أداءِ فريضة الحج إذ يقول[2] :

ألم ترَني ويحيى إذْ حَجَجْنا وكان الحجُّ من خير التجارة
خَرَجْنَا طالبي حجٍ ودينٍ فمال بنا الطريقُ إلى زُرارَهْ
فآب الناسُ قد غنموا وحجُّوا وأبْنَا مُوقَّرينَ من الخسارة

وكان مصاباً بالشذوذ الجنسي . يلاط به ، ويلوط بالغلمان[3] ، ويدعو دعوة صريحةً قبيحةً إلى اقترافِ الفواحش والموبقات بلا خفر ولا حَياء ، فهو الذي يقول[4] :

---

(١) الأغاني ١٣ : ٣٢٦ ، والديارات ص : ٢٥٢ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٣٠٠ . والديارات ص : ٢٤٨ .

(٣) الأغاني ١٣ : ٣٢٩ ، والديارات ص : ٢٥٤ .

(٤) الاغاني ١٣ : ٢٩٧ . والديارات ص : ٢٥٣ .

نـعم لـنـا نـبـيـذٌ وعـنـدنـا حـاد
وكـلـنـا مـن طـربٍ يـطـيـرُ أو يـكـادُ
ولهونـا لـذيـذٌ لم يـلـهُـهُ الـعـبـادُ
إنْ تَشْـتَـهِ فسـاداً فـعـنـدَنـا فسـادُ
أوْ تَشـتـهِ غلامـاً فـعـنـدنـا زيـادُ
مـا إنْ بـه الـتـواءٌ عـنّـا ولا بِـعـادُ

بل إنه كان يحضُّ الناس حضّاً على الانغماس في الانحلالِ والفجورِ. ناصحاً لهم أن يقبلوا على تعاطي الخمر، وسماع القيان، ليرَوّحوا عن أنفسهم. ويحققوا لها أكبر قدر من المتعة في حياتهم القصيرة، كقوله[1] :

اخلع عذارَكَ في الهَوَى واشْرَبْ مُعَتَّقَةَ الدنان
وَصِلِ القِيانَ مجاهراً فالعيْشُ في وصلِ القيانِ
لا يُلهِيَنَّكَ غيرُ ما تَهْوَى فإنّ العُمرَ فانِ

ولولا أنه عرف كيف يُداري زندقته بحسن عشرته وطريف نوادره[2]، ومنافقته لأبي جعفر المنصور. يوم أن بايع لابنه محمد ولياً للعهد. فصنع له حديثاً روّج فيه أنه المهدي المنتظر[3]، لَقُتِلَ على الزندقة، كما قُتِلَ غيره من أعلامها، إذ كان

---

(١) الديارات ص: ٢٥٦.
(٢) الأغاني ١٣ : ٢٧٦.
(٣) الأغاني ١٣ : ٢٨٧.

صاحب الخبر يرفع إلى المنصور أنه زنديق ، وأنه يخالط ابنه جعفراً ، وجماعة من أهل بيته ، ويكاد يفسد دينهم ، ويضلهم بمذهبه ، فكان يهم به ، غير أن المهدي كان يتشفع له إليه ، لما أسدى إليه من جميل ، مُبرِّئاً له من الزندقة ، وناسباً إياه إلى الفسق وخبث الدين[1] ، واستحلال المحارم ومتغافلاً عنه حين استُخْلِفَ ، وجَدّ في طلبِ الزنادقة وإعدامهم[2] .

---

(١) الأغاني ١٣ : ٣١٧ .

(٢) الأغاني ١٣ : ٣١٨ .

(٣) حمَّاد عَجْرَد

كان حماد بن عمر مَوْلى بني سُوَاءة بن عامر بن صعصعة الكوفي أكبر رأسٍ من رؤوس الزنادقة، وأشهر من اتفق القدماء على وصمه بالزندقة[١]. إذ كان من عُصْبةِ المجان والزنادقة التي يقول ابن المعتز فيها: «كان بالكوفة ثلاثةُ نَفَرٍ يقال لهم الحمادون: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون معاشرةً جميلةً، وكانوا كأنهم نفس واحدة، يرمون بالزندقة جميعاً[٢]».

وأغلب الظن أن الذي جرّه إلى الزندقة اطّلاعُهُ على المذاهب الفارسية اطلاعاً مكّنه من حِذْقها وإجادتها، وأتاح له أن يضع المؤلفات فيها[٣]، وخُضُوعُهُ للعصبية الجنسية والنعرة الشعوبية[٤].

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤ : ٣٢١، وأمالي المرتضي ١ : ١٣٣، وتاريخ بغداد ٨ : ١٤٨، ووفيات الأعيان ٢ : ٢١١، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٤٢٥، ومعجم الأدباء ١٥ : ٢٥٠، والديارات ص : ٢٥١.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٦٩. والشعر والشعراء ص : ٧٧٩.

(٣) مروج الذهب ٤ : ٣١٥.

(٤) الأغاني ١٤ : ٣٣٨.

ومع أنه أهم الزنادقة على الإطلاق فإن ما حُفِظَ من شعره ليس فيه ما يحدّد نحلته، ولا ما يشير إلى زندقته، غير أن ذلك لا يخفف التهمة ولا ينفيها عنه، فإن شعره الذي هتف فيه بإلحاده وفساده ضاع، وآية ذلك أن أبا نواس يقول: «كنت أتوهم أنَّ حماد عجرد إنما رُمِيَ بالزندقة لمجونه في شعره، فلما حُبِسْتُ في حبْسِ الزنادقة فإذا حمادٌ إمامٌ من أئمتهم، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به في صلاتهم»[1]. ويستفاد من الأشعار التي هجاه بها رفاقه من الزنادقة وغيرهم أنه كان يدين بمذاهب الثنوية من المانوية والديصانية والمزدكية، ومنها قول بشار[2]:

يا ابنَ نهْيا رأسٌ عليّ ثقيل ... واحتمالُ الرؤوسِ خَطْبٌ جليلُ
فادْعُ غيري إلى عبادةِ الاثنيْـ ... ـنِ فإنّي بواحدٍ مشغولُ

وقوله الذي يكشف فيه عن تأثره بالمزدكية، وإباحته تعاطي النساء وتبادلهن، محلاً امرأته لسواه، وامرأة سواه لنفسه[3]:

بكَى حُريثُ فَوقَّرهُ بتَعْزيةٍ ... ماتَ ابن نهْيا وقد كانا شريكين
تَفاوَضا حين شابا في نسائهما ... وحلّلا كلَّ شيءٍ بينَ رجلين

ومنها قول مساور الوراق[4]:

لو انّ ماني ودَيْصاناً وعُصْبتَهم ... جاءُوا إليكَ لما قلناكَ زنديقُ
أنتَ العبادةُ والتوحيد مذ خلقا ... وذا التزندقُ نَيرنجٌ مخاريق[5]

---

(١) الأغاني ١٤ : ٣٢٤.

(٢) أمالي المرتضي ١ : ١٣٣، والأغاني ١٤ : ٣٢٥، وسرح العيون ص: ٣٠٥.

(٣) الاغاني ١٤ : ٣٢٤.

(٤) أمالي المرتضي ١ : ١٣٤.

(٥) النيرنج: مس كالسحر.

وتنبئ أهاجيهم فيه أنه كان ضعيف العقيدة ، فاسد الدين ، ملازماً للمنكرات والمعاصي ، تاركاً الصلاة ، على شاكلة ما يظهر في قول صديقه حماد بن الزبرقان له[1] :

نعمَ الفتى لو كان يعرفُ قدرَهُ ويُقيمُ وقتَ صلاتِه حمّادُ
هَدَلت مشافرهُ الدّنانُ فأنفهُ مِثْلُ القَدُومِ يسنّها الحدّادُ
وابيضَّ من شُرْبِ المدامةِ وَجْهُهُ وبياضُهُ يومَ الحساب سوادُ

وتُنْبِئُ بأنه كان مريضاً بالشذوذ الجنسي . شأنه في ذلك شأن مطيع بن إياس ، إذ يقال إنه اتصل بالربيع بن يونس يؤدب ولده ، فكتب إليه بشار رقعةً ، فلما قرأها طرده ، وفيها يقول[2] :

يا أبا الفضل لا تنمْ وقع الذئبُ في الغنمْ
إنَّ حماد عجردٍ إن رأى غفلةً هجمْ
بين فخذيه حربةٌ في غلافٍ من الأدمْ
إنْ خلا البيتُ ساعةً مجمج الميم بالقلمْ

وفضحه رفيقه مطيع في قطعة ثانية تحدث فيها عن معالجته لابن مُقَيِّنٍ بالكوفة[3] . ولم يزل حماد عجرد ممعناً في الضلالة والبطالة حتى قتله محمد بن سليمان العباسيّ على الزندقة[4] .

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٦٩.

(٢) الأغاني ١٤ : ٣٣٠ ، ٣٣١.

(٣) الديارات ص : ٢٥٥ ، والأغاني ١٣ : ٣٢٨.

(٤) وفيات الأعيان ٢ : ٢١٣.

(٤) بشّارُ بن بُرْد

كان بشار بن بردٍ مَوْلَى بني عُقَيْلٍ البَصْريُّ من كبارِ الزنادقة ، وممن أفْصَحَ منهم في شعره عن فِسْقِه وفُجُورِهِ ، وإلحادِهِ وكُفْرِهِ. وقد حمله على الزندقة دوافعُ عديدةٌ ، فقد كان بصيراً بالدياناتِ الفارسية بَصراً دقيقاً ، عارفاً بها معرفةً واسعةً ، حتى لقد وَصَفَهُ حَمَّادُ عَجْرِدٍ بأنه أعْلَمُ بالزندقة من ماني[1] . وكان شعوبياً حاقداً كارهاً للعرب كُرْهاً شديداً ، مُعْتداً بالفُرْسِ وحَضارتهم اعتداداً بعيداً[2] . وكان مُثَقّفاً بمعارف عَصْرِهِ من الفلسفةِ والمنطق وعلمِ الكلامِ ، فجعله ذلك حائراً مُتَخبِّطاً[3] . وكان فوق هذا كله مُشَوَّهَ الخِلْقَةِ مُعْتَلَّ النَّفْسِ ، مُتَبَرِّماً بالناس ، يائساً مخذولاً[4] ، فإذا هو تحتَ تأثير هذه الدوافع يستحيل زنديقاً مارقاً من الدين ، مرتكباً للكبائر ، مستهتراً بالتعهر والتهتك. وليس من الضرورة لكي يكون زنديقاً أن نعزوه إلى هذا المذهب أو ذاك من المذاهب الفارسية المنافية للإسلام ، فإنه وأضرابه من الزنادقة لم يكونوا يعكفون على المانوية أو المزدكية فقط ، بل كانوا يعكفون عليهما

---

(١) الأغاني ١٤ : ٣٢٨.

(٢) الأغاني ٣ : ١٣٩.

(٣) الأغاني ٣ : ١٤٧ ، وسرح العيون ص : ٣٠٠.

(٤) الأغاني ٣ : ١٤١ ، وأمالي الشريف المرتضي١ : ١٣٩.

وعلى غيرهما من الملل الفارسية ، وينهلون منها ، ويخضعون في فكرهم وسلوكهم لها ، ومن أجل ذلك نراه مشوشاً في حياته وعقيدته ، شاكاً في البعث والحساب غير مؤمن إلاّ بما عايَنَهُ وما وقعت حواسه على مثله[1] . ونراه بتأثير العقائد الفارسية ينحاز إلى غلاة الشيعة[2] ، وينتظم في فرقة الكاملية[3] ، وهي من أكثر فرق الشيعة إمعاناً في التطرف والغلو ، ويدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأمة[4] . وكل أولئك قرائن تثبت إلحاده وجحوده واطلاعه على النحل الفارسية ، غير أن بجانبها شواهد تدل على زندقته دلالة قوية ، فقد كان يقدّس النار ، وينوه بعبادتها ، ويفضلها على الأرض ، بمثل قوله[5] :

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مُشْرقةٌ والنارُ مَعْبودةٌ مذّ كانتِ النار

وكان يُقدّم إبليس لأنه مخلوق من النار ، على آدم لأنه مخلوقٌ من الطين ، ويُصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم ، كما هو واضح في قوله[6] :

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدم فتنبّهوا يا مَعْشَرَ الفُجَّارِ
إبليسُ من نارٍ وآدم طينةٌ والأرضُ لا تسمو سُمُوَّ النارِ

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٢٧ ، وأمالي الشريف المرتضي ١ : ١٣٨ ، وسرح العيون ص : ٣٠١ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٥٦ ، ٢١٣ ، وديوانه ٤ : ١٦٩ .

(٣) الفرق بين الفرق ص : ٣٥ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٠ ، ٣٥ ، وسرح العيون ص : ٣٠١ .

(٥) الكامل للمبرد ٣ : ١٩٠ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٩ ، والأغاني ٣ : ١٤٥ ، وسرح العيون ص : ٣٠٠ .

(٦) ديوانه ٤ : ٧٨ .

ولعله لذلك كان مستخفاً بالدين ، مُضَيّعاً للفروض ، إذ كان يَدّعي الخروج إلى الحج ، لينفيَ تهمةَ الزندقة عن نفسه ، ثم يعُوجُ على الحانات ، فيَقْضي وقتَ الحج بين القيان والخمر ، حتى إذا قربت عودة الحجيج حلق رأسه ، واندسّ بين القافلين المارين به منهم ، لكي لا يشكّ الناس في أمره[1] . كما كان يبيح لنفسه ترك الصلاة مع الجماعة ، مدّعياً أنه لا يُبْصِرُ ولا يُتْقِنُ أداءها مع المصلين ، إذ يقول[2] :

وإنني في الصّلاة أحضُـــرُهَـــا ضحكةُ أهلِ الصلاةِ إنْ شهدوا
أقـعـدُ في سَجْدة إذا رَكَعُوا وارفعُ الرأس إنْ هـمُ سَجَدوا
أسجـدُ والـقـومُ راكـعون معاً وأُسرعُ الوَثْبَ إنْ هـم قـعدوا
ولستُ أدري إذا إمــامُــهُـــمُ سَلَّمَ كـمْ كَـانَ ذلك العددُ

ويبدو أنه لم يكن صادقاً في دفاعه عن نفسه وإقناعه للناس بعدم التّعرُّضِ له لتخلفه عن صلاة الجماعة ، فإنه كان لا يصلي في بيته ، إذ يقول بعض أصحابه : «كنا نكون عنده ، فإذا حضرت الصلاة قمنا إليها ، وجعلنا على ثيابه تراباً حتى ننظر هل يقوم يصلي ، فكنا نعود والتراب بحاله وما صَلّى[3] » .

ومما يُوَثِّقُ اتهامه بالزندقة تَعاطُفُهُ مع قَتْلَى الزنادقة ، ورثاؤه لهم ، وحزنه عليهم ، فهو يقول في جماعة منهم[4] :

كيـفَ يَصفُـو لـيَ النعيم وحيداً والأخلّاءُ في المقــابـــرِ هـــامُ

---

(١) الأغاني ٣ : ١٨٥ .

(٢) المحاسن والمساوئ ص : ٣٥٨ .

(٣) الأغاني ٣ : ٢٢٢ ، وأمالي الشريف المرتضي ١ : ١٣٨ .

(٤) الأغاني ٣ : ٢٣٦ .

نَـفَـسـتـهُـمْ عـلـيّ أمُّ المنـايـا فـأنـامتهـمُ بـعـنـفٍ فـنـامـوا
لا يَغِيض انسجامُ عيني عليهم إنما غـايـةُ الحزينِ السّـجامُ

ويقول في صديقه صالح بن عبد القدوس ، نادباً له ، وقد قتله المهدي وصلبه على الزندقة ، مصرحاً بأنه يذرف الدموع عليه خِفْيةً حتى لا يفتضح أمره ، ولا يساق إلى حتفه[1] :

لقد عشتَ مبسوطَ اليدينِ مُبرَّزاً وعُوفيتَ عند الموتِ من ضَغطةِ القبرِ
وأفلتَّ مِنْ ضيقِ الترابِ وغمّهِ ولم تفقدِ الدنيا فهل لكَ من شكرِ
فما تَشْتَفي عينايَ من دائمِ البكا عليك ولو أني بكيتُ إلى الحشرِ
فطُوبَى لمن يبكي أخاه مجاهراً ولكنني أبكي لفقدك في سرّي

وتألم لِقَتْلِهِ وصَلْبِهِ في قصيدة أخرى[2] ، وبكى في قطعة رابعة زنديقين من إخوانه قتلاً على الزندقة وصُلبا ، جازعاً لموتهما وفراقهما[3] .

ومن المظاهر العملية لزندقته خلاعتُهُ ومجانتُهُ ، وإفحاشه في غزله إفحاشاً شديداً نهاه المهدي عنه ، لإفساده به الفتيات والفتيان : وهو غزل كان يتعهر في بعضه تعهراً ، ويَفْجُرُ فيه فجوراً ، كما يظهر في هذه القصيدة التي صَوَّرَ فيها تغريره بفتاة صغيرةٍ ، وعبثه بها ومضاجعته لها ، وتزيينه لها أن تُخْفِيَ أمرَهَا على أمها بحيلة دَلّها عليها ، يقول[4] :

---

(١) ديوانه ٤ : ٧٦ .

(٢) ديوانه ٣ : ١٥٥ .

(٣) المختار من شعر بشار ص : ٢٥ ، وأمالي المرتضي ٢ : ١٣٢ ، وديوانه ٤ : ٩١ .

(٤) الأغاني ٣ : ١٨٣ .

قد لامَني في خليلتي عُمَرُ ... واللومُ في غيرِ كُنْهِهِ ضَجَرُ
قال أَفِقْ قلتُ: لا قال: بلى ... قد شاع في الناسِ منكما الخبرُ
قلتُ وإذ شاعَ ما عتِذارُكَ مـ ... ـما ليس لي فيهِ عِنْدَهُمْ عُذْرُ
حَسْبي وحَسْبُ الذي كلفتُ به ... مني ومنهُ الحديثُ والنظرُ
أو قبلةٌ في خلالِ ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأزرُ
أو عضةٌ في ذراعها ولها ... فوقَ ذراعي من عَضّها أثرُ
أو لمسةٌ دون مِرطِهَا بيدي ... والبابُ قد حالَ دونه السّترُ
والساقُ بَراقةٌ مُخَلْخَلُهَا ... أو مَصٌّ ريقٍ وقد علا البهرُ[1]
واسْتَرْخَتِ الكفُّ للعِراكِ وقا ... لت إيه عني والدمعُ منحدرُ
انهضْ فما أنت كالذي زعموا ... أنت وربّي مغازلٌ أشرُ
يا ربّ خُذْ لي فقد تَرَى ضرعي ... من فاسقٍ جاءَ ما به سَكَرُ
أهوى إلى معْضدي فَعَضَّضهُ ... ذو قوةٍ ما يطاقُ مُقتدرُ[2]
ألصقَ بي لحيةً له خشُنتْ ... ذات سوادٍ كأنها الإبرُ
كيف بأمي إذا رأتْ شَفَتي ... أم كيفَ إنْ شاعَ منك ذا الخبرُ
قلتُ لها عند ذاك يا سَكَني ... لا بأسَ إني مجربٌ خَبِرُ
قولي لها بقّةٌ لها ظُفرٌ ... إن كان في البقّ ما له ظفرُ

أرأيت إلى إباحته؟ إنّه لم يكن يكترث في غزله التحقيقي لخلقٍ، ولا كان يرعى ديناً، ولا كان يخشى سلطاناً. فقد جعل همه فيه أنْ يَصِفَ مُبَاشَرته للمرأة وصفاً سهلاً مفصلاً، مُحَبِّباً إليها أنْ تنجرف في تيارِ الإثم والفسق، وأن تميل نحوه، وتلين له، وتتهالك عليه.

---

(١) البهر: تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء.

(٢) المعضد: الدملج، وهو حلي يلبس في المعصم.

وعلى نحو ما أغْرَى المرأة بالتّهافت على الرجل، رَاحَ يُغْرِي الرجلَ بالتهافت عليها. والمتاع بها، مبيناً له أنها مهما تَصُدَّ عنه، وتتمنَّع عليه، فإنَّ مصيرها أنْ تقبلَ عليه وتواصله وتبذل نفسها له، يقول[1] :

لا يؤيسَنَّكَ مِنْ مُخَبأةٍ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وإنْ جَرَحا
عُسْرُ النساءِ إلى مُياسرة والصَّعْبُ يُمكن بعدَما جَمَحا

ولِعَراقةِ زَنْدقتِهِ وإباحتِهِ حاول الاحْتجاجَ للمَعْصية، فأحلَّ القبْلَةَ واجتناءَ زَهَراتِ الجسدِ، واقتطاف ثمراتِهِ، دون اكْتِراثٍ للناس أو اتّقاءٍ لألْسِنتِهم، فالحياةُ فُرَصٌ، واستمتاع جَسَدي، بل هُجُومٌ على هذا الاستمتاع وما يطوي فيه من لذة[2] يقول[3] :

لا خيرَ في العَيْشِ إنْ كنَّا كذا أبداً لا نَلْتَقِي وسَبيلُ المُلْتَقَى نَهجُ[4]
قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهمْ ما في التَّلاقِي ولا في قُبْلَةٍ حَرَجُ
مَن رَاقَبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجتِهِ وفازَ بالطّيباتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

وإذا كان مطيع بن إياس قد نجا من القتل لاستظرافِ المهدي له، واعترافه بتأييده، فإنّ بشاراً نال وبال زندقته وشعوبيته على يديه. فقد شهد أمامه شهود عدول بأنه زنديق، فأمر بضربه حتى التلف، فضرب سبعين سوطاً مات منها[5].

---

(١) الأغاني ٣: ٢٠٩.
(٢) العصر العباسي الأول، للدكتور شوقي ضيف ص: ٢١٨.
(٣) الأغاني ٣: ٢٠٠.
(٤) النهج: الطريق الواضح.
(٥) الأغاني ٣: ٢٤٦، وسرح العيون ص: ٣٠٢.

(٥) صالح بن عبد القدوس

يُجْمعُ القدماءُ على أنَّ صالح بنَ عبد القُدُّوس مَوْلَى الأزْدِ البَصْريَّ كانَ من كبارِ الزَّنادقة، وأنه كان من الثَّنْويَّة المَانويَّة، قال ابنُ المعتز[١]: «أُخِذَ صالح بن عبد القُدُّوس في الزَّنْدقة»، وقال المرزباني[٢]: «كان حكيمَ الشعراء زِنْدِيقاً مُتَكلِّماً يُقدِّمُهُ أصحابُهُ في الجدالِ عن مَذاهِبِهم»، وقال الشريفُ المُرتَضَى[٣]: «وأمّا صالحُ بن عبد القُدُّوس فكانَ مُتظاهراً بمذاهبِ الثَّنويَّة»، وقال الخطيبُ البَغْدادي[٤]: «يقال: إنه كانَ مشهوراً بالزَّنْدقة».

والغالبُ أنه فارسيُّ الأصْلِ[٥]. وكان في صَدْرِ شبابِهِ يتَردَّدُ إلى مجالسِ الوُعَّاظِ والمُتَكلِّمين بالبصرة، ويَسْتَمِعُ إلى مُحَاوراتِهم ومُناظراتِهم في المُعْتَقداتِ والدِّياناتِ، قال أبو الفرج الأصْفهَاني[٦]: «كان بالبصرةِ ستةٌ من أصحابِ

---

(١) طبقات ابن المعتز ص: ٩٠.

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦: ٣٧٣، وفوات الوفيات ٢: ١١٦، ولسان الميزان ٣: ١٧٣.

(٣) أمالي المرتضي ١: ١٤٤.

(٤) تاريخ بغداد ٩: ٣٠٣، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦: ٣٧٤، ولسان الميزان ٣: ١٧٣.

(٥) العصر العباسي الأول، للدكتور شوقي ضيف ص: ٣٩٣.

(٦) الأغاني ٣: ١٤٦، وسرح العيون ص: ٣٠٠.

الكلام : عمرُو بنُ عُبَيْدٍ ، ووَاصِلُ بنُ عَطاءٍ ، وبشَّارٌ الأعْمَى ، وصالح بن عبد القُدُّوس ، وعبد الكريم بن أبي العَوْجاء ، ورجُلٌ من الأَزْدِ ، قال أبو أحمد : يعني جرير بن حازمٍ ، فكانوا يجتمعون في منزل الأزديّ ويَختَصمونَ عندَه . فأما عَمْرٌو وواصِلٌ فصارَا إلى الاعتزالِ ، وأمَّا عبد الكريم وصالحٌ فصَحَّحا الثَّنْويَّةَ[١] . وأمَّا بَشَّارٌ فبقِيَ مُتحيِّراً مُخَلِّطاً ، [فقيل : إنه قال بعدُ بمذهب الثَّنويَّة وعدَمِ الرَّجْعَة][٢] ، وأمَّا الأزديُّ فمالَ إلى قَوْلِ السُّمْنيَّةِ ، وهو مذهبٌ من مذاهب الهِنْد[٣] » .

وهكذا صوّبَ صالح بنُ عبد القُدُّوس المانويَّةَ ، وفضَّلَهَا عَلى الإسْلام ، واعْتَنَقهَا أشَدَّ اعْتناقٍ ، ثم أصْبَحَ من المُحْتَجِّينَ لها ، والمُدافعينَ عنها ، فقد ذكَرَ ابنُ النَّديم أنه كان من زُعماءِ المانويَّةِ وعلمائهم ، وأنه ألَّفَ كُتُباً في نُصْرةِ مبادئِهم ، وتأييدِ آرائهم ، وتَصَدّى للمتكلّمين الذين كانوا يُنَاضِلُونَ عن الإسلام ، وجعلَ يُهَاجِم مَقالاتهم ، ويَهْدِم أَدِلَّتهم ، يقول[٤] : «مِن رؤسائهم المتكلّمين الذين يُظْهرون الإسلامَ ويُبطنونَ الزَّنْدقةَ ابنُ طالوت ، أبو شاكرٍ ، ابنُ أخي أبي شاكرٍ ، الأعْدَى الحريزي ، نعمانُ بنُ أبي العَوْجاء ، صالحُ بنُ عبد القدوس . ولهؤلاء كتبٌ في نُصْرةِ الإثنين ومذاهب أهلها ، وقد نَقضُوا كُتباً كثيرةً صَنَّفها المُتَكلِّمون في ذلك» . ووصفَهُ الذَّهبيُّ بأنه «صاحبُ الفلسفة والزَّندقةِ»[٥] .

---

(١) في الأصل : «التَّوْبة» ، وهو تحريفٌ ظاهرٌ . والتصحيح من سرح العيون .

(٢) زيادة من سرح العيون .

(٣) قال البغدادي : «أصحاب التناسخ من السّمنية قالوا بقدم العالم ، وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال ، وزعموا أنه لا معلوم إلاّ من جهة الحواس الخمس ، وأنكر أكثرهم المعاد ، والبعث بعد الموت ، وقال فريقٌ منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة» . (انظر الفرق بين الفرق ص : ١٦٢ ، ٢١٤) .

(٤) الفهرست ص : ٤٧٣ .

(٥) ميزان الاعتدال ٢ : ٢٩٧ ، ولسان الميزان ٣ : ١٧٣ .

وذكر الشريفُ المُرْتَضَي أنَّ أبا الهُذَيْلِ العَلّاف جادَلَ صالحَ بنَ عبد القُدُّوس في نحْلَتة ، وأبانَ عَمَّا فيها من فَسادٍ وضَلالٍ ، ولم يزَلْ يُجَادِلُهُ ويتغلَّبُ عليه حتى قهرَهُ وأسكتَهُ ، فلما سأَلَهُ عن النِّحْلةِ التي يَخْتَارُهَا ويَسْتَقِرُّ عليها ، تمسَّكَ بالمانوية ، وأبى أنْ يتحوَّل عنها ! يقول[1] : «يقال : إنَّ أبا الهُذَيلِ العَلّاف ناظَرَهُ فقطعَهُ ، ثم قال له : على أيِّ شيءٍ تَعزِمُ يا صالح؟ فقال : استَخيرُ اللهَ وأقُولُ بالإثنين ! فقال أبو الهُذَيْلِ : فأيُّهما استَخَرْتَ لا أمَّ لك» !

ويقول[2] : «رُوِيَ أنَّ أبا الهُذَيْلِ نَاظَرَهُ في مسألةٍ مشهورةٍ في الامتزاجِ الذي ادّعُوهُ بَيْنَ النُّورِ والظلْمَةِ ، فأقامَ عليه الحجَّةَ فانْقَطَعَ ، وأنْشأَ يقول :

أبا الهُذَيْلِ هَداكَ اللهُ يا رَجُلُ فأنت حَقّاً لَعَمْري مُعْضِلٌ جَدِل»

وربما وَقَفَ صالحُ بن عبد القدُّوس على كلام السُّوفسطائيينَ اليونانيين ومزاعمهم أنَّ الأشياءَ لا حقيقةَ لها ، وأنَّ ما يَسْتَبْعِدُهُ الإنسانُ ، يجُوزُ أنْ يكون على ما يُشَاهِدُهُ ، ويجُوزُ أنْ يكونَ على غير ما يُشاهده ، وأنَّ حال اليَقْظَان كحالِ النائم[3] ، وآيةُ ذلك أنه صَنَّفَ كتاباً في الشُّكُوك ، قال ابن نباتةَ[4] : «مات لصالح بن عبد القدوس وَلَده فمَضَى إليه أبو الهُذَيْلِ ، والنَّظام معه ، وهو غلامٌ حدَثٌ كالتَّبعِ له ، فرآه مُحْتَرِقاً ، فقال أبو الهُذَيْلِ : لا أعرِفُ لجزَعِكَ وَجْهاً ، إذا كان الناسُ عندكَ كالزَّرع . فقال صالحٌ : يا أبا الهُذَيْلِ : إنما أجْزَعُ عليه ، لأنه لم يقرأ كتابَ «الشكُوك» ! فقال أبو الهُذَيْل : وما كتابُ الشُّكُوك؟ قال : كتابٌ

(١) أمالي المرتضي ١ : ١٤٤ .

(٢) أمالي المرتضي ١ : ١٤٤ .

(٣) انظر سرح العيون ص : ٢٢٨ .

(٤) سرح العيون ص : ٢٢٧ .

وَضَعتُهُ ، مَنْ قرأهُ شَكَّ فيما كانَ حتى يَتَوهَّم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يَظُنَّ أنه قد كان ! ! فقال له النّظام : فَشُكَّ أنت في موْتِ ابنك ، واعْمَلْ على أنَّهُ لم يَمُتْ ، وإنْ ماتَ ، وشُكَّ أيضاً في أنه قد قرأَ هذا الكتاب ، وإنْ لم يكن قرأَهُ ، فحَصِرَ صالحٌ » !

ولم يَبْقَ من شِعْرِ صالح بن عبد القدوس شيءٌ يَدُلُّ على زَنْدَقتِهِ ومانويَّتِهِ ، ولكن الشريف المُرْتَضَى حَفِظَ له بَيْتَينِ يكشفان عن تَستُّرِهِ وتحرُّزِهِ وتخوُّفِهِ على نَفْسِهِ وحِرْصِهِ على حياتِهِ ، فقد كان يَخْشَى السجنَ والعذابَ والقَتْلَ ، إذا افْتَضَحَ سِرُّهُ واتَّضحَ أمرهُ ، فهو يقول فيهما[1] :

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فكأني أخْرَسٌ أوْ ثَنَى لِساني خَبَلُ
ولَو أني أبْدَيْتُ للناسِ عِلْمي لم يكنْ لي في غَيْرِ حَبْسيَ أكْلُ

وأكثر ما بقيَ من شعرِهِ حِكَمٌ ومَواعظُ ، قال ابن المعتز[2] : « أما الرَّجُلُ فَلَهُ في الزُّهْدِ في الدنيا ، والتَّرْغيب في الجَنَّة ، والحَثِّ على طاعةِ الله عَزَّ وجَلَّ ، والأَمْرِ بمحاسنِ الأخلاقِ ، وذِكْرِ الموتِ والقَبْرِ ما ليس لأَحَدٍ ، وكان شعْرُهُ كُلُّهُ أمْثالاً وحِكَماً » . ثم ضَربَ شواهِد من عُيُونهِ وروائِعِه ، واستَغْرَبَ التَّناقُضَ الظّاهرَ بين ما يُرْمَى به من الزَّنْدقةِ وما يُعَبِّرُ عنه شعرُهُ من العِفَّةِ والمعاني النَّبيلةِ ، وكاد يَنْفي عنهُ تُهمةَ الزَّنْدقةِ ، يقول[3] : « فيا عَجباً كيفَ يمكنُ أنْ يقول زِنْديقٌ مِثْلَ هذا القَوْل ! وكيف يكونُ قائِلُهُ زِنْديقاً » !

---

(١) أمالي المرتضى ١ : ١٤٥.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٩١.

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ٩٢.

وغابَ عن ابن المعتزِّ أنَّ الزُّهْدَ والنُّسْكَ من تعاليمِ المانوية البيِّنَةِ ومَعالمهَا البارزةِ[1] . وكأنَّ صالحَ بنَ عبد القُدُّوس كان يُغَطِّي على مانَويَّته بالإكْثارِ من النَّظْمِ في الحِكَمِ والأمْثال ، والتَّنْفيرِ من الدنيا ومتَاعِهَا الزائلِ والتَّرْغيبِ في الآخرة ونعيمها الدّائم ، وفي أخبارِهِ أنه كانَ يُمَوِّهُ على مَانويَّتِهِ ، فقد كان يُصَلّي صلاةً محكمةً مُتقنةً ، لا لأنه كان يُؤْمِنُ بالإسلامِ ، ويحافظُ على إقامة اركانهِ ، ويُواظِبُ على أداءِ فرُوضِهِ ، بل لأنه كان يتخذُ من التَّظاهرِ بإقامتها وأدائهَا وسيلةً إلى نَفْي الشُّبْهَة عن نَفْسِهِ ، ويتوخّى النجاةَ لزَوْجِهِ وبَنيهِ ! وابنُ المعتزِّ أوَّلُ مَنْ نَقَلَ بعض أخباره التي تكشفُ عن خُبْثِهِ ودهائِهِ ، وتشيرُ إلى نفاقِهِ وريائِهِ ، يقول[2] : «اجتمعَ قوْمٌ من أهْلِ الأدبِ في مجلسٍ فيهم صالح بن عبد القدوس ، يتناشدون الأشعارَ ، إلى أنْ حانتِ الصلاةُ ، فقامَ القومُ إلى ذلك ، وقامَ صالح فتوَضَّأَ وأحْسَنَ ، ثم صَلّى أتمَّ صلاةٍ وأحْسَنهَا ، فقال بعضُهم : أتُصَلّي هذه الصلاةَ ومَذْهَبُكَ ما تَذْكُرُ؟ قال : إنّما هوَ رَسْمُ البَلد ، وعادة الجسَد» ! وقال الشريف المُرْتَضَى[3] : «رُويَ أنه رُؤيَ يُصَلّي صلاةً تامة الركوعِ والسُّجود ، فقيل له : ما هذا ومَذْهَبكَ معروفٌ ! قال : سنَّةُ البَلَدِ ، وعادةُ الجَسدِ ، وسلامةُ الأهْلِ والولَدِ» ! وفي أخبارِهِ أيضاً أنه كان يَعِظُ الناس بمَسْجدِ البصرةِ ويَقُصُّ عليهم[4] .

وقد هربَ صالحُ بن عبد القدوس من البصرة ، حين تَشددَ المَهْديُّ في تَعَقُّبِ الزَّنادقةِ ، وقتَلَ كل من ثَبَتَتْ عليه الزَّندقةُ منهم ، فأتى دمشقَ فاستَخْفَى بها زَمناً ،

---

(١) انظر الفهرست ص : ٤٦٥ ، والملل والنحل ١ : ٢٢٨ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٩١ ، ولسان الميزان ٣ : ١٧٤ .

(٣) أمالي المرتضي ١ : ١٤٤ .

(٤) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧٥ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٦٨ ، وفوات الوفيات ٢ : ١١٦ ، وميزان الاعتدال ٢ : ٢٩٧ ، ولسان الميزان ٣ : ١٧٢ .

فلما عَرَفَ المهديُّ مكانه ، وجَّهَ إليه قُرَيْشاً الحَنْظليَّ ، فقَبضَ عليه وحَمَلَهُ إليه [1] . ويظْهَرُ أنه أمَرَ بحَبْسهِ ، فأُلْقيَ به في أحدِ سُجون بغداد ، فلبث فيه مدةً ينتظر المحاكمة ، وفي شعرِهِ ما يدل على ذلك ، فهو يصف في أبياتٍ أَلَمَهُ وفَزَعَهُ وهو في السجن ، إذ يقول فيها [2] :

خَرَجْنَا من الدُّنيا ونحنُ من أهْلها فَلَسْنَا منَ الأحياءِ فيها ولا المَوْتَى
إذا دَخَلَ السَجَّانُ يوماً لحاجةٍ عَجبْنَا وقُلْنَا : جاءَ هذا منَ الدُّنْيا
ونَفْرَحُ بالرُّؤْيَا فَجُلُّ حَديثنا إذا نحنُ أصْبحنَا الحديثُ عن الرُّؤْيا
فإنْ حَسُنَتْ لم تأت عَجْلَى وأبطأتْ وإنْ قَبُحَتْ لم تَحْتَبِسْ وأتَتْ عَجْلَى
طَوَى دونَنَا الأخبارَ سِجْنٌ مُمَنَّعٌ لهُ حارسٌ تَهْدَا العيونُ ولا يَهْدَا
قُبِرْنا ولم نُدْفَنْ فنَحْنُ بمَعْزِلٍ منَ الناسِ لا نَخْشَى فَنَغْشَى ولا نُغْشَى
ألا أحَدٌ يأْوي لأهْلِ محلَّةٍ مُقيمينَ في الدّنيا وقَدْ فارَقُوا الدُّنيا

وأكثرُ الرِّوايات على أنَّ المهديَّ هو الذي اعْتَقَلَهُ وقَتَلَهُ ، قال ابن المعتز وغيره [3] : «أُدْخِلَ على المَهْديِّ ، فلما خاطَبَهُ أُعْجِبَ به ، لغزارةِ أدَبِهِ وعِلْمِهِ وبراعتِهِ ، وبما رأى من فصاحتِهِ وحُسْنِ بيانِهِ وكثرةِ حِكْمتِهِ ، فأمَرَ بتخليةِ سبيلِهِ ، فلما وَلّى رَدَّهُ وقال : أَلَسْتَ القَائِلَ :

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧٤.

(٢) أمالي المرتضي ١ : ١٤٥ ، وانظر عيون الأخبار ١ : ٨١ ، وطبقات ابن المعتز ص : ٩٢.

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ٩٠ ، وانظر تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٩٢ ، وفوات الوفيات ٢ : ١١٦ ، وميزان الاعتدال ٢ : ٢٩٧ ، ولسان الميزان ٣ : ١٧٤ .

وإنَّ مَنْ أَدَّبْـتَـهُ في الصِّبا كالعُودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ
حـتى تَـراهُ مُورِقـاً نـاضِراً من بعد ما أبْصَرْتَ من يُبْسِهِ
والشـيخُ لا يـتـرُكُ أخْلاقَـهُ حـتى يُوارَى في ثَـرَى رَمْسِهِ
إذا ارْعَوَى عـادَ إلى جَـهْـلِـهِ كـذي الضَّـنا عـادَ إلى نُكْسِهِ

قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، قال : وأنتَ لا تَتْرُكُ أخلاقَكَ ، ونحن نَحْكُمُ في نَفْسِكَ بحُكْمِكَ ، فأمرَ به ، فَقُتِلَ».

قال الشريفُ المُرْتَضَى[1] : «ويقال : إنه لمّا أرادَ المهديُّ قَتْلَهُ على الزندقةِ ، دَعَا إليه بكتابٍ ، وقال له : اقرأْ هذا ، قال : وما هو؟ قال : كتابُ الزَّنْدقة ، قال صالح : أو تَعْرُفُهُ أنتَ يا أمير المؤمنين إذا قرأْتَهُ؟ قال : لا ، قال : أفتَقْتُلني على ما لا تَعْرِفُ! قال : فإني أعْرِفُهُ ، قال صالح : فقد عَرَفْتَهُ ، ولست بزنديقٍ ، وكذلك أقْرؤُه ، ولستُ بزنديقٍ».

وذكر ابنُ المعتز سبباً آخر لاعْتقالِهِ وقَتْلِهِ ، وهو أنه طَعَن على الرسول الكريم ، ورَجَّحَ أنَّ الرشيدَ هو الذي قبضَ عليه ، وتولّى مُحاكَمتَهُ ، وأمرَ بقَتْلِهِ ، يقول[2] : «حُدِّثْتُ من غير هذا الوَجْهِ بما هو عندي أثبتُ من الأول ، وذلك ما رويناه أنه أُنْهِيَ إلى الرشيد عنه هذه الأبيات ، يُعَرِّضُ فيها بالنبي صلى الله عليه وآلِه :

غَضَبَ المسكـيـنَ زَوْجـتَـهُ فـجَـرتْ عـيـنـاهُ من دُرَرِهْ
مـا قضَى المسكينُ مِنْ وَطرٍ لا ولا المِعْشَارَ مِنْ وَطرِه[3]

---

(١) أمالي المرتضي ١ : ١٤٤ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧٤.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٩٠.

(٣) يشير الى تزوج الرسول الكريم لزينب بنت جحْشٍ الاسدية بعد أن طلَّقها مَوْلاهُ زيد بن حارثة ، وما نزل في ذلك من القرآن. (انظر الاستيعاب ص : ١٨٤٩ ، وأسد الغابة ٥ : ٤٦٣ ، والإصابة ٤ : ٣١٣).

عُـذْتُ بـاللهِ الـلـطـيـفِ بـنـا أنْ يـكـونَ الـجَـوْرُ من قَدَرِهِ

قال : لا ، والله يا أميرَ المؤمنين ، ما أشْركتُ بالله طَرفَةَ عَيْنٍ ، ولا تسْفِكْ دَمي على الشُّبْهَةِ ، فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وآله : «ادرَأُوا الحُدود بالشُّبهات ما استَطعتم» ، وأخذَ يُرَقِّقُ قَلْبهُ ، ويستنزِلُهُ عما عزم عليه بفصاحتِهِ وبيانه ، ويتْلُو القرآن ، حتى رَقَّ له وأمرَ بتخْليةِ سبيلِه . فلما أراد أنْ يخْرجَ من بين يديه قال : أنشدني قصيدتك السِّينية . فأنشده حتى إذا بلغَ قولَهُ :

والشَّـــيْـخُ لا يـتْـرُكُ أخلاقَـهُ حـتـى يُـوَارَى في ثـرَى رَمْسِهِ

قال : يا شيخُ ، هذا الكلامُ يُشْبِهُ هذا الكلام ، وهذا الشعر من نمط ذلك الشعر ، يَعْني الأبياتَ التي نُسِبَتْ إليه ، ونحنُ نتمثَّل وصيَّتك ، ثم أمرَ فضُربت عُنُقُهُ ، وصُلِبَ على الجِسْر» .

وفي بعضِ أخبار علي بن الخليل التي رواها أبو الفرج الأصفهاني ما يشير إلى أنَّ الرشيد هو الذي أخذَ صالحَ بن عبد القدوس في الزَّنْدقة ، وحاكمه بنفسه ، وأبى أنْ يَقْبلَ تَوْبتَهُ ، وقتلَهُ[1] .

وحَفِظَ الخطيبُ البغداديُّ[2] وغيرُهُ الخبرَ الذي رواه ابنُ المعتز ، وساقُوهُ بأكثرِ ألفاظِهِ ، ولكنهم ذكروا فيه أنَّ المهديَّ هو الذي قتلَ صالح بن عبد القدوس . وفي شعْرِ بشّارِ بن بُرْدٍ ما يُؤكّدُ ذلك ، فقد رَثَى بشّارٌ صديقهُ صالحَ بن عبد القُدُّوس بقصيدتين ، تفجَّع فيهما عليه ، وصرَّحَ بأنَّ المهْدِيَّ هو الذي قتَلهُ وصلَبهُ[3] .

---

(١) الأغاني ١٤ : ١٧٥ — ١٧٧ .

(٢) تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٧٤ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٩٢ ، ولسان الميزان ٣ : ١٧٤ .

(٣) ديوان بشار بن برد ٣ : ١٥٥ ، ٤ : ٧٦ .

فزندقة صالح بن عبد القدوس زَنْدقة دينية لا زنْدقةٌ اجتماعيةٌ ، إذ كان يعتقد المانَويَّة اعتقاداً صادقاً ، وكان يؤمن بالإثْنينيّةِ والامْتزاجِ بين إلهِ النور وإله الظُّلْمَةِ ايماناً عميقاً ، وكان يتشبَّثُ بنحلتِه تَشبُّثاً قويّاً ، ويذُبّ عنها ذَبًّا شديداً .

(٦) عليٌّ بن الخليل

رُميَ عليٌّ بن الخليل مَوْلَى مَعْنِ بن زائدة الشَّيْبانيِّ الكوفيِّ بالزَّنْدقة ، وقد رَمَاهُ بها الجاحظ [١] ، وأبو الفرج الأصفهاني [٢] وابنُ النَّديم [٣] ، والشريفُ المُرْتَضَى [٤] .

ويبدو أنه اتُّهِمَ بالزَّنْدقةِ لأمْرينِ : الأول أنه كان من عُصْبةِ المجان المشهورة ، قال الجاحظ [٥] : «كان حمادُ عجردٍ ، وحَمَّادُ الرّاوية ، وحمادُ بن الزِّبْرِقان ، ويونس بن هارونَ ، وعليٌّ بن الخليل ، ويزيدُ بن الفَيْض ، وجميلُ بن مَحْفوظٍ ، وقاسم [بن زُنْقُطة] ومطيعُ [بن إياس] ، ووالبةُ بن الحباب ، وأبانُ بن عبد الحميد ، وعُمارةُ بن حَرْبيةَ ، يتواصَلون كأنهم نَفْسٌ واحدةٌ [٦] » . وفيما بَقيَ من شعره شواهدُ على قَصْفِهِ ولَهْوِهِ ومُجُونِهِ [٧] .

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٤٧ .

(٢) الأغاني ١٤ : ١٧٤ .

(٣) الفهرست ص : ٤٧٣ .

(٤) أمالي المرتضي ١ : ١٤٦ .

(٥) الحيوان ٤ : ٤٤٧ .

(٦) انظر النص وما فيه من زيادةٍ في الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١٠ ، والأغاني ١٨ : ١٠١ ، وأمالي المرتضي ١ : ١٣١ .

(٧) الأغاني ١٤ : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ .

والثاني أنه كان صاحباً لصالح بن عبد القُدُّوس ، فَطُعِنَ عليه بسبب مصاحبتِهِ الطويلةِ له ، وحُبِسَ معه في الزَّنْدقة ، قال أبو الفرج الأصفهاني [١] : «كان يعاشِرُ صالح بن عبد القدوس ، لا يكادُ يُفَارِقُهُ ، فاتُّهِمَ بالزَّنْدقةِ ، وأُخِذَ مع صالحٍ ، ثُمَّ أُطْلِقَ لما انكشفَ أمْرُهُ» .

وَرَوى الشريفُ المُرْتَضَى أنَّ الرشيد تَعقَّبه حين جَدَّ في تَعَقُّبِ الزَّنادقةِ ، فتوارَى منه ، ثم وفدَ عليه بالرَّقةِ ، فنوَّهَ به ، واعْتَذَرَ مما نُسِبَ إليه ، فعفَا عنه ، وكتبَ إلى حَمْدَوَيْهِ صاحب الزَّنادقة ألّا يعرضَ له ، يقول [٢] : «طَلَبَهُ الرشيدُ عند قَتْلِهِ الزَّنادقة ، فاسْتَتَرَ طويلاً ، ثم قصَدَ الرقَّةَ ، وبها الرشيدُ ، فمدَحه ومدَحَ الفَضْلَ ابن الرَّبيع » .

وفصَّلَ أبو الفرج الأصفهانيُّ خبرَ قُدومِهِ على الرَّشيد ، واسْتِعْطافِهِ له ، وصَفْحِهِ عنه [٣] ، فذكر أنه دَخَل عليه ، وهو متوكئٌ على عصاً ، وفي يدهِ قصّةٌ ، فلما رآه أمَرَ بأخذِ قصَّتهِ ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنا أحْسَنُ عبارةً لها ، فإن رأيتَ أنْ تأذنَ لي في قراءتها فعلتُ. قال : اقرأها ، فاندفع يُنْشِدُهُ فيها قصيدته :

يا خَيْرَ مَنْ وَخَدَتْ بأَرْحُلِهِ نُجُبَ الرِّكَابِ بِمَهْمَهٍ جَلْسِ [٤]

وفيها يقول مُسْتَرحماً له ، ونافياً الزندقةَ عن نَفْسِهِ :

---

(١) الأغاني ١٤ : ١٧٤ .

(٢) أمالي المرتضي ١ : ١٤٦ .

(٣) الأغاني ١٤ : ١٧٤ — ١٧٧ ، وانظر أمالي المرتضي ١ : ١٤٦ — ١٤٧ .

(٤) وخدت : أسرعت. الجلس : الغليظُ من الارض.

إني إلـيك لجأتُ مِنْ هَـرَبٍ قد كـان شرَّدني ومن لُبْس [1]
واختَـرْتُ حُكْمَك لا أُجاوِزُهُ حـتى أُوسَّدَ في ثـرى رَمْسي
مـا ذاك إلاّ أنّني رَجُـلٌ أَصْبُو إلى بَـقَـرٍ من الإنْسِ
بَـقَـرٍ أوانِسَ لا قُـرُونَ لها نُجْلِ العُيونِ نواعمٍ لُعْس [2]
رَدْعُ الـعَـبير على تَـرائبها يُقْبِلْنَ بالتَّرحيبِ والخَلْسِ [3]
وأُشاهِـدُ الفِـتْـيانَ بَيْـنَهـم صَفْرَاءُ عند المَزْج كالوَرْس [4]
لـلْـمـاءِ في حَـافـاتها حَـبَبٌ نَظْمٌ كَرَقْمِ صَحائِفِ الفُرْسِ [5]
واللهُ يـعـلَـمُ في بَـقِـيَّـتِـهِ ما إنْ أضَعْتُ إقامَةَ الخَمْسِ [6]

فاستَحْسَنَها الرشيدُ، وقال له: من أنت؟ قال: عليٌّ بن الخليل الذي يقال فيه: إنه زنديقٌ، فضَحِكَ وقال له: أنتَ آمنٌ، وأمرَ له بخمسة آلاف درهمٍ، وخُصَّ به بعد ذلك، وأكثر مدْحَه.

ويُسْتَشَفُّ من القصيدة أَنَّ زندقةَ علي بن الخليل زندقة اجتماعية لا زَنْدقة دينية، فهو يُقِرُّ فيها بأنه كان ماجناً خليعاً في أيام شَبَابِهِ، فقد كان يتتبَّعُ الحسان، ويَلْهُو مع الفِتْيان، دونَ أن يُفرِّطَ في الطّاعاتِ والمفروضات، ومما يقوّي ذلك هذا الخبر، قال

(١) اللبس: الالتباس والاشتباه.
(٢) نجل: واسعة العيون، واللعس: سُودُ الشفاه.
(٣) الردع: أثر الطيب في الجسد. الخلس: النظر خلسةً.
(٤) الورس: صبغ أصفر.
(٥) الحبب: الفقاعات التي تطفو فوق الخمر.
(٦) بقية الله: طاعته وانتظار ثوابه.

أبو الفرج الأصفهاني[1] : « دخَلَ علي بن الخليل علَى المهدي ، فقال له : يا عليٌّ ، أنتَ على مُعاقرتكَ الخَمْرَ وشُرْبكَ لهَا؟ قال : لا ، والله ، يا أميرَ المؤمنين ، قال : وكيفَ ذاك؟ قال : تُبْتُ منها ، قال : فأينَ قَوْلُكَ :

أُولِعَتْ نَفْسي بِلَذَّتِهَا ما تَرَى عن ذَاكَ إقْصَارَا

وأينَ قَوْلُكَ :

إذَا ما كُنْتَ شارِبَهَا فَسِرًّا وَدَعْ قَوْلَ العَوَاذِلِ واللَّواحي[2]

قال : هذا شيءٌ قُلْتُهُ في شبابي ، وأنا القائل بعد ذلك :

على اللّذاتِ والرَّاحِ السَّلامُ تَقَضّى العَهْدُ وانْقَطَعَ الذِّمامُ[3]
مَضَى عَهْدُ الصّبا وخَرَجْتُ منه كما من غِمْدِهِ خرجَ الحُسَامُ
وَقُرْتُ على المَشيبِ فليسَ مني وصالُ الغانياتِ ولا المُدَام[4]
وَوَلّى اللّهْوُ والقَيْناتُ عني كما وَلّى عن الصُّبْحِ الظَّلَامُ
حَلَبْتُ الدَّهْرَ أشْطُرَهُ فَعندي لصَرْفِ الدَّهْرِ مَحْمودٌ وَذَامُ[5]

(١) الأغاني ١٤ : ١٨١.

(٢) اللواحي : جمع لاحية ، وهي اللائمة.

(٣) الذمام : العهد.

(٤) وَقُرَ : رَزُن.

(٥) حلب أشطر الدهر : اختبر حالاته فعرف خيره وشره.

(٧) سلمٌ الخاسرُ

قُذِفَ سَلْمُ بن عمرو مَوْلَى بني تَيْمِ بن مُرَّةَ البَصْرِيُّ ثم البغداديُّ بالزَّنْدقة ، وقد قَذَفَهُ بها ابنُ النديم[1] ، ولم يُشِرْ إلى ذلك أكثر القدماء.

ومن المعلوم أنَّ سَلْماً كان في شبابِهِ ماجناً خليعاً ، حتى عُرِفَ بسلْمٍ الخاسِرِ ، قالَ ابنُ المعتز[2] : «حدثني اليزيدي قال : قال لي أبو عبد الله الجَمَّازُ : سَلْمٌ الخاسرُ خالي ، فقلت له : جعلتُ فِداكَ ، لمَ سُمِّيَ الخاسرَ؟ فضحكَ وقال : لأنه تَقَرَّأ ، فبقي في تَقَرُّئهِ مدةً يسيرةً ، فَرَقَّتْ حالُهُ ، فاغْتَمَّ لذلك ، ورجعَ إلى شيءٍ مما كانَ عليه من الفِسْقِ والمجون ، وباع مُصْحَفاً كان وَرِثَهُ من أبيه ، فاشترى بثَمنِهِ طُنبوراً ، وقيلَ : باعَ مصحفاً واشترى بثمنه دفترَ شعرٍ ، فشَاعَ بالنّاس خبرُهُ ، فسُمِّيَ الخاسرَ بذلك. وقيل له : ويلك ! في الدنيا أحدٌ فعَلَ ما فَعَلتَ؟ تبيعُ مصحفاً وتَشتري بثمنِهِ طُنْبوراً؟ فقال : ما تَقَرَّبَ أحدٌ إلى إبليسَ بمثل ما تَقَرَّبتُ إليه ، فإني أقررتُ عَيْنَهُ» ! !

---

(١) الفهرست ص : ٤٧٣.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٩٩ ، وانظر الأغاني ١٩ : ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٠.

وروى الخطيبُ البغداديُّ الخبرَ السابقَ ، وزادَ عليه ما يفيدُ أنَّ سَلْماً كان مُغْرقاً في التَّهتُّكِ ، مُوغِلاً في الإباحة قبلَ أن يتنسَّكَ إلى حين قَصير ، إذ استَهلَّ الخبرَ بقوله[1] : «كان على طريقةٍ غيرِ مَرْضيَّةٍ من المجون والتَّظاهر بالخلاعة والفُسُوق» ، وألْحقَ به خبراً آخر عن تَسْميته بالخاسر يدل على أنه كان كلفاً باللّهْو ، مُغْرماً بالظُّرفاء ، وأنه بَذَّرَ أمْوالهُ في الإنْفاقِ عليهم ، طَلباً للفرحةِ والبَهْجَة ، وبحثاً عن اللذةِ والمُتْعة ، إذْ يقول معقباً على الخبر السابق[2] : «وقيل : بل سُمِّيَ الخاسرَ لأنه مَلَك مالاً كثيراً ، فأتْلَفَهُ في معاشرةِ الأدباءِوالفتيان» .

ومن المعلومِ كذلك أنه كان من تلاميذ بشار بن بُرْدٍ ورُواتِهِ ، فتعلّمَ عليه ، واقتدَى به[3] . قال أبو الفرج الأصفهاني[4] : «هو راويةُ بشار بن بُرْدٍ وتلميذُهُ ،وعنه أخذَ ، ومن بحرِهِ اغْترفَ ، وعلى مَذْهَبِهِ ونمطهِ قال الشعرَ» . وفي بعض الروايات أنه كان من غِلمانِ بشارٍ[5] . وكان بَشَّارٌ من فُحُولِ الشعراء ، وكبارِ الزنادقةِ ، ورؤوسِ الشُّعوبية ، فحَمَلَ سَلْمٌ عنه الشعرَ والأدبَ ، وحَمَلَ عنه أيضاً كثيراً من البطالات والضَّلالات والآفاتِ .

ولم يُخَالِطْ سَلْمٌ بشاراً وَحْدَهُ ، بل خَالَطَ غَيْرَهُ من الشُّعَراء الكوفيين الماجنينَ

---

(١) تاريخ بغداد ٩ : ١٣٦ .

(٢) تاريخ بغداد ٩ : ١٣٦ .

(٣) الأغاني ١٩ : ٢٨٦ .

(٤) الأغاني ١٩ : ٢٦١ ، وانظر طبقات ابن المعتز ص : ١٠٠ ، وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٩ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٢ .

(٥) الأغاني ١٩ : ٢٦٦ ، وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٧ .

الذين كانوا يُرْمَوْنَ بالزندقةِ ، مثل والبة بن الحُبابِ[1] ، وأبي الشَّمَقْمق [2] ، وأبي العَتاهية [3] .

وعلى ما يُرْوَى من أنه كان يتوقَّرُ بعدَ أنْ عَلَتْ به السِّنُّ ، وأنه كان يَحْتفِلُ بمَلْبَسِهِ وعِطْرِهِ ومَظْهَرِهِ ، ويترَّفُ في حياتِهِ ويتنعَّمُ تنعُّماً شديداً [4] ، فإنه ظَلَّ يُحِبُّ اللَّهْوَ والهَزْلَ ويُسْرِفُ في الإنفاقِ على مجالِسِ أُنْسِهِ وطَربه ، ويُتْلِفُ جُلَّ ثَرْوَتِهِ التّالدةِ والطّريفةِ في مُعاشرةِ رفاقِهِ من الشعراء والأدباء الظُّرفَاء ، قال ابنُ المعتز [5] : «كان مَزَّاحاً لطيفاً ، مَدَّاحاً للمُلوك والأشراف ، وكانوا يُجْزِلُونَ له في الثَّوابِ والعَطِيَّةِ ، فيأخذ الكثير ويُنْفِقُهُ على إخْوانِهِ وغَيرِهم من أهْلِ الأدب» ، وقال يحيى بن المُبَارك اليزيديُّ [6] : «إنّما قِيلَ لَهُ سَلْمٌ الخاسرُ لأنه وَرِثَ من أبيه مائةَ ألْفِ درهم ، وأصابَ من مدائحِ الملوك مائةَ ألف درهمٍ ، فأنْفَقَهَا كلها على الأدب وأهْلِهِ» . ولم يَزَلْ يداعبُ رفاقَهُ ويُمَازِحهُم ويُعابِثُهم ، ويَحْتَمِلُ غَمْزَهم فيه وطَعْنَهم عليه [7] .

فهو أقرَبُ إلى أنْ يكونَ من عُصْبةِ المُجَان ، فإنه كان يتظاهرُ بالمُجُونِ والخَلاعةِ والفُسوقِ في الشَّطْرِ الأولِ من حياتِهِ ، ثم جَعَلَ يَطْلُبُ اللّهْوَ والهَزْلَ والظَرْفَ في الشَّطْرِ الثاني من حياتِهِ . وإذا صَحَّ ذلك فإنَّ ما يُنْسَبُ إليه من الزندقة

---

(١) الأغاني ١٩ : ٢٧٤ .

(٢) الأغاني ١٩ : ٢٧٦ ، ٢٨٤ .

(٣) الأغاني ١٩ : ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ .

(٤) الأغاني ١٩ : ٢٧٢ .

(٥) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٥ .

(٦) تاريخ بغداد ٩ : ١٣٧ .

(٧) الأغاني ١٩ : ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ .

يمكن أنْ يكونَ من الزندقةِ الاجتماعية ، وقد برّأهُ ابنُ المعتزّ من الزندقةِ الدِّينية ، إذ يقول [1] : «لم يكُنْ رَدِيءَ الدِّين» .

وربما اتُّهمَ بالزندقةِ لأنه اتَّصلَ بالبرامكة ، وكاد يَختَصُّ بهم ، قال أبو الفرج الأصفهاني [2] : «كان سَلْمٌ مُنْقطعاً إلى البرامكة ، وإلى الفضل بن يحيى خُصوصاً مِنْ بينهم» . وقد استَفْرَغَ قِسْماً كبيراً من شعرِهِ في مَدْحِهِم والثّناء عليهم ، فأَسْنَوْا له الجوائزَ ، وبَرُّوهُ برًّا شديداً ، قال أبو الفرج الأصفهاني [3] : «وَصَلَ إلى سَلْمٍ الخاسرِ من آلِ بَرْمَكَ خاصةً سِوَى ما وَصَلَ إليه من غيرِهم عشرونَ ألفَ دينارٍ ، ووصَلَ إليه من الرشيدِ مِثْلُهَا» . ولكنه مدَحَ الخلفاءَ العبَّاسيّينَ كالمهْدِيِّ والهادي والرَّشيد ، ونَالَ منهم مالاً كثيراً ، وما رَواهُ ابنُ المعتز وأبو الفرج الأصفهاني من مدائحِهِ فيهم وأخبارِهِ معهم يَدُلُّ على ذلك [4] .

ومن المعروف أَنَّ البرامكةَ ضَمُّوا إليهم الشعراء من الموالي الفُرْس ، وشَجَّعوا الشعوبيةَ والزَّنادقة منهم ، وأحْسَنُوا إليهم [5] . وذكر ابنُ النديم أنَّ البرامكة جميعاً كانوا زنادقةً إلاّ محمد بن خالد بن بَرمك [6] . ومن أجل ذلك قد يُسْتَنتَجُ أنَّ ابنَ النديم سَلَكَ سلماً الخاسر في الزَّنادقة بسبب انْقطاعِهِ إلى البرامكة واختصاصهِ بهم أكثرَ من غيرهم .

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٠ .

(٢) الاغاني ١٩ : ٢٦١ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ .

(٣) الأغاني ١٩ : ٢٧٠ .

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٢ — ١٠٥ ، والأغاني ١٩ : ٢٧٩ — ٢٨٥ ، وانظر تاريخ بغداد ٩ : ١٣٧ — ١٣٩ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٨ — ٢٤٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٥) العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٧٦ ، والصراع بين الموالي والعرب ص : ٤٠ .

(٦) الفهرست ص : ٤٧٣ .

وقد نَصَّ ابنُ المعتز على أنَّ أشعارَ سَلْمٍ الخاسرِ وافِرةٌ كثيرةٌ جداً[1] ، ووصفهُ أبو الفرج الأصفهانيُّ بأنه «شاعرٌ مَطْبُوعٌ مُتصرِّفٌ في فُنُونِ الشعر[2]» . ولكن أكثر ما بقي من شعرِهِ إنما هو في المديح ، أما شعرُهُ في الهجاءِ والرثاءِ فلم يَسْلَمْ منه إلاّ النَّزْرُ اليسيرُ ، ويَبْدُو أنَّ شعره فيهما كان قليلاً في الأَصْلِ ، لأنه لم يكن يُحْسِنُ أن يهجوَ ولا أنْ يرثي ، بل كان يُحْسِنُ أنْ يَمْدَح[3] . وأما شعرُهُ في اللَّهْوِ والمُجُون فضَاعَ ولم يَصِلْ إلينا شيءٌ منه ، ولذلك يَبْقَى ما اشتُهر به من مُجُونٍ وخلاعةٍ وفُسوقٍ غامضاً بعضَ الغُمُوض ، إذْ لَا يَدُلّ عليه إلاّ ما حُفِظ من أخبارِهِ ، وبقايا من أهاجيهِ ومقدماتِ مدائحِهِ .

ويُسْتَخْلَصُ من بعض أهاجيهِ أنه كان يُقْذِعُ في النَّيْلِ من خُصُومِهِ ، إذْ كان يَطْعَنُ في أعْرَاضِهِم ، ويُفْحِشُ في ذلك إفحاشاً مُزْرِياً ، ومن ذلك قَوْلُهُ في والبةَ بن الحُباب ، وقد تنافرا وتهاجَرا[4] :

يا والبَ بنَ الحُبابِ يا حَلَقي لستَ مِنْ أهْلِ الزِّناء فانْطَلِقِ[5]
تُدخِلُ فيه الغُرْمُول تُولجُهُ مِثْلَ وُلُوجِ المِفْتَاحِ في الغَلَق[6]

وفي أخبارِهِ أنه سألَ أبا محمدٍ اليزيديَّ أَنْ يَهْجُوَهُ تَماجُناً وتعابثاً ، وتَملُّحاً وتظَرُّفاً ، فاسْتَعْفَاهُ ، فأبَى ، فألحّ عليه ، فاسْتَجَابَ له ، وهجاهُ هجاءً لاذعاً خبيثاً ، هَتَكَ به

---

(1) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٦ .

(2) الأغاني ١٩ : ٢٦١ .

(3) الأغاني ١٩ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ .

(4) الأغاني ١٩ : ٢٧٤ .

(5) الحلقي : من قولهم : أتان حَلَقِيَّة ، إذا تَداولها الحُمرُ حتى أصابها داءٌ في رحمها .

(6) الغُرْمول : الذكر .

حُرْمَتَهُ وكَرامَتَهُ ، إذ اتَّهَمَهُ بالتَّنكُّرِ لوالِدَيْهِ والنَّهْرِ لهما ، وأنه ممن يُلَاطُ به ويُؤْتَى من دون النساء ، فهو يقول فيه[1] :

عَقَّ سَلْمٌ أُمَّهُ صِغَراً وأبا سَلْمٍ على كِبَرِهِ
كُلَّ يومٍ خَلْفَهُ رَجُلٌ رامحٌ يَسْعَى على أثَرِهْ
يُولِجُ الغُرْمُولَ سَبَّتَهُ كَوُلوجِ الضَّبِّ في جُحُرِهْ[2]

فاغْتَمَّ ونَدِمَ وقال : هكذا تكونُ عاقبةُ البَغْيِ والتَّعَرُّضِ للشَّر !

ولكنه دَعَا في بعض مُقَدِّماتِ مدائِحه للبرامكة إلى الإقبالِ على المُتَعِ ، وانْتِهَازِ الفُرَصِ فيها ، وأخذَ مَعْنَى لأستاذِهِ بشارٍ في ذلك ، فاخْتَصَرَهُ وهَذَّبَهُ وقَرَّبهُ ، فسارَ بيتُهُ ، وخَمَلَ بيتُ أستاذِهِ ، وهو قولهُ في مُقَدِّمةِ مِدْحَتِهِ الرائية في يحيى بن خالدٍ البَرْمكي[3] :

مَنْ رَاقَبَ الناسَ ماتَ غمًّا وفازَ باللّذةِ الجَسُورُ

وقدسَرَقَ معناه من قَوْلِ بَشَّارٍ :

مَنْ راقَبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِهِ وفازَ بالطّيباتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

فَغَضِبَ بشّارٌ عليه ، ثم نَحَّاهُ عن نَفْسِهِ حتى كَلَّمَهُ فيه بَعْضُ إخوانه فَرَدَّهُ إليه ، ورَضِيَ عنه[4] .

---

(١) الأغاني ١٩ : ٢٧١ .

(٢) السبَّة : الاست .

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٠ ، وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٩ .

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ١٠٠ ، والأغاني ٣ : ١٩٩ ، ١٩ : ٢٦٣ ، وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٢ .

وذهبَ الدكتور محمد جابر عبد العال إلى أنَّ ما اشتُهِرَ به سَلْمٌ الخاسرُ من المجون ربما جاءه من المُتَشيِّعينَ المُتطرفين[1] ، واستَدَلَّ على ذلك بما رواه أبو الفرج الأصفهانيُّ من أنه مَدَحَ بعضَ العَلويِّينَ ، فبلغَ ذلك المَهْديَّ ، فتوعَّدَهُ وهَمَّ به ، فسَلَّ سَخيمَتَهُ بقصيدةٍ اعتذرَ إليه فيها اعتِذَاراً جميلاً ، ونوَّهَ به تَنْويهاً رائعاً ، فعفا عنه[2] . وبنى عليه «أنه اتَّصل بالمُتَشَيِّعِينَ وَعَرَفَ مذاهِبَهم من قُرْب ، وآثَرَها[3] » .

وهو يتعلّقُ بخبرٍ مُفْردٍ مُبْهمٍ لا يتضمَّنُ اسمَ ذلك العَلويِّ ، ولا ما يُنْبِئُ بمَذْهَبِهِ ، وهل كان من المُتَطرِّفينَ أو من المُعتدلينَ ، ولا ما يكشفُ عن صلة سَلْمٍ الخاسرِ به ، وهل كانت طارئةً ضعيفةً أو قديمةً قويةً ، ويتغافَلُ عن الكثرةِ الكاثرةِ من الأخبارِ التي تؤكد أنَّ سَلْماً الخاسرَ أخْلَصَ نَفْسَهُ وفَنَّهُ للبرامكةِ والعباسيِّينَ ، ولم يَعْبأ بالعَلويِّين[4] !

ويبدو من أخبارِ سَلْمٍ الخاسرِ وأشعارِهِ أنَّ زَنْدَقَتَهُ كانت زَنْدقةً اجتماعيَّةً لم تتجاوز الاسْتخفافَ والاسْتِهتارَ ، ولم تتعدَّ المُجُونَ والعَبثَ ، ولم تتخطَّ الهَزْلَ والظَّرْفَ . وما حُفِظَ من أخبارِهِ يُظْهِرُ ذلك أكثرَ مما يُظْهِرُهُ ما حُفِظَ من أشعارِهِ .

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص : ٢٧٠ .

(٢) الاغاني ١٩ : ٢٧٥ .

(٣) حركات الشيعة المتطرفين ص : ٢٧٠ .

(٤) انظر العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٨) أَبانُ بنُ عبد الحميد

نَظَمَ الجاحظُ أبانَ بن عبد الحميد اللّاحقيَّ مَوْلَى بني رَقاشٍ البَصْريَّ في الزَّنادقة[١] ، وأشارَ صاحِبُهُ المُعَذّلُ بنُ غيلان في هجائِهِ له أنه كان مَانَويًّا . فهو يقول فيه[٢] :

رأيْتُ أباناً يومَ فِطْرٍ مُصَلّياً فَقُسِّمَ فِكْري واسْتَفزَّني الطّربْ
وكيفَ يُصَلّي مُظْلِمُ القَلْبِ دينُهُ على دينِ ماني إنَّ ذاكَ مِنَ العَجَبْ

وكَرَّرَ ذلك أبو نُواسٍ في هجائِهِ له أيضاً ، وزادَ عليه أنه كان مَاديّاً رافِضيًّا ، فهو يقولُ فيه[٣] :

جالستُ يَوْماً أبانا لا دَرَّ دَرُّ أبانِ
ونحنُ حُضْرُ رواقِ الـ أميرِ بالنَّهْروانِ[٤]

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٤٧ . والأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١٠ . والأغاني ١٨ : ١٠١ ، وأمالي المرتضي ، ١ : ١٣١ .

(٢) الأغاني ٢٣ : ١٥٧ ، وخزانة الأدب ٣ : ٤٥٨ .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٤٨ ، والأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١١ ، والأغاني ٢٣ : ١٥٦ ، وخزانة الأدب ٣ : ٤٥٨ ، وانظر ديوان أبي نواس ص : ٥٤٣ ، فهي فيه أطول .

(٤) الرواق : مقدم البيت ، أو سقف في مقدمه .

حتّى إذا ما صلاةُ الأُ ولَى دَنَتْ لأَوانِ [1]
فـقـامَ ثـمَّ بها ذُو فَصَاحـةٍ وبَـيَـانِ [2]
فـكُـلَّما قـالَ قُـلْـنَـا إلى انْـقِضَـاءِ الأذانِ [3]
فـقـالَ كـيفَ شَهِدْتُمْ بـذا بـغـيرِ عيَانِ؟ [4]
لا أشْهَدُ الدَّهْرَ حتّى تُـعـايِنُ الـعَـيْنـانِ!
فَـقُـلْتُ سُبْـحانَ ربِّي فـقـال سُبْـحانَ ماني!
فـقـلْتُ عـيسى رَسُولٌ فـقـال من شَيْـطـانِ!
فَـقُـلْتُ مُوسَى كَلـيمُ الـ ـمُـهَـيْـمِنِ الـمَـنَّـانِ
فـقـال رَبُّكَ ذو مُـقْـ ـلَـةٍ إذن ولِسَـانِ!
فـنَـفْسُـهُ خَـلَـقَـتْـهُ أمْ مَنْ؟ فَقُمتُ مكاني!
عن كـافـرٍ يـتـمرّى بـالـكُفرِ بـالرَّحْمنِ [5]!
يُـريْـدُ أنْ يـتَسَوَّى بـالـعُصْـبـةِ الـمُـجَّـان
بـعَـجْـرَدٍ وعُـبَـادٍ والـوَالِـبيِّ الـهِـجـانِ
وقـاسمٍ ومُـطـيـعٍ ريحانـةِ الـنَّـدمـانِ

وزَعَمَ أبو عُبَيْدَةَ معمرُ بن المُثَنَّى أنه كان يهوديًّا، قال أبو الفرج

---

(١) صلاة الأُولى: صلاة الصبح.

(٢) قام ثم بها: قام بصلاة الصبح مؤذناً لها، فالمراد الأذان لا الصلاة.

(٣) فكلما قال قلنا: كلما قال المؤذن قولاً رَدّدناه بعده.

(٤) بذا: بقول المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله. بغير عيان: بغير مشاهدة.

(٥) يتمرّى: يتزيَّن.

الأصفهاني[1] : «جَلَسَ أبانُ بن عبد الحميد ليلةً في قَوْمٍ ، فثَلَب أبا عبيدةَ فقال : يَقْدَحُ في الأنْسابِ ولا نسَبَ له . فبلغَ ذلك أبا عبيدةَ فقال في مَجْلِسِهِ : لقد أغْفَلَ السُّلْطَانُ كلّ شيءٍ حتى أغْفَلَ أَخْذَ الجِزْيَةِ من أبان اللّاحقي ، وهو وأهْلُهُ يَهُود ، وهذه مَنَازِلُهم فيها أَسفارُ التَّوْراة ، وليس فيها مُصْحَفٌ ، وأوْضَحُ الدلالةِ على يَهُودِيَّتِهم أَنَّ أكثرهم يَدَّعي حِفْظَ التَّوراة ، ولا يَحْفَظُ من القرآن ما يُصَلّي به» .

وقال بعضُهم[2] : إنه كان كافراً .

أمَّا نَظْمُ الجاحظْ لأبان بن عبد الحميدِ في الزَّنادقة ، فإنَّ الجاحظَ نفْسَهُ لم يلبثْ أنْ ارْتَابَ به ، وتحرَّزَ منه ، وكادَ يتراجعُ عنه ، لأنه حارَ في نِحْلَةِ أبان بن عبد الحميد ، إذْ لم يَعْرِفْ حَقيقتَها ، فنَبَّهَ على غُموضِهَا وانْبهامِهَا ، ولم يَقْطَعْ برأْيٍ فيها ، فهو يقول[3] : «فأما اعْتِقادُهُ فلا أدْري ما أقولُ لك فيه ، لأَنَّ الناسَ لم يُؤْتَوْا في اعْتِقادِهم الخطأَ المكشوفَ من جِهَةِ النَّظَرِ» .

وأمَّا رَمْيُ المُعَذّلِ بن غيلان له بالمَانَوِيَّةِ ، فبعثُهُ ما كان بينهما من مودةٍ وخَاصةٍ ومن هَزْلٍ ودُعابةٍ ، فكان كُلٌّ منهما يَعْبثُ بصاحبِهِ ، ويَشْغَبُ عليه ، ويفتَنُّ في التَّعْريضِ به ، ليُضْحِكَ الناسَ منه ، قال أبو الفرج الأصْفهاني[4] : «كان أَبان اللاحقيُّ صديقاً للمعذل بن غيلان ، وكانا مع صَداقتهما يتعابثان بالهجاء ، فيَهْجُوهُ المعذّلُ بالكفر ، ويَنْسِبُهُ إلى الشُّؤْمِ[5] ، ويَهْجُوهُ أبان ، ويَنْسِبُهُ إلى الفُساء الذي

(١) الأغاني ٢٣ : ١٦٥ ، وخزانة الأدب ٣ : ٤٥٨ .

(٢) الاغاني ٢٣ : ١٦٦ .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٥١ .

(٤) الأغاني ٢٣ : ١٥٧ ، وخزانة الأدب ٣ : ٤٥٨ .

(٥) في خزانة الأدب : «وينسبه إلى التَّنُوية» ، وهو أنسبُ .

تُهْجَى به عبد القَيْس ، وبالقِصَر ، وكان المُعَذَّلُ قصيراً . فسعَى في الإصْلَاحِ بينهما أبو عُيينَةُ المهلبيُّ . فقال له أخُوهُ عبد الله ، وهو أسَنُّ منه : يا أخي ، إنَّ في هذين شراً كثيراً . ولا بدَّ من أنْ يُخْرِجاهُ . فدَعْهُمَا ليكونَ شَرُّهما بينَهما ، وإلاّ فرَّقاه على الناس » !

وأمَّا اتِّهامُ أبي نواسٍ له بالمَانَويَّةِ والمادية والرّافضيَّةِ فمَصْدَرُهُ ما كانَ بينهما من كُرْهٍ وحِقْدٍ . فقد نقمَ منه أبو نواسٍ تَزْيينَهُ له ألّا يَنْقُلَ كليلةَ ودِمْنَةَ إلى العربية شعراً ، وكان يحيى بن خالدٍ البرمكيُّ اختارَهُ لنَقْلها . قال ابن المعتز[1] : « ظَنَّ أبو نواسٍ أنه قد نَصَحَ له ، واسْتَقَالَ الأمْرَ فيه . فاستَعْفَى عنه . وتخلّى به اللّاحقيُّ . ولزِمَ بيتَهْ لا يخرجْ حتى فَرَغَ منه في أربعة أشهرٍ . وهي قريبةٌ من خمسةِ ألاف بيتٍ . لم يقدر أحدٌ من الناس أنْ يتعلّق عليه بخطأٍ في نَقْلِهِ . ولا أن يقول : تَرَكَ من لَفْظِ الكتاب أو معناه . ثم حَمَلَهْ إلى يحيى بن خالدٍ . فَسُرَّ به سروراً عظيماً . وأعْطَاهْ على ذلك مائةَ ألفِ درهم . فحزن أبو نواس وحَسَدَهْ . وتَبَيَّنَ له أنه كان احتالَ عليه . فهذا سببُ ما كان بينهما من عداوةٍ » .

ومَصْدَرُهُ ما كان بينهما من منافسةٍ في المكانةِ الأدبيةِ والجوائز السّنية . فإنَّ أبانَ بن عبد الحميد كان صاحب هباتِ البرامكةِ وصِلَاتِهم للشعراء . وهو الذي كان يستخرجها لهم ، ويُوَزِّعُهَا عليهم[2] . فأخَّرَ أبا نواس . وحَطَّ من قيمةِ شعرِهِ . وقَلَّلَ مكافأته . فحنقَ أبو نواسٍ عليه . وهجاه بقصائد . منها قصيدته النونية . قال ابن المعتز[3] : «كان اللّاحقيُّ شاعراً ظريفاً يمدح البرامكة ، وكان مَخْصوصاً من بينهم

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢٤١ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٢٤١ .

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ٢٠٢ ، وانظر أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ١٨ .

بجعفرٍ لا يكادُ يفارقُهُ . وكانت البرامكةُ إذا أرادوا تَفْرِقةَ مالٍ على الشعراء وَلَّوْهُ ذلك . فأُمِرَ له بمالٍ يُفَرِّقُهُ فيهم . وكان كثيراً له خَطَرٌ ، ففرَّقَهُ ، وأمرَ لأبي نواسٍ بدرهمٍ ناقصٍ ، وأرسل إليه : إني قد أعطيتُ كلَّ شاعرٍ على قَدْرِهِ ، وهذا مِقْدَارُكَ . فَوَجَدَ عليه أبو نواسٍ » . وقال أبو الفرج الأصفهاني[1] : « كان يحيى بن خالدٍ البَرْمكيُّ قد جعلَ امتحانَ الشعراء وتَرْتيبَهم في الجوائز إلى أبان بن عبد الحميد ، فلم يَرْضَ أبو نواسٍ المَرْتَبَةَ التي جَعَلَهُ فيها أبان ، فقال يَهجوه بذلك » . يعني قصيدتَهُ النُّونية .

وأشار الجاحظُ في شَرْحِهِ لقصيدةِ أبي نواسٍ النُّونيَّةَ إلى أنه كان يبتغي بها التَّشْنيعَ على أبان بن عبد الحميد ، والتَّشْهيرَ به ، ووَضَّحَ ما في بعض التُّهم التي نَسبهَا إليه من تَناقضٍ بَيِّنٍ ، فإنَّ مَنْ يَعْتَنِقُ المانوية يُبَجِّلُ المسيحَ ولا يَهْزأ به ، يقول[2] : « تَعجُّبي من أبي نُواسٍ ، وقد كان جالَسَ المُتَكلِّمينَ . أشدُّ من تَعجُّبي من حَمَّادٍ ، حين يَحْكي عن قَوْمٍ من هؤلاء قَوْلاً لا يَقُولُهُ أحَدٌ ، وهذه قُرَّةُ عَيْنِ المَهْجُوِّ . والذي يقول : سبحانَ ماني يُعظِّمُ أمرَ عيسى تَعْظيماً شديداً ، فكيف يقولُ : إنه من قِبلِ الشَّيْطَان » ! !

وفيما حُفِظَ من أقوالِ ماني وآثارِهِ ما يُحَقِّقُ ما اسْتَظْهَرَهُ الجاحظُ ويَصْدُقُهُ ، قال ابن النديم[3] : « استخرجَ ماني مَذْهَبَهُ من المجوسية والنَّصْرَانية » ، وقال الشهرستاني[4] : « أحْدَثَ [ماني] ديناً بين المجوسية والنَّصْرَانيةِ ، وكان يقول بنُبوَّةِ المسيحِ عليه السَّلام » .

---

(1) الأغاني ٢٣ : ١٥٦ ، وانظر أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ١٨ .

(2) الحيوان ٤ : ٤٥٠ .

(3) الفهرست ص : ٤٥٨ .

(4) الملل والنحل ١ : ٢٢٤ .

على أنَّ ابن النديم ذكر أنَّ في أقوالِ ماني وآثاره ما يَدُلُّ على أنه غَمزَ جميعَ الرُّسُلِ، وأنكرَ نُبُوَّةَ المسيحِ، وطَعَنَ عليه، يقول[1]: «ماني ينتَقِصُ سائرَ الأنبياء في كُتُبِهِ، ويُزْري عليهم، ويرميهم بالكذبِ، ويزعمُ أنَّ الشياطينَ استَحْوَذَتْ عليهم، وتَكَلَّمتْ على ألْسِنَتِهِم، بل يقولُ في مواضعَ من كُتُبِهِ إنهم شياطين، فأما عيسى المشهور عندنا وعند النّصارَى فيزعمُ أنه شَيْطان».

فكأنَّ ما لَاحَظَهُ الجاحظُ من تَنَاقُضٍ في بعضِ التُّهمِ التي نَسَبهَا أبو نُواسٍ إلى أبان بن عبد الحميد يَرْجعُ إلى الاختلافِ في أقوالِ ماني وآثاره، لا إلى جَهْلِ أبي نواسٍ بها.

ونَصَّ الجاحظُ على أنَّ أبان بن عبد الحميد كان أرْقَى طبقةً، وأعْلَى منزلةً، وأصْفَى قريحةً وأوْفَى مَعْرفةً من عُصْبةِ المُجَّان الذين أرْجَفَ أبو نواس أنه كان يَطْمَعُ في أنْ يكونَ مِثْلَهم، ويطمَحُ إلى أنْ يَبْلغَ شأوهم، يقول[2]: «والعَجَب أنه يقول في أبان: إنه مِمَّن يتشَبَّهُ بعجردٍ، ومطيعٍ، ووالبةَ بن الحبابِ، وعليٍّ بن الخليل، وأصْبَغٍ، وأبان فوق مِلْءِ الأرض من هؤلاء. ولقد كان أبان، وهو سكرانُ، أصَحَّ عَقْلاً من هؤلاء، وهم صُحاةٌ».

وأمَّا قَذْفُ أبي عُبَيْدَةَ مَعْمَربن المُثَنَّى له باليهوديَّة فالمحرِّكُ له رَغْبَةُ أبي عبيدةَ في الانْتقام منهُ والتَحطيمِ له، لأنه نَعَى عليه طَعْنَهُ في أنسابِ الناسِ، وتَجْريحَهُ لهم، ولَجاجتَهُ في تَتَبُّعِ مثالبهم، وهو مَجْهولُ النّسَبِ، لا يُعْرَفُ له أصْلٌ.

---

(١) الفهرست ص: ٤٦٨.

(٢) الحيوان ٤: ٤٥١، وانظر الأوراق، قسم أخبار الشعراء ص: ١٢.

وأمَّا وَصْمُ بعضهم له بالكُفْرِ فأنكرَهُ أبو زيدٍ الأنْصَاريُّ، وردَّهُ ردّاً قوياً. وقال[1] : «كان جاري، فما فَقَدْتُ قِرآنَهُ في ليلةٍ قَطّ».

على أنَّ مِنَ القُدماء مَنْ نَوّه بصحَّةِ إسْلامه، وشدّةِ تَديُّنِهِ، وكَثْرَةِ تَلاوَتِهِ لِلْقرآن وسعة مَعْرفته بالفِقْهِ، وطُولِ قيامِهِ. قال الصُّولي[2] : «كان أبان حَسَنَ السيرة. حافظاً للقرآن، عالماً بالفِقْهِ. وقال عندَ وفاتِهِ: أنا أرْجُو الله وأسألُهُ رَحْمَتَهُ، ما مَضَتْ عليَّ لَيْلَةٌ قَطُّ لم أُصَلِّ فيها تَطوُّعاً كثيراً»، وقال ابنُهُ حمدانُ يَصِفُ عبادَتَهُ، وأنَّ اشْتغالَهُ بنَقْلِ كليلةَ ودِمْنةَ لم يُلْهِهِ عن صلاتِهِ[3] : «كان يصَلّي ولَوْحٌ مَوْضُوعٌ بين يَدَيْهِ، فإذا صَلَّى أخذَ اللَّوْح فملأَهُ من الشِّعْرِ الذي صَنَعَهُ، ثم يعودُ إلى صَلاتِهِ».

فما زَنْدَقَةُ أبان بن عبد الحميد؟ وما الأسباب التي جَعَلَتْ القُدَمَاء يَسْلكونَهُ في الزَّنادقة؟

يبدو أنَّ زَنْدَقَةَ أبان بن عبد الحميد زَنْدقةٌ اجتماعيةٌ فكريَّةٌ شُعُوبيَّةٌ، فقد كان من الشُّعَراءِ الظرفاءِ[4]، وكان فيه شيءٌ من الهَزْلِ والعَبَثِ، وكان يُخَالِطُ عُصْبَةَ المجانِ، وكان يُمازِحُ القيانَ[5]، وكان يَعْشَقُ بعْضَ الغِلمان، ولكنه كان يتستَّرُ في عِشْقِهِ لهم، ولا يَجْهَرُ به، قال أحدُ حَفَدَتِهِ[6] : «اشترَى جارٌ لجَدِّي أبان غلاماً تُرْكيّاً بألفِ دينارٍ، وكان أبان يَهْواهُ ويُخفي ذلك عن مَوْلاهُ، فقال فيه :

---

(1) الأغاني ٢٣ : ١٦٦.

(2) الأوراق. قسم أخبار الشعراء ص : ٢، وتاريخ بغداد ٧ : ٤٥.

(3) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤.

(4) طبقات ابن المعتز ص : ٢٤١.

(5) الأغاني ٢٣ : ١٦١، ١٦٣.

(6) الأغاني ٢٣ : ١٦٣.

لَـيْـلَتِي والجاهِـلُ الـمَغْــرورُ مَـنْ غُــرَّ بِـلَـيْـتِ
نِـلْتُ مِـمَّـن لا أُسَمِّي وهـو جاري بَيْتَ بَيْتِ
قُـبْـلَـةً تُـنْـعِشُ مَـيْـتاً إنّني حَيٌّ كَــمَــيْتِ
نتساقَى الرِّيقَ بعدَ الشُّـــربِ من رَاحٍ كُمَيْتِ
لا أُسَمِّـــيـــهِ ولــكنْ هـو في كَـيْتَ وكَـيْتِ[1]

فرُبَّما اتُّهم بالزَّنْدقةِ لما شاع من هَزْلِهِ وظَرْفهِ ، شأنُهُ في ذلك شأنُ غيرِهِ من الشعراء الذين اتُّهموا بالزندقةِ لمُجُونهم وخَلاعتهم .

وكان عالماً مِنطيقاً[2] ، «وعَمِلَ أيضاً القصيدةَ التي ذكَرَ فيها مَبْدأَ الخَلْقِ ، وأمْرَ الدُّنيا ، وشيئاً من المَنْطِقِ ، وسَمَّاها ذاتَ الحُلَلِ[3] » .

فرُبَّما اتُّهم بالزَّنْدقةِ لما ذَاعَ من مَعْرفته بعلْم الكلام والمَنْطقِ ، حالُهُ في ذلك حالُ غيرِهِ من الشعراءِ الذين اتُّهموا بالزَّندقةِ لاشْتهارهم بالنَّظَرِ الفَلْسفي ، والجَدَلِ المَنْطِقيِّ ، واستهارِهم بالعَبثِ الفِكْريِّ ، والشَّكِ الدِّيني .

وكان مُجيداً للُّغةِ الفارسيَّةِ ، متمكِّناً منها ، خبيراً بآثارهَا ، حَافِظاً لها ، وكانَ يُمَجِّدُ ثقافةَ قَوْمِهِ ، ويَعْتَدُّ بها .

فربما اتُّهم بالزَّنْدقةِ لِمَا ظَهَرَ من تَعَصُّبهِ لتُراثِ الفُرْسِ ، أمْرُهُ في ذلك أمْرُ غيرِهِ من الشعراء الذين اتُّهموا بالزَّنْدقةِ لشُعُوبيَّتهم .

---

(١) كان اسم الغلام يتك ، ويعني بقوله : «كيت وكيت» أنَّ حروف تيك مُندرجة في كيْت .

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٢٤١ .

(٣) الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١ ، والأغاني ٢٣ : ١٥٥ ، وتاريخ بغداد ٧ : ٤٤ .

وقد استبانَ الجاحظُ هذا الوَجْهَ من وُجُوهِ زَنْدقتِهِ، ورجَّحَهُ ترجيحاً قويّاً، يقول بعدَ أنْ أعْلَنَ أنَّ نِحْلَتَهُ استَغلَقَتْ عليه[1] : «ولكنَ للناسِ تأسٍ وعاداتٌ، وتَقْليدٌ للآباء والكُبَراء، ويَعْمَلُونَ على الهَوَى، وعلى ما يَسبِقُ إلى القُلُوب، ويَستَثقِلونَ التَّحْصيلَ، ويُهْمِلُونَ النَّظَرَ، حتى يصيروا في حال متى عَاوَدُوهُ وأرَادُوهُ، نَظَرُوا بأبصارٍ كَليلةٍ، وأذْهانٍ مَدْخُولةٍ، ومع سُوءِ عادةٍ. والنَّفْسُ لا تُجيبُ وهي مُسْتكرهَةٌ، وكان يقال: «العَقْلُ إذا أُكْرِهَ عَميَ»، ومتى عَميَ الطِّباعُ، وجَسَا وغَلظَ وأُهْمِلَ، حتى يَأْلَفَ الجَهْلَ، لم يَكَدْ يَفْهَمُ ما عليه وله. فلهذا وأشْباهِهِ قامُوا على الإِلْفِ، والسّابقِ إلى القَلْب».

وأدركَ قيدا هذا الوَجْهَ من زَنْدَقَتِهِ، وَقَرَّرَ أَنَّهُ أَبرزُ وُجُوهِها وأغْلَبُها. يقول[2] : «كان يَعْرِفُ الفارسيّةَ، ويَتَرْجِمُ عنها. وكانَ على اطِّلاعٍ وسِعَةِ عِلْمٍ بأدبِ الفُرْسِ القديم. فكان ذلك داعياً له الى التعلق بتُراثِ الفُرْسِ، والتغنّي به في جميع مظاهره».

وفَطَنَ لهذا الوَجْهِ من زَنْدقتِهِ وَوَضَّحَهُ، ومال إليه وصَحَّحهُ كُلٌّ من الدكتور محمد بديع شريف[3]، والدكتور محمد مصطفى هدارة[4].

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥١.

(٢) من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص: ٣٧.

(٣) الصراع بين الموالي والعرب ص: ٤٧.

(٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص: ٢٥١.

(٩) والِبةُ بن الحُبَاب

يختَلِفُ القُدَماءُ في أَصْلِ والبةَ بن الحُبَاب الكوفيِّ، أما أبو الفرج الأصفهانيُّ[1] والخطيبُ البغداديُّ[2] فيرويان أنه عَربيٌّ صَليبٌ صريحُ النَّسبِ في بني أَسدٍ، وأما أبو العتاهية فيذكرُ في هجائِهِ له أنه من الرُّوم، وأنه من موالي بني أسدٍ، إذ يقول[3]:

أوالبَ أنْتَ في العَرب كَمِثْلِ الشِّيصِ في الرُّطَبِ
هَلُمَّ إلى المَوَالي الصِّيـ ـدِ في سعةٍ وفي رَحْبِ
فـأنتَ بـنا لَعَمْرُ اللـ ـهِ أشْبَهُ منك بـالـعَربِ

ويقول[4]:

وابنُ الحُبابِ صَليبةً زَعَمُوا ومِنَ المُحَالِ صَليبةٌ أشْقَرْ

---

(١) الأغاني ١٨ : ١٠٠.

(٢) تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٧.

(٣) الأغاني ١٨ : ١٠٢، وتاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٩.

(٤) الأغاني ١٨ : ١٠٣، وتاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٩.

ما بالُ مَنْ آباؤُهُ عُربُ الـ ألْوانِ يُحْسَبُ مِنْ بني قَيْصَرْ
أتَرونَ أهْلَ البَدْوِ قد مُسِخُوا شُقْراً أما هذا مِنَ المُنْكَرْ

وقال الخطيبُ البغداديُّ[1] : «كانَ والبةُ أشْقَرَ اللَّوْنِ، والشعر أبيض، فأخْرَجَهُ أبو العتاهية بِلَوْنِهِ من العرب، وأضافَهُ إلى الموالي، وعَيَّرَهُ بالشُّقْرَةِ، إذ كانت من ألوانِ العَجمِ دونَ العَرب». وقد أسْقَطَهُ ابنُ دريدٍ وابنُ حَزْمٍ من بني أسَدٍ، ولم يعُدَّاه فيهم.

وتَقَدَّمَ أنَّ الجاحظَ سَلكَهُ في الزَّنادقة[2]، وقال أبو الفرج الأصفهاني[3] : «قال الجاحظ : كان والبةُ بن الحباب، ومطيعُ بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمن الهِلاليُّ، وحَفْص بن أبي وَرْدة[4]، وابن المُقَفَّع، ويونسُ بن أبي فَرْوة، وحمادُ عجْرِدٍ، وعليُّ بن الخليل، وحمادُ بن أبي ليلى الرّاوية، وابن الزِّبرقان، وعُمارةُ بنُ حَمْزَة، ويزيدُ بن الفَيْض، وجميلُ بن محفوظٍ، وبشارٌ المُرَعَّثُ، وأبانٌ اللاحقيُّ نُدَماء، يَجْتَمِعُونَ على الشراب، وقولِ الشعر، ولا يكادونَ يَفْتَرِقُونَ، ويهجو بعضُهم بعضاً هَزْلاً وعَمْداً. وكلُّهم مُتَّهمٌ في دينه».

وطَبَّقُ مَنْ ترجموا له على أنه كانَ مُسْرِفاً في البَطالةِ، مجاهراً بالإباحةِ، وأنه كانَ يتبذّل ولا يتوقَّر، ويتعهَّرُ ولا يَتَستَّرُ، قال ابنُ المعتز[5] : «لوَالبةَ في المُجُونِ والفَتْكِ

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٩.

(٢) الحيوان ٤ : ٤٤٧.

(٣) الأغاني ١٨ : ١٠١، وانظر الأوراق. قسم أخبار الشعراء ص : ١٠. وأمالي المرتضي ١ : ١٣١.

(٤) في أمالي المرتضي : «وَدّة».

(٥) طبقات ابن المعتز ص : ٨٨.

والخلاعةِ ما ليس لأَحدٍ، وإنما أخذَ أبو نُواسٍ ذلك عنه»، وقال أبو سَهْلَبٍ الشاعر[١]: «كان وَالبةُ ماجناً خليعاً ما يُبالي ما قال ولا ما صَنَع»، وقال أبو الفرج الأصفهاني[٢]: «كان ظريفاً شاعراً غزِلاً وَصَّافاً للشَّرابِ والغِلْمان المُرْدِ»، وقال الخطيب البغدادي[٣]: «كان من الفِتْيانِ الخُلعاءِ المُجَّان، وله شعرٌ في الغَزَلِ والشَّراب».

وفيما سَلِمَ من شِعْرِهِ ما يُوَضِّحُ بَطالَتَهُ وإباحَتَهُ، فقد صَرَّحَ في بعضِه أنَّ مَسَرَّتَهُ في مجالسِ لَهْوِهِ وخَمْرِهِ وأُنْسِهِ لا تَتِمُّ إلا بالتكسُّرِ والتَّأنُّثِ، والتَّخَلُّعِ والتَّخَنُّثِ، إذ يقول[٤]:

قد قَابَلَتْنَا الكُؤُوسُ ... ودابَرَتْنَا النُّحوسُ
واليومُ هُرمز رُوزٍ ... قد عَظَّمَتْهُ المجُوسُ[٥]
لم نُخْطِهِ في حسابٍ ... وذاك مِمَّا نَسُوسُ
ونَحْنُ عندَ عميدٍ ... قَدْ غابَ عَنَّا البَسوسُ[٦]
نُعيرُ كأساً وكأساً ... أَوْصَى بها جَالينُوسُ
آناً يَجيءُ عَرُوسٌ ... والكأسُ أَيْضاً عَرُوسٌ
يَسْقِي عَرُوسٌ عروساً ... إحداهما الخَنْدريسُ[٧]

---

(١) طبقات ابن المعتز ص: ٨٩.

(٢) الأغاني ١٨: ١٠٠.

(٣) تاريخ بغداد ١٣: ٤٨٨.

(٤) طبقات ابن المعتز ص: ٨٨، والأغاني ١٨: ١٠٦.

(٥) هرمز روز: أي يوم هرمز.

(٦) غاب عنا البسوس: أي غاب عنا الشؤم.

(٧) الخندريس: الخمر القديمة.

حتى إذا ما انْتَشَيْنا وهَزَّنا إبْليسُ
رأيتَ أعْجَبَ شيءٍ منا ونحنُ جُلُوسُ
هذا يُقَبِّلُ هذا وذاك هذا يَبُوسُ

وأَعْلَنَ في بَعْضِهِ أنه يأتي الغِلْمان، ويَلُوطُ بالنَّدْمانِ، إذ يقول[1] :

قُلْتُ لِساقِينا على خَلْوةٍ أُدْنُ كذا رَأْسَكَ مِنْ راسي
وآدْنُ فَضَعْ صَدْرَكَ لي ساعةً إني امرؤٌ أنْكَحُ جُلاّسي

فأَظْهَرُ السِّماتِ في شَخْصيةِ والبةَ بن الحُبابِ مما يَلْتَقي القدماءُ عليه، ومِمّا يُؤَيِّدُهُ ما بقِيَ من شعرِهِ أنه كان مُتَهَتِّكاً داعراً، ومُتَخَرِّقاً فاجراً، ومتخرماً عاهراً.

ولعل ما شاعَ من شذوذِهِ وانْحِرافِهِ هو الذي دَفَعَ بعض القدماء إلى اتِّهامهِ بالزَّندقة. وإذا صَحَّ ذلك فإِنَّ زَندقَتَهُ زندقةٌ اجتماعيةٌ لا زَنْدقةٌ دينيةٌ، فهو يَشْربُ ويطْرَبُ ويصْخَبُ ويُعَرْبِدُ، ويهوَى الغلمانَ المُرْدَ، ويتعلَّق بهم، ولا يُخْفي مُباشرتَهُ لهم، ويَصِفُ ذلك في شعرِهِ، ويَجْهَرُ به جَهراً. ولكن يَلُوحُ في قليلٍ من شِعْرِهِ الماجن شيءٌ من العَبثِ الفكريِّ والشَكِّ الدِّينيِّ، وهل أدَلُّ على ذلك من هذا الخَبرِ والشعر: قال أبو سَلْهَبٍ الشاعر[2] : «كانَ والبةُ بن الحُبابِ صديقي، وكان ماجناً طَبعاً، خفيفَ الرُّوح، خَبيثَ الدِّينِ، وكُنّا ذاتَ يومٍ نَشْربُ بغُمَّى، فانتَبَهَ يوماً من سُكْرِهِ، فقال لي: يا أبا سَلْهَبٍ، اسمع، ثم أنْشدني، قال:

شَرِبْتُ وفَاتِكٌ مِثْلي جَمُوحٌ بِغُمَّى بالكُؤوسِ وبالبَواطي
يُعاطيني الزُّجاجةَ أَرْيَحيٌّ رَخيمُ الدَّلِّ بُورِكَ من مُعَاطي

---

(١) طبقات ابن المعتز ص: ٨٩، والاغاني ١٨ : ١٠٠.

(٢) الأغاني ١٨ : ١٠٥. وانظر طبقات ابن المعتز ص: ٨٨، ومعجم البلدان: غُمَّى.

أقولُ لـه على طـرَبٍ: أَلِطْني ولـو بـمُـؤاجـرٍ عِـلْجٍ نَـبـاطي
فما خَـيْرُ الشَّرابِ بغَيْرِ فِسْق يُـتـابَـعُ بـالـزِّنـاءِ وبـالـلُّواطِ
جَـعَلْتُ الحجَّ في غُمَّى وبنـا وفي قُـطْـربُـلٍ أبـداً رِبـاطي[1]
فـقـل لِلْخَمْسِ آخرُ مُـلْتقانـا إذا ما كان ذاكَ على الصِّرَاطِ[2]».

(١) غُمَّى: قرية من نواحي بغداد. وبِنَّا: قرية على شاطئ دجلة من نواحي بغداد، وقطربل: قرية بين بغداد وعُكْبرا، يُنْسَبُ إليها الخمر. وما زالت متنزهاً للبطّالين وحانةً للخمارين.

(٢) الخمس: يعني الصلوات.

(١٠) أبو نواس

قُرِفَ أبو نواسٍ الحسن بن هانئ مَوْلَى عبدِ الله بن الجراح الحكَميِّ البَصْريُّ ثم البَغْداديُّ بالزَّنْدقة . وقد قَرَفَهُ بها بعضُ أهْلِ عَصْرِهِ . وقرَفَهُ بها أيضاً بعضُ القُدَماء .

أما أهْلُ عَصْرِهِ فقَذَفهُ منهم الفَضْلُ بن الرَّبيعِ بالزَّنْدقةِ . ليُوقِعَ به . لأنه نال منه . وَلَجَّ في تَتَبُّعِ هفواتِهِ حتى سَجنَهُ . قال أبو هفان[1] : «قيل لأبي نواس : إنَّ أمَّ الرَّبيعِ من مُوَلَّداتِ اليمامةِ . وأباه من مُوَلّدي المدينة . [فعرَّضَ بهما] . فنمى الخَبرُ إلى [الفَضْل بن] الرَّبيع[2] . فلم يزل به حتى حَبَسهُ . وطَالبهُ بالزَّندقة . وادّعاها عليه . وأرادَ أنْ يُوجِبَهَا عليه بَيْنَ يَدَي الرشيدِ . فجمعَ له الفقهاء . ودَسَّ إليهم الأموالَ . وبعث إلى مَنْ كان يَحْسُدُهُ من الشعراء . فأحْضَرهم . ثم قال له : ألسْتَ القائل :

يا أحْمَدُ المُرْتَجَى في كُلِّ نائبةٍ قُمْ سَيِّدي نَعصِ جَبَّارِ السمواتِ[3]

---

(١) أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ١٠٦ .

(٢) في الأصل : «الرّبيع» . وهو الربيع بن يونس بن أبي فَرْوَةَ . ولعل الصَّوابَ الفَضْلُ بن الربيع . لأن الربيع بن يونس لم يدرك خلافة الرشيد . ولم يعمل له . بل قتلَ أوْ مَاتَ في خلافة الهادي . (انظر الوزراء والكتاب ص : ١٢٥ . وتاريخ بغداد ٨ : ٤١٤ . وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٣١٠ . ووفيات الأعيان ٢ : ٢٩٤ . والفخري في الآداب السلطانية ص : ١٥٧) .

(٣) أحمد بن أبي صالح غلام كان أبو نواس يتَعشَّقهُ .

قال : بلى . قال : يا أميرَ المؤمنين ، كافرٌ ، ثم الْتَفَتَ إلى من حَضَر ، فقال لهم : ما تقولون يا مَعْشَرَ الفُقهاءِ والشعراء؟ قالوا : صَدَقَ يا أميرَ المؤمنينَ . قال أبو نواس : يا أميرَ المؤمنين ، إن كانوا قالوا بعُقُولِهِمْ فَسَلْماً ، وإنْ كانوا قَالُوا بآرائِهم فَقُبْحاً لهم ! ! أنَّى يكونُ زنديقاً مَنْ يُقِرُّ أنَّ للسمواتِ جباراً ! ! قال الرشيد : صَدَقْتَ ، قُمْ عَنّي . فلم يزَل [الفَضْلُ بن] الربيع يَرْصُدُهُ بعد ذلك ، ويتطلَّبُ سَقطاتِهِ ، ويُشيعُ عوراتِهِ حتى قال :

ما جَاءَني أحَدٌ يُخَبِّرُ أنَّهُ في جَنَّةٍ مُذْ ماتَ أو في نارِ

فَحَبَسَهُ بهذا البَيْتِ ، وانْطَلَقَ لسانُهُ فيه ، وانحسرَ عن أبي نواس مَنْ كانَ يُعاونُهُ » .

واتّهمهُ سليمانُ بن أبي جَعْفَرٍ العباسيُّ بالإلحادِ في مَجْلسِ الرَّشيد ، لإدْمانِهِ الشرابَ ، وإغراقِه في المجون ، وإنْكارهِ البَعْثَ والحسابَ ، قال المَرْزُبَانيُّ[1] : «جَلَسَ الرشيدُ مَجْلساً ، فافاضَ مَنْ حضَرَهُ في ذِكْرِ المَطْبوعين من الشعراء المُحْدَثينَ إلى أن اتَّصلَ الذكرُ بأبي نواسٍ ، فغمزَ عليه سليمانُ بن أبي جَعْفر ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، كافرٌ بالله ، لا يَرْعوي من سُكرِهِ ، ولا يأنَفُ من فاحِشَةٍ ! وقد كان نمى إلى الرشيدِ من خبرِه شيءٌ ، فقال : يا عم ، هل تأْثُرعنه من ذلك شيئاً ؟ » فروى له شواهدَ من شعره ، « فقال الرشيدُ للفضل [بن الربيع] برئتُ من المنصور إنْ لم يَبتْ هذا الكَلْبُ في المُطْبَقِ[2] ! ... فوجَّهَ الفَضْلُ مِنْ ساعتِهِ مَنْ أخذَ بأفواهِ السِّكك ، فوُجِدَ ، فأُودِعَ المُطْبَقِ» .

---

(١) الموشح ص : ٤٢٦ .

(٢) المُطْبق : كمُشْفق السجن تحت الأرض.

ونسبَهُ الأمينُ إلى الزندقةِ لظرفِهِ وهَزْلِهِ . وكَثْرةِ مُلَحِهِ ونوادِرِهِ . فأجابَهُ بشعرٍ دَفَعَ فيه التُّهْمَةَ عن نَفْسِهِ ، وذكر فيه أنه يُقِرُّ بوَحْدَانيَّةِ الله ، ولا يُشْرِكُ به أحداً ، وأنه يقيمُ الصَّلواتِ في مواعيدها . ويتطهَّرُ . ويتصَدَّقُ . وينكرُ قَوْلَ الرَّوافِضِ . ولكنه اعترفَ فيه بمُعاقرتهِ للخَمْرِ . قال الخطيبُ البغداديُّ [1] : «دَخَلَ الحسن بن هانئ على أمير المؤمنين الأمين ، فقال : يا حسنُ بن هانئٍ ! قلت : نعم . يا أمير المؤمنين . قال : إنك زنديقٌ ! فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين . وأنا أقول مثلَ هذا الشعر :

أُصَلّي صلاةَ الخَمْسِ في حين وَقْتِهَا ... وأشْهَدُ بالتَّوْحيدِ لله خاضِعا
وأُحْسِنُ غَسْلاً إنْ رَكِبْتُ جَنابةً ... وإنْ جاءني المسكينُ لم أكُ مانعاً
وإني وإنْ حانَتْ من الكأسِ دَعوَةٌ ... إلى بَيْعَةِ السّاقي أجَبْتُ مُسارِعا
وأشْرَبُهَا صِرْفاً على لحمِ ماعزٍ ... وَجَدْيٍ كثيرِ الشحْمِ أصْبحَ رَاضعا
بِجَوادِبِ جوديٍ وجَوْزٍ وسُكَّرٍ ... وما زال للمخْمُورِ مذ كانَ نافعا [2]
وأجْعَلُ تَخْليطَ الرَّوافِضِ كلهم ... لِفَقْحَة بَخْتَيْشُوعَ في النّارِ طابِعا

فقال لي : كيف وَقَعْتَ على فَقْحةِ بَخْتَيشوعَ ويلك ! قلت : بها تَمَّتِ القافيةُ . فضحك ، وأمرَ لي بجائزةٍ ، وانْصَرَفْتُ» ! !

ورماهُ بعضُ القدماءِ بالشِّرْكِ ، لأنه شَكَّ في الحياةِ الآخرة . وألْحَدَ في أبياتٍ من خَمْرِياتِهِ ، وأحالَ في كثيرٍ من مدائحِهِ وأغْزالِهِ ، وتخَطّى فيها صِفَةَ المَخْلُوقِ إلى

---

(١) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٠ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٢ .

(٢) الجوذاب : طعام يُتَّخذُ من سكر ورزٍ ولحم .

صِفَةِ الخالقِ[1] ، ودعا في غَزَلِهِ بالغلمانِ المُرْدِ إلى ارْتكابِ الفَوَاحشِ ، وزَيَّنَ فيه اقْتِرَاف المَعاصي ، ومنهم ابنُ قُتَيْبَةَ ، إذ يقول[2] : « مما كَفَرَ فيه أوْ قَارب قَوْله » :

تُعَلَّلُ بالمُنَى إذ أنْتَ حَيٌّ وبعدَ المَوْتِ من لَبَنٍ وخَمْرِ
حياةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثم بَعْثٌ حَدِيثُ خُرافةٍ يا أمَّ عَمْرِو

وقَوْلُهُ في الأمين :

تَنازَعَ الأحْمدانِ الشِّبْهَ فاشتَبَهَا خَلْقاً وخُلُقاً كما قُدَّ الشِّراكانِ
مِثلانِ لا فَرْقَ في المَعقُولِ بينَهما مَعناهُما واحدٌ والعِدَّةُ اثنانِ

وقَوْله في غُلَامٍ :

نَتِيجُ أنوارِ سمائيَّةٍ حَلِيفُ تَقْديسٍ وتَطْهيرِ
يَكِلُّ عن إدْرَاكِ تَحْديدِهِ عُيُونُ أوْهَامِ الضَّمائِرِ
فُتَّ مدَى وَصْفي ولكنَّ ذا تَفْديكَ نَفْسي جُهْدَ مَقْدُوري
وكيفَ أحْكي وَصْفَ مَنْ جَلَّ أنْ يَحْكيهِ عند الوَصْفِ تَدْبيري
إلاّ بما تُخْبِرُ أمْشَاجُهُ من كامِنٍ فيهِنَّ مَسْتُورِ

وقوْلُهُ لغُلامٍ :

يا أحْمَدُ المُرْتَجَى في كُلِّ نائبةٍ قُمْ سَيِّدي نَعْصِ جَبَّارَ السَّموات » .

واستَقْصَى مُهَلْهِلُ بن يَمُوتَ كُفْرِيَّاتِ أبي نُواسٍ في فُنونِ شعرِهِ المُختلفةِ .

---

(١) أنظر الموشح ص : ٤١٦ ، ٤٣٧ — ٤٤٠ .

(٢) الشعر والشعراء ص : ٨٠٧ .

وأضافَهُ فيها إلى الزَّنْدقةِ الاجتماعيَّةِ ، وأخرَجَهُ من الزندقةِ الدِّينية ، لأنه كانَ صحيحَ الإيمانِ ، حَسَنَ الدِّينِ ، يقولُ[1] : «لا أعْرِفُ له في البَوْحِ بها عذْراً ، مع ما كان عليه من شريعةِ الإسلامِ بشرائِطِهَا ، لا يشكُّ في ذلك أحَدٌ» .

ونَسَبَهُ ابنُ مَنْظُورٍ إلى الزَّنْدقةِ الفِكْرِيَّةِ ، يقول[2] : «اشتَهَى عِلْمَ الكلام ، فقَعَدَ إلى أصْحابِهِ ، فتعلَّمَ منهم شيئاً من الكلامِ ، ثم دعاهُ ذلك إلى الزَّنْدقَةِ» .

وزعم مُصنِّفُ الفَرح والتَّهاني بأخبارِ الحسن بن هاني أنَّ زَنْدَقَتَهُ زَنْدقةٌ دِينيَّةٌ ، لأنه كان يؤمنُ بإله النور وإله الظُّلْمَةِ ، يقول[3] : «كان من الثَّنَوِيَّة» .

وقد سَلِمَ أكثرَ شعْرِ أبي نُوَاسٍ الذي نُسِبَ فيه إلى الزَّندقةِ ، وهو في قِسْمٍ من خَمْرياتِه يميلُ إلى القَوْلِ بالدَّهْرِ ، ويكْفُرُ باليوم الآخر ، ويُنْكِرُ البَعْثَ والحَشْرَ ، ويَشُكُّ في الجنةِ والنَّارِ ، ويجهَرُ بذلك أشَدَّ الجَهْرِ ، كقوله[4] :

يا ناظراً في الدِّينِ ما الأمْرُ لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرُ
ما صَحَّ عندي من جميعِ الذي يُذكَرُ إلاَّ المَوْتُ والقَبْرُ
فاشْرَبْ على الدَّهْرِ وأيامِهِ فإنَّما يُهْلِكُنا الدَّهْرُ

---

(١) سرقات أبي نواس ص : ١٤٦ .

(٢) أخبار أبي نواس ، لابن منظور ١ : ٦ .

(٣) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني ، مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، رقم ٦٣٢ ، الورقة : ١٥ .

(٤) أخبار أبي نواس ، لأبي هفان ص : ٣٧ ، والوساطة ص : ٦٣ ، وتاريخ بغداد ٧ : ٤٤٢ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٣ ، وأخبار أبي نواس ، لابن منظور ٢ : ٥٧ .

وقَوْلِهِ[1] :

عـاذلي بـالسَّـفـاهِ والـزَّجْـرِ اسْـمِعي ما أَبُثُّ من أمْري
بَـاحَ لسـاني بـمُضْـمَـرِ السِّـرِّ وذاكَ أني أقُول بـالـدَّهْـرِ
بـينَ رياضِ السُّرورِ لي شِيَعٌ كـافـرةٌ بـالحساب والـحَشْـرِ
مُـوقِـنـةٌ بـالـمَماتِ جَـاحِـدَةٌ لمَا رَووهُ من ضَغْطَةِ القَبْرِ
ولـيسَ بـعـدَ الـمَماتِ مُنْقَلبٌ وإنَّما الـمَوْتُ بَيْضَةُ العُقْرِ[2]

وقَوْلِهِ[3] :

وَمُـلِحَّةٍ بالـعَذْلِ تَحْسِبُ أنَّني بالجَهْلِ أُوثِرُ صُحبةَ الشُّطَّارِ
بَكَرَتْ عليَّ تَلُومُني فأجَبْتُهَا إنِّي لأعْـرِفُ مَـذْهَبَ الأَبْـرارِ
فدَعي المَلَامَ فقد أطَعْتُ غوايتي وصَـرَفْتُ مَـعْـرِفَتي إلى الإنْكَارِ
ورأَيْتُ إيثاري اللّذاذةَ والهَوَى وتَـعجُّلي من طيبِ هذي الدّارِ
أحْرَى وأحْزَمَ من تـنظُّرِ آجلٍ عِلْمي به رَجْمٌ من الأخْبارِ
مـا جَـاءَنـا أحَـدٌ يُـخبِّرُ أنَّهُ في جَنَّةٍ مُذْ ماتَ أوْ في نارِ

وقوله[4] :

قـلتُ والـكَأْسُ على كَفَّـيَّ تَـهْوي لالْـتِـثـامِ
أنـا لا أعْـرِفُ ذاكَ الـيَوْمَ في ذَاكَ الـزِّحـامِ

وقوله[5] :

(١) الوساطة ص : ٦٣ . والموشح ص : ٤٢٩ . وانظر أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ٢١ ، ٣٧ .

(٢) بيضة العقر : بيضة يبيضها الدّيك مرّة واحدة ثم لا يعود . يضرب مثلاً لمن يصنع الصنيعة ثم لا يعود لمثلها .

(٣) أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ٤٦ . والموشح ص : ٤٢٩ . والوساطة ص : ٦٤ .

(٤) الوساطة ص : ٦٣ .
(٥) محاضرات الأدباء ٢ : ١٨٣ .

وأَيْسَـــرُ مـــا أَبُـــثُّك أنَّ قـــلْبي بتَصْديقِ القِيامةِ غيرُ صافِ

وهو في قسمٍ آخر من خمريَّاتِهِ يتهتَّكُ ويفْجُرُ، إذْ يُصَرِّحُ بتعاطيهِ للخَمْرِ المُحَرَّمةِ، ويُفْصِحُ عن رَغْبتِهِ في تَعاطيها علانيةً إذا أَمِنَ الخَطَر، كَقَوْلِهِ[1]:

أَلا فاسْقِني خَمراً وقُلْ لي هيَ الخمرُ ولا تَسْقِني سراً إذا أمْكنَ الجَهْرُ

وكان أبو نواسٍ نديماً للأمين، فاستغلَّ المأمونُ مُنادَمتَهُ له. وتعلّقَ بالبيتِ السابقِ، فاتَّخذَهُ وسيلةً إلى التنديدِ بأخيهِ والتَّأْليبِ عليه في أثناءِ مُنازعتِهِ له في الخلافة، واسْتندَ إليه في اتِّهامِهِ لأبي نواسٍ بالبَطالةِ والضَّلالةِ. قال المرزباني[2]: «إن المأمونَ أمرَ وهو بخراسان أنْ يخطبَ بهذا البيت على المنابر، ويقول الخاطب: يَسْتَحْسِنُ محمدٌ قولَ مَنْ يقول مثل هذا»، وقال الحصريُّ القيروانيُّ[3]: «لما خَلَعَ المأمونُ أخاهُ محمد ابن زبيدة ووجَّهَ بطاهر بن الحسين لمحاربته، كان يَعْملُ كُتباً بعيوب أخيهِ، تُقرأُ على المنابرِ بخراسان. فكان مما عَابَهُ به أنْ قال: إنه استخلصَ رجلاً شاعراً ماجناً كافراً، يقال له: الحسنُ بن هانئ. واستخْلصَهُ ليشربَ معه الخمرَ. ويرتكبَ المآثم. ويَهْتِكَ بالمحارمَ. وهو الذي يقول:

أَلا فاسْقِني خمراً وقُلْ لي هي الخمرُ
ولا تَسْقني سراً إذا أمكنَ الجَهْرُ
وَبُحْ باسم مَنْ تَهْوي ودَعني من الكُنَى
فلا خَيْرَ في اللّذاتِ منْ دُونها سِتْرُ

---

(١) ديوانه ص: ٢٨.

(٢) الموشح ص: ٤٤٤.

(٣) زهر الآداب ص: ٤١٣.

وهو في قسمٍ من غَزَلِهِ الشاذِّ بالغِلمان المُرْدِ يتملَّحُ ويتظرَّفُ، ويتماجنُ ويتعابثُ، ولكنه يَحْتاطُ في الأمرِ، كقوله في غلامٍ نَصْرانيٍّ[1] :

تَـمُـرُّ فـاسْتَـحْـيـيكَ أنْ أتَـكَـلَّما
ويَثْنيكَ زَهْوُ الحُسْنِ عن أنْ تُسَلِّما
أليسَ عـظـيماً عـنـدَ كلِّ مُوَحِّدٍ
غـزالٌ مسـيـحيٌّ يُعَذِّبُ مُسْلِمَا
فـلولا دُخُولُ الـنـارِ بعدَ بصيرةٍ
عَبَدْتُ مكانَ اللهِ عيسى بن مَرْيمَا !

وقوله[2] :

لم أبْكِ في مجلسِ مَـنْـصور شَوْقـاً إلى الـجَـنَّـةِ والـحُور
ولا من الـقَـبْـرِ وأهْوالِـهِ ولا من الـنَّـفْـخَـةِ والصُّور
لـكن بـكـائي لِـبـكَـا شَادِنٍ تَـقـيـهِ نـفسي كُـلَّ مَـحْـذُور

وقوله[3] :

لولا غـزالٌ كَـغُصْنِ بـانِ يَجْري معَ الشّمْس في عِنانِ
مـا كُـنتُ أسْعَى إلى فـقـيـهٍ مُـبَـاعـدِ الـدّارِ غـيـرِ دان
أَسْمَـعُ من لَـفْـظِـهِ فُصولاً عنهـا قـد اغـنـيتُ بـالـقُرَانِ

---

(1) الموشح ص : ٤٢٧.

(2) ديوانه ص : ٣٩٢، وتاريخ بغداد ٧ : ٤٣٩، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٠.

(3) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٠، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٦٩.

أنـــا بِوَصْفِي مُـــقَـــدَّمـــاتٍ من الأبـــاريـقِ والـــقِـــنـــان[١]
أحْـــذَقُ مِـــنِّـي بـــأنْ أنـــادي حَـــدَّثَـــنـــا ثـــابتُ الـــبُـــنَـــاني[٢]

وهو في قِسْمٍ آخَرَ من غَزَلِهِ الشَّاذِّ بالغِلْمانِ المُرْدِ يُسْرِفُ في الفُحْشِ حتى يُعْلِنَ الثَّوْرةَ على الدِّينِ ، فيجْحَد البَعْثَ والنُّشُورَ ، ويَرْتابُ بالحسابِ والعِقَاب ، كقوله[٣] :

ومُلِحَّةٍ بـالـعَـذْلِ ذاتِ نَصيحةٍ تَرْجُو إنابَةَ ذي مُجُونٍ سَارِقِ
بـكَـرَتْ تُـخَـوِّفُني المعـادَ وشيـمتي غَـيْـرُ المعـادِ ومَـذْهَبي وخلائقي
فـأجَـبْـتُـهَـا كُـفِّي مَلامَكِ إنّني مُـخـتـارُ ديـنِ أقسَّـةٍ وجَـثالـقِ
واللهِ لـولا أنَّني مُـــتَـــخَـــوِّفٌ أنْ أُبْـتَلى بـإمـامِ جَـوْرٍ فَـاسقِ
لَـتَـبِـعْـتُـهـم في دِينِهـم ودَخَـلْـتُـهُ بـــبـصيرةٍ مني دُخُـولَ الـوامِـقِ
إنِي لأعْـلَـمُ أنَّ رَبِّي لم يـكنْ لِـيَـخُـصَّـهُـمْ إلاّ بـديـنٍ صَـادِقِ !

قال المُبَرِّدُ[٤] : «ومما أنكِرَ من قَوْلِهِ قَوْلُهُ :

يـا أحمد المُرْتجى في كلِّ نائبةٍ قُـمْ سيِّـدي نَـعْصِ جَبَّـارَ السموات

لأنَّ هذه أعْظَمُ جُرأةٍ ، وأقبحُ مُجاهرةٍ ، وأشدُّ تبغُّضٍ إلى العزيزِ الجبارِ عَزَّ وجَلَّ

---

(١) القنان : جمع قنينة . وهو جمع نادر .

(٢) هو ثابت بن أسلم البُناني البَصْريُّ . كان من المحدثين المأمونين . والعُبَّاد المشهورين . والقُصَّاص المذكورين . مات سنة بضع وعشرين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ : ٢٣٢ . وطبقات خليفة بن خياط ص : ٥١٢ . والتّاريخ الكبير ١ : ٢ : ١٥٩ . والمعارف ص : ٤٧٦ . والجرح والتعديل ١ : ١ : ٤٤٩ . وميزان الاعتدال ١ : ٣٦٢ . وتهذيب التهذيب ٢ : ٢ . وتقريب التهذيب ١ : ١١٥ .

(٣) الموشح ص : ٤٢٨ . وانظر القصيدة كاملة في ديوانه ص : ٢١٨ .

(٤) الموشح ص : ٤١٦ .

أنْ يقول : «نَعْصِ جَبَّارَ السَّمواتِ» ، فذكرَ المَعْصيةَ مع ذِكْرِ الجبَّارِ عزَّ اسمُهُ ، وأنه إياهُ يقصدُ بالعِصْيان» .

وهو يُبالغُ في قسمٍ من معاني مَدائِحه ويَغْلو ويتطَرَّفُ ، فيَقْرِنُ بعضَ مَمْدُوحيهِ بالأنبياءِ ، أو يُسَوِّي بينه وبين الرَّسُولِ الكريم ، أو يَخْلَعُ عليه صفات الله عَزَّ وجَلَّ ، فيقع في المُحالِ ، وَيُتَّهمُ بالكُفْرِ ، كقولِهِ في الخَصيبِ بن عبد الحميد والي مصر[1] .

فإنْ يكُ باقي إفْكِ فِرْعَوْنَ فيكم فإنَّ عَصا موسَى بكَفِّ خَصيبِ

قال ابن قتيبة[2] : «قال له الرشيدُ : يا ابن اللخناء ! أنتَ المُسْتَخِفُّ بعَصَا موسى ، نبيِّ الله ، إذ تقول :

(البيت)

وقال لإبراهيم بن عثمان بن نَهيك : لا يَأْوي إلى عَسْكري من ليلته ، فقال له : يا سيدي ، فأجلُ ثَمُودَ ، فضحكَ وقال : أجِّلْهُ ثلاثاً ، فقال محمدٌ [الأمين] لإبراهيم : والله لئن حَصَصْتَ منه شَعَرَةً لأقتُلَنَّكَ ! فأقام عند إبراهيم حتى ماتَ هارونُ ، فأخرَجَهُ محمدٌ» .

وقال الصولي[3] : «قال له الرشيدُ : ألا قُلْتَ : «فباقي عَصا موسى بِكَفِّ خَصيبِ» ، فقال له : هذا أحسنُ ، ولم يقعْ لي» .

---

(1) ديوانه ص : ٤٨٤ .

(2) الشعر والشعراء ص : ٨٠٧ .

(3) الموشح ص : ٤٢٦ .

وقولهِ في قصيدتِه التي يَمْدَحُ فيها العباس بن الفضْلِ بن الربيع [1] :

وإنَّ عَـبَّـاسَ مِـثْـل والـدِهِ لـيسَ إلى غـايـةٍ بـمَسْبُوقِ
تـأنَّقَ اللهُ حـينَ صـاغـكُما فـفُـقْتُما الـنـاسَ — أيَّ تـأنيقِ
فصوَّر الفَضْلَ من نَدًى وحجًى وأنتَ مِنْ حِـكْـمـةٍ وتَوْفـيق

ونَبَّهَ المُبَرِّدُ على كثْرة ما في القصيدة من «قَوْلٍ مَلْحُونٍ مَرْذُولٍ رَديءِ الرَّصْف بعيدِهِ» ، ومن «كلامٍ خَسيسٍ [2] » ، وأعْرَضَ عن إنشادِ الأبياتِ السابقة التي خَتَمَ بها القصيدة ، وعَلَّقَ عليها بقولهِ [3] : «وفي آخرها جمعَ بين كُفْرٍ ولَحْنٍ ، وأُكْرِهُ حكايتَهُ لضَعتِهِ وبُطْلانِهِ» .

وقال المُبَرِّدُ [4] : «ومن شعرِهِ الذي يُذَمُّ قَوْلُهُ في الرشيد :

لـقد اتَّـقيْتَ الله حَقَّ تُـقـاتـهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جُهْدِ المُتَّقي

وليس هذا البيت أردْتُ ، ولكن ذكرتُهُ للذي بعدَهُ ، لأنه مَعْطوفٌ عليه ، مُتَّصلٌ به ، وهو :

وأخَفْتَ أهْلَ الشِّرْكِ حتى إنّهُ لـتـخَـافُكَ النُّطفُ التي لم تُخْلَقِ

هذا البيتُ بادي العُوارِ جداً ، وقد رَدَّدَهُ في مكانٍ آخرَ فقال :

هـارونُ أَلَّـفـنـا ائـتلافَ مودَّةٍ مـاتَتْ لها الأحْـقـادُ والأَضْغـانُ
حتّى الذي في الرَّحمِ لم يَكُ صُورةً لـفُؤادِهِ مـن خَوْفِـهِ خَـفَـقـانُ

---

(1) ديوانه ص : ٤٥٣ .

(2) الموشح ص : ٤١٥ .

(3) الموشح ص : ٤١٥ .

(4) الموشح ص : ٤١٥ .

وما لم يَكُ صورةً ، فكيفَ يكونُ له فؤادٌ؟ فقد أحالَ وأسْرَفَ وتجاوَزَ» وقال المُبَرِّدُ أيضاً[1] : «وقد قال أبو نواسٍ شيئاً من الشعر في الأمين اتُّهِمَ فيه ، لأنه قال قَوْلاً عظيماً لا يتكلَّمُ بمثلِهِ مُسْلمٌ ، وهو قَوْلُهُ :

تنازَعَ الأحْمدانِ الشِّبْه فاشْتبهَا خَلْقاً وخُلقاً كما قُدَّ الشِّراكان
إثْنانِ لا فَصْلَ لِلْمَعقُولِ بينهما مَعْناهما واحدٌ والعِدَّةُ اثنان»

إلى غيرِ ذلك من مُبالغاتِ أبي نواسٍ وإحالاتِهِ في مَدائحِه ، مما جَمَعَهُ المَرْزُبانيُّ ، وساقَ أقْوالَ رُواةِ الشعرِ ، ونُقّادِ القَصيد فيه . وهي تكشفُ عما ارْتكبَهُ أبو نواسٍ من خَطأٍ وسُوءٍ ، وما وَقَعَ فيه من إغْراقٍ وإفراطٍ[2] .

فظاهرُ النُّصوصِ السابقةِ من خمريَّاتِ أبي نواسٍ وأغزالِهِ بالغِلْمانِ ومدائِحِهِ يُنْبِئُ بأنه كان زنْديقاً ، وأنَّ زَنْدَقَتَهُ أشْبَهُ بالزَّندقةِ الفِكْريَّةِ ، وألْصَقُ بهَا ، وأدْخَلُ فيها . وقد أشار القُدماءُ كالجاحظِ[3] ، وابنِ قُتَيبةَ[4] ، وابن المعتزِ[5] إلى أنه أصابَ حَظّاً من عِلْم الكلام والفَلْسفَةِ والمعارفِ الأجْنبيَّةِ ، وأبانُوا عن أثَرِهَا في شِعْرِهِ ، فربَّما أدّاهُ ذلك إلى شيءٍ من الشَكِّ والارْتيابِ ، فتمرّدَ على الدِّينِ ، وأظهرَ القَوْلَ بالدَّهْرِ ، وأعْلَنَ الكُفرَ بالبعثِ والمَعادِ ، وأنه لا يَعْتَقِدُ بالجنةِ والنار ، ولا يُصَدِّق بالثَّوابِ والعقاب ! !

---

(١) الموشح ص : ٤١٦ .

(٢) الموشح ص : ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٨ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٣١ .

(٤) الشعر والشعراء ص : ٧٩٨ ، ٨٠٢ .

(٥) طبقات ابن المعتز ص : ٢٧٢ .

وتَقدَّمَ أنَّ ابنَ منظورٍ استخرجَ هذا المَعْنَى من مَعاني الزَّندقةِ ، ونَصَّ على أنه أقْوَى وَجْهٍ من وُجُوهِ زَنْدَقةِ أبي نواسٍ ، فنزَّهَهُ عن الزَّنْدقةِ الدينية ، وأضَافَهُ إلى الزَّنْدقةِ الفِكْرِيَّةِ [1] . وأضافَهُ إليها كذلك الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يَرَى أنه «كان يتزندقُ لأنه كانَ يتفلسَفُ ، وقد اطَّلعَ على النجوم وعلوم الأوائل من الهندِ والرومِ ، فزاغَ عن اليَقين ، ومَرقَ من الدِّين» .

وذهبَ الدكتور محمد بديع شريف إلى أنَّ زندقةَ أبي نواسٍ كانت زندقةً دينيةً ، وأنَّ لها أسْباباً وأهْدافاً شُعُوبيَّةً ، فهو يميل إلى أنه كان من الثنْوِيَّةِ ، وأنه تأثَّرَ المانويَّةَ والمزْدكيةَ ، وصَدَرَ عنهما في شِعْرِهِ ، وأنه كان يريدُ إطْفَاءَ الدين الإسلاميِّ ، وإفناءَ السُّلْطَانِ العَربيِّ ، وإعلاء الدِّينِ المجوسيِّ ، وإحْيَاءَ المَجْدِ الفارسيِّ ، فهو يقول[2] : «كان ذكيًّا واسعَ الحيلة ، يَعْرِفُ كيفَ يَجدُّ ، ويعرفُ كيف يَهْزِلُ ، ولو لم تكنْ له هذه القُدْرَةُ لكان نَصيبُهُ القَتْلَ مثلما كان نصيب صاحبَيْهِ ابن المقفع وبشار بن بُرْدٍ . وبهذه القُدْرة استطاع أبو نُواسٍ ، كما يقولُ كريمٍ أنْ يَسْتَخفَّ بالعقيدة ، ويَنْشُرَ الضَّلالَ والزندقةَ ، ويتكلَّمَ ما يريد دون حياءٍ أو خَجَلٍ» .

ويقول [3] : «اتُّهِمَ أبو نُواسٍ بالزندقة ، وعُدَّ بين كبار الثَّنوِيَّةِ ، وشَهِدَ عليه كثيرٌ أمام الأمين ، فحبَسَهُ في حَبْسِ الزَّنادقة» .

ويقول[4] : «ما من شكٍ في أنه متأثِّرٌ بالمانويَّةِ والمزْدكيةِ ، فهو لم يَخْرُجْ عن

---

(1) أخبار أبي نواس ، لابن منظور ١ : ٦ .

(2) أبو نواس ، لعباس محمود العقاد ص : ١٧١ .

(3) الصراع بين الموالي والعرب ص : ٩٣ .

(4) الصراع بين الموالي والعرب ص : ٩٣ .

سبيل غيرِهِ ممن عُرِفُوا بهذا المَيْلِ ، فإنه يَرَى في العقيدةِ الجديدة قيداً من قيودِ الحياة ، ويرَى أنْ يَتحرَّرَ المرءُ من هذه القيود ، ويتمتَّعَ باللّذاتِ ، ولا يؤمن إلاَّ بما يَقَعُ عليه الحِسُّ ، وينكرُ البَعْثَ ، وهو في نَظَرِهِ خيالٌ أمْرُهُ مُظْلِمٌ ، وعلى المَرْءِ أنْ يَغنمَ هذه الفرصةَ ، ويستفيد من الموجود ، لأَنَّ الغائبَ لا عِلْمَ له به ، ولم يَأْتِ أحَدٌ يخبرُهُ في جنةٍ مَنْ ماتَ أو في نارٍ».

ويقول[1] : «ومن مبادئ المانويَّةِ إثارةُ الشَّك في العقيدة ، ومهاجمةُ جميع الأديان لتتغلَّبَ عليها . أمَّا الغَزَلُ بالمُذَكَّرِ فإنه ينْحَدِرُ من أُصولِهَا ، قال البيروني في تاريخه عند الكلام على المانوية : إنَّ كلَّ مانويٍّ يَصْطحبُ غُلَاماً أمْرَدَ ، ويسْتَخدِمُهُ في شئُونِهِ» .

ويقول[2] : «إنا نجد في شعرِ أبي نواسٍ مَظْهراً واضحاً من مبادئ المانَويَّةِ والمَزْدكيَّة ، من حيث إثارةُ الشّكِّ في العقيدة ، ومهاجمةُ الدين ، والإباحةُ المُطْلَقَةُ ، والغزلُ بالمُذكّرِ ، ونَرَى إلى جانبِ ذلك تَعصُّبَهُ لقومِهِ والإشادةَ بهم ، والحَطَّ من شَأْنِ الدِّينِ والأدبِ العربيِّ وأساليبِهِ» .

وهذا تَفْسيرٌ بعيدٌ لزندقةِ أبي نواسٍ لا دليلَ عليه من أشعاره ، ولا سَنَدَ له من أخبارِهِ ، فليس في أشعار أبي نواسٍ ولا في أخبارِهِ أنه كان يؤمن بإله النور وإله الظُّلمةِ وأزَليَّتِهما ، وإنما فيها أنه كان يَشُكُّ في الحياةِ الآخرة ، حين يَستَخِفُّهُ الطربُ ويَغْلِبُهُ السُّكْرُ. وقد رُمِيَ المانويةُ بالزندقةِ لأنهم كانوا يُظْهرونَ الإسلامَ ، ويُسرُّونَ الكُفْرَ ، فإنهم كانوا يَعْتَقِدونَ بالإثنينيَّة ، ويَعْتَنِقونَ مبادئَ ماني ، ويتداولونَ كُتبَهُ ،

---

(١) «الصراع بين الموالي والعرب ص : ٩٤.

(٢) الصراع بين الموالي والعرب ص : ٩٦.

ويتدارسُونها . وما اشتُهِرَ به أبو نواسٍ من افْتتانٍ بالملذَّاتِ ، وتهالُك على المَسرَّاتِ ، وانْهِمَاكٍ في البطَالاتِ يُخالفُ ما دَعَا إليه ماني من التَّقشُّفِ والتَّنسُّكِ[1] .

أمَّا ما ذكرَهُ الدكتور محمد بديع شريف من أَنَّ « من مبادئ المانوية إثارة الشّكِّ في العقيدة ، ومهاجمة جميع الأديان لتتغلَّب عليها » ، ففيه نَظرٌ ، فإِنَّ ابنَ النَّديم هو الذي أشار إلى أنَّ ماني يَعيبُ جميعَ الأنبياء ، وينال منهم ، ويَطْعَنُ عليهم[2] . ولكنه نَقَلَ عن كُتُبِ ماني الأخرى أنه يَعْترِفُ فيها بالأديان السابقةِ ، ويُصدِّقُ بها ، ويُعَظِّمُ أصحابَهَا ، ولا سيّما المجوسيَّةُ والنَّصْرانية ، لأنه استَخْرَجَ مَذْهَبَهُ منهما[3] ، كما استَخْرَجَ بَعْضَهُ من البُوذِيَّةِ[4] . وقد تابَعَهُ في ذلكَ وَوَافَقَهُ عليه أكثر القدماء والمحدثين الذين تحدَّثوا عن تَعاليمِ المانويَّة[5] .

وأمَّا ما ذكَرَهُ من أنَّ الغزَل بالمذكر ينْحَدِرُ منْ أصولِ المانوية ففيه خلافٌ شديدٌ ، فإنَّ البيرونيَّ هو الذي رَوَى ذلك ، إذ يقول[6] : « يُحْكَى عنه (ماني) أنه حَلَّلَ قضَاء الشَّهْوَةِ في الغِلْمان إن اهتاجَتْ على الإنسان ، ويُسْتَشْهَدُ على ذلك باختصاصِ كلِّ واحدٍ من المَنَّانيَّةِ بخَادمٍ يَخْدِمُهُ أمْرَدَ أجْرَدَ » . وقد اعْتَدَّ الدكتور محمد بديع شريف بهذا القَوْل ، وبنَى عليه . وأهْمَلَ رَدَّ البيرونيِّ له رَدًّا قويًّا ، لأنه لم يَظْفَرْ به ولا بما يُقَاربُهُ فيما اطّلعَ عليه من كُتُب ماني ، إذ يَقُول[7] : « لم أَجِدْ فيما وَقَفْتُ عليه

(١) الفهرست ص : ٤٦٥ ، والآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٧ ، والملل والنحل ١ : ٢٢٨ .

(٢) الفهرست ص : ٤٦٨ ، وانظر الحيوان ٤ : ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٣) الفهرست ص : ٤٥٦ .

(٤) العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٧٩ .

(٥) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٧ ، والملل والنحل ١ : ٢٢٤ ، وفجر الإسلام ص : ١٠٤ .

(٦) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٨ .

(٧) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٨ .

من كتُبهِ ذِكْراً لما يُشْبِهُ ذلك، بل سيرتُهُ تَدُلُّ على خلافِ ما حُكِيَ».

وعلى أنَّ أبا نواسٍ أكثر من الغزَلِ بالغِلْمانِ، فوصَفَ محاسِنهم، ومُرَاوَدَتَهُ لهم عن أنفسهم، وما يُصِيبُ من اللّذةِ بمُباشرتهم[1]، فإنَّ ابنَ المعتز يَرَى أنه كان يَستّرُ بذلك فِسْقَهُ بالجواري والقِيانِ، فقد كانَ مُغْرَماً بهنّ لا يَصْبِرُ عنهن، يقول في تَرجَمتهِ لمحمدِ بن حازمٍ الباهليّ[2]: «هو أحدُ جماعةٍ كانوا يَصِفُونَ أنفسَهم بضدِّ ما هم عليه، حتى اشتهروا بذلك، منهم أبو نواسٍ، كَانَ يُكثِرُ ذِكْرَ اللُّواطِ، ويتحلّى به، وهو أزْنَى من قِرْدٍ، وأبو حكيمةَ كانَ يَصِفُ نَفْسَهُ بالعِنَّةِ والعَجْزِ عن النّكاح، وكان يُقال: إنّهُ يُقَصِّرُ عَنْهُ التَّيْسُ، وَجَحْشَوَيْهِ كانَ يصفُ نفسَهُ بالأُبْنَةِ، وكانَ يَنْـزُو على الحميرِ فَضْلاً عن غيرها، وابنُ حازمٍ يصف نفسَهُ بالقناعةِ والنزاهة، وكان أَحْرَصَ من الكلب، كانَ يَرْكَبُ النِّيلَ في درهمٍ واحدٍ فَضْلاً عن غيره».

قال الدكتور شوقي ضيف[3]: «وإذا صَحَّ ذلك يكونُ من الخَطَأ أنْ تُفَسَّرَ نَفْسِيَّةُ أبي نواسٍ على أساسِ هذه الآفةِ الشاذة التي كان يتظاهَرُ بها ليُخْفِيَ حقيقةَ سريرتِهِ وحياته الماجنةَ. وينبغي أنْ نلاحظَ هنا ما أشرنا إليه في حديثنا عن إلْحادِهِ، فإنَّ كثيراً من غزله المُفْحِش في الغلمان والنساء جميعاً كان يَنْظِمهُ في مجالس الخمر تَعابُثاً ومجانةً».

وأبْعَدُ من تَفْسير الدكتور محمد بديع شريف لزَنْدقةِ أبي نواسٍ تَفْسير الدكتور

---

(١) انظر ألحان الحان ص: ٢٧٠.

(٢) طبقات ابن المعتز ص: ٣٠٨، ووفيات الأعيان ٣: ٧٩.

(٣) العصر العباسي الأول ص: ٢٣٣.

محمد جابر عبد العال لها ، فهو يُرَجِّحُ أنها ثمرةً من ثمراتِ نُزُولهِ الكوفةَ مع أستاذِهِ والبةَ بن الحُبَابِ ، واتّصاله بمُجَّانها ومُعاشرتهِ لهم ، ومُعاصرتهِ لغُلاةِ الشّيعةِ من الخَطَّابية الذين كانوا يَدْعُونَ إلى الإباحةَ ، ومن الجناحيَّةِ الذين كانوا يدّعُونَ إلى اللّذة ، ومن المَعْمريَّة الذين كانوا يُنكِرُونَ البَعْثَ والحساب ، ويستحِلُّونَ الخَمْرَ والزّنا وسائر المُحَرَّمات[1] .

وهو يتخيَّلُ علاقةَ أبي نواسٍ بغُلاة الشّيعةِ تَخيُّلاً ، ولا يُثْبتُهَا بنُصُوصٍ صريحةٍ من أشعارِهِ وأخبارِهِ إثْباتاً ، بل يَستَخْلِصُهَا من دَعْوتهِ إلى اللّذةِ واللّهْوِ ، وشكهِ في الجنة والنار ، وقوْلِهِ بالدّهْرِ ، ومما رواه ابنُ منظورٍ من أنه كان يحب الهاشميين ويَهْوَى هَوَاهُم ، ولكنه كان يَكتُم حُبَّهُ لهم ، ويُخْفِي هواهُ إليهم ، تخوُّفاً من أنْ يَلْحَقَهُ الأذى ويناله المَكْرُوهُ بسَبَبهم ، أو إجْلالاً لأَئمتهم ، وتحوُّباً من أن لا يُوَفِّيهم حَقَّهم ، قال ابن مَنْظورٍ[2] : «من خلالِ أبي نواسٍ المأثورة أنه كان يميل مع أهْل البَيْتِ سرّاً ، لا يَجْسُرُ على المجاهرةِ به ، وقد قيل له في إعْراضِهِ عن مَدْحِهم : لقد ذَكَرْتَ كلَّ معنًى في شعرك ، وهذا عليُّ بن موسى الرِّضا في عَصْرِكَ لم تَقُلْ فيه شيئاً ! فقال : والله ما تركتُ ذلك إلاّ إعْظَاماً له ، وليس قَدْر مثلي أنْ يقولَ في مِثْلِهِ ، وأنْشَدَ :

أنـا لا أستَـطـيعُ مَدْحَ إمامٍ كـانَ جبريـلُ خـادمـاً لأبـيـه»

وأغْرَبَ الدكتور محمد جابر عبد العال في تَفْسيرِ هذا البَيْتِ الفَرْدِ ، وتمحَّلَ في تأْويله ، إذْ ذهبَ إلى «أنَّ أبا نواسٍ حينَ قال هذا الشِّعْرَ كان يَنْظُرُ إلى قَوْلِ

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص : ٢٨٠ — ٢٨٣ .

(٢) أخبار ابي نواس ١ : ٢١٦ .

الغُلاةِ[1] : إنَّ جعفراً الصادقَ إلهٌ ، وجبريلُ على هذا الوَضْع خادمٌ له[2] » .

وعَدّ ابنُ منظورِ البيتَ من عَبَثِ أبي نواسٍ ، لأنه يستهزئ فيه بالملائكة ، ويُزْرِيَ بهم ، يقول[3] : «ما الحاصِلُ لأبي نواسٍ على هذا المُجون المملوء بالتَّهكُّمِ بأبوية نعوذُ بالله من خِذْلَانِهِ ، ونسْتَغْفِرُ اللهَ رَبَّ العالمين» .

ولاحظَ الدكتور محمد مصطفى هدارة أنَّ الدكتور محمد جابر عبد العال أفْرَطَ في نِسْبَةِ الشعراءِ إلى حَرَكات الشيعةِ المُتَطرِّفينَ ، وحمّلَ النصوصَ أكثر مما تَحتَمِلُ ، وبالغَ في ذلك مبالغةً شديدةً ، واستَبعَدَ تفسيرَهُ لبَيْت أبي نواسٍ في مَدْحِ علي بن موسى الرِّضا ، وذكرَ أنَّ من غير المُمْكنِ أنْ يُستَنتجُ منه أنه يُصَوِّرُ عقيدةً من عقائدِ الرَّوافضِ ، وصَوَّب تفْسيرَ ابن منظورٍ له ، وارْتضَى ما رَجَّحَهُ من أنه ضَرْبٌ من إسراف أبي نواسٍ في المُجونِ والاسْتِهتارِ بالملائكةِ[4] .

ولا يقومُ على علاقةِ أبي نواسٍ بغلاةِ الشيعة دليلٌ ناصعٌ ولا شاهدٌ قاطعٌ . بل إنَّ في أشعاره ما يُشيرُ إلى أنه كان يَذُمُّهم ويسْخَرُ من عَقائدهم الفاسدة سُخْريةً لاذعةً[5] ، وفي أخبارِهِ ما يُوحي أنه كان يؤيِّدُ أشدَّ الفِرَق عداوةً لهم ، فقد روى ابنُ المعتز أنه «كان يُتّهمُ برأي الخوارج[6] » .

---

(١) هم البُزَيْغِيَّةُ من الخَطّابية . (انظر مقالات الإسلاميين ١ : ٧٨ ، والفرق بين الفرق ص : ١٥٠ ، والملل والنحل ١ : ١٦٠) .

(٢) حركات الشيعة المتطرفين ص : ٢٨١ .

(٣) أخبار أبي نواس ١ : ٢٢٦ .

(٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٥٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٠ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٢ .

(٦) طبقات ابن المعتز ص : ١٩٥ .

وأمَّا ما يُحيطُ بتلك النُّصوصِ من عوامل نَفْسيةٍ وثقافيةٍ وفكريةٍ فيَدُلُّ على أنَّ زندقةَ أبي نواسٍ كانت زندقةً اجتماعيةً، فقد عَرَفَ والبةَ بنَ الحُبَاب الكوفيَّ في البصرة أو في الأهواز، وانقطعَ إليه، فأدَّبهُ وخرَّجَهُ، وكان أبو نواسٍ وضيئاً صَبيحاً، وكان والبةُ شيطاناً مريداً، فعشقَ أبا نواس وأعجبَ به، وعَرَضَ عليه أنْ يسير معه إلى الكوفة، فوافَقَهُ وسار معه إليها، واستقر بها، ورافَقَهُ فيها، وكان له كالغُلَام، وخَالطَ غيره من مُجَّانِ الكوفة[1]، فأثَّر ذلك في نَفْسِهِ تأثيراً بالغاً، ودَفَعَهُ إلى المجون دَفْعاً.

وكانت سيرةُ أُمِّه في البصرة فاسدةً[2]، فآذاهُ فسادُهَا، وسَاءَهُ سوءاً شديداً، فكان ذلك سبباً في انحرافهِ وإفحاشهِ في المُجُون.

وكان حَادَّ المزاج[3]، وكان فيه مَيْلٌ إلى الدّعابةِ والفُكاهةِ، فساقَهُ ذلك إلى المُجُون، وزيَّنَهُ له، ومَدَّ له فيه.

وكان واسعَ الثقافة، مُتفنناً في العِلْمِ، قد ضربَ في كل نَوْعٍ منه بنصيبٍ»[4]، أمَّا مَعَارِفُهُ العربيةُ والإسلاميةُ فوصفهَا ابن المعتز[5] والخطيبُ البغداديُّ[6]، وابن عساكر[7]، وأفاضوا في توضيح جَوَانبها، وأبانوا عن تمكُّنهِ

---

(١) أخبار أبي نواس، لأبي هفان ص: ١٠٩، وطبقات ابن المعتز ص: ١٩٤، وتاريخ بغداد ١٣: ٤٨٨، ووفيات الأعيان ٢: ٩٥، وأخبار أبي نواس، لابن منظور ١: ٧.

(٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور ١: ٢٢.

(٣) العصر العباسي الأول، للدكتور شوقي ضيف ص: ٢٢٦.

(٤) الشعر والشعراء ص: ٧٩٨.

(٥) طبقات ابن المعتز ص: ١٩٤، ٢٠١.

(٦) تاريخ بغداد ٧: ٤٣٦، ٤٣٧.

(٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤: ٢٥٧، ٢٥٨.

منها ورسُوخِهِ فيها ، وأمَّا مَعَارِفُهُ الأجنبيةُ فتكلَّمَ عليها ابنُ المعتز [١] وابن مَنْظورٍ [٢] . فذكرا أنه جالسَ المتكلِّمينَ ، وأخذ عنهم عِلْمَ الكلام . ووصَلهُ عِلْمُ الكلام بالثقافةِ اليونانية من فلسفةٍ ومنطقٍ [٣] . وألمَّ بطرفٍ من الثقافةِ الهِنْدية [٤] ، وتَعَمَّقَ في الثَّقافةِ الفارسية [٥] . فتعدَّدت مصادرُ ثقافتِه ، وأدَّتْهُ معارِفُهُ الكلاميَّةُ والفلسفيةُ إلى شيءٍ من الشَّك ، كان يَبُوحُ به في مجالسِ لهوِهِ وخَمْرِهِ ، وفي أثناءِ نَشْوتِهِ وسُكْرِه .

وكان يميلُ إلى مذهب المرجئةِ [٦] ، ويُصَحِّحُ قولهم [٧] : إنَّ الإيمانَ هو المعرفةُ بالله ، وكان يعتقدُ بقولهم [٨] : لا تَضُرُّ مع الإيمان مَعْصيةٌ ، ولا تنفعُ مع الكُفْرِ طاعةٌ . وقد انْتَقَدَ تَشَدُّدَ المعتزلةِ في أمْرِ أصْحابِ الكبائرِ ، ونَدَّدَ بما أجْمَعُوا عليه من أنهم مُعَذَّبونَ في النار خَالدونَ فيها ، لا يُخْرَجونَ منها ولا يُغَيَّبُونَ عنها [٩] . وأعلنَ انتقادَهُ لهم وتَنْديدَهُ بهم في شعرِهِ ، إذ يقول فيهم [١٠] :

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢٧٢ .

(٢) أخبار أبي نواس ١ : ٦ .

(٣) العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٢٣ .

(٤) الشعر والشعراء ص : ٧٩٨ ، ٨٠٢ .

(٥) العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ١٤٣ .

(٦) انظر أبو نواس ، لعباس العقاد ص : ١٨٧ .

(٧) انظر الفرق بين الفرق ص : ١٢٢ ، والملل والنحل ١ : ١٢٥ .

(٨) الملل والنحل ١ : ١٢٥ .

(٩) انظر مقالات الإسلاميين ١ : ٣٠٧ ، والفرق بين الفرق ص : ٦٨ ، والملل والنحل ١ : ٥٠ ، وضحى الاسلام ٣ : ٦٣ .

(١٠) ديوانه ص : ٧ .

فَقُلْ لمن يَدّعي في العِلْمِ فَلْسفةً حَفِظْتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ
لا تَحْظُرِ العَفْوَ إنْ كنتَ امْرءاً حَرِجاً فـإنَّ حَظْرَكَهُ بالدِّينِ إزْرَاءُ!

واعتمد على فكرةِ العَفْوِ في الإسلام، وسَوَّغَ بها طَلَبَهُ للَّهو واللّذة، وإغراقَهُ في البطالة والخلاعة، واقْترافَهُ للآثام والمعاصي، وتَظاهرَهُ بالعَبثِ والشَّك. فهو يُرَدِّدُ في شِعْرِهِ مراراً أنَّ رَحْمَةَ الله واسعةٌ، وأنَّ المُسْلِمَ مهما يَكبُرْ ذَنْبُهُ فإنَّ اللهَ يَغْفِرُ له ويَصْفَحُ عنه، يقول [1]:

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ عَفْوكَ أعْظَمُ!
إنْ كَانَ لا يرْجُوكَ إلاَّ مُحْسِنٌ فبِمَنْ يَلُوذُ ويسْتَجِيرُ المُجْرِمُ!
أدْعُوكَ رَبِّ كما أَمَرْتَ تضَرُّعاً فإذا رَدَدْتَ يَدي فمَنْ ذا يَرْحَمُ!
مالي إليك وَسيلةٌ إلاّ الرَّجا وجميلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أنّي مُسْلِمُ!

ويقول [2]:

يا نُواسيُّ تَوَقَّرْ وتَجَمَّلْ وتَصَبَّرْ
سَاءَكَ الدّهْرُ بشيءٍ وبِما سَرَّكَ أكْثَرْ
يا كبيرَ الذَّنْبَ عَفْوُ اللـهِ من ذَنْبِكَ أكْبَرْ
أكبرُ الأشياءِ عَنْ أصْغَرِ عَفْوِ اللهِ أصْغَرْ

---

(١) ديوانه ص: ٦١٨، وانظر تاريخ بغداد ٧: ٤٤٩، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤: ٢٨١.

(٢) ديوانه ص: ٦٢٠، وانظر الموشح ص: ٤٢٥، وتاريخ بغداد ٧: ٤٤٦، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤: ٢٨٠، ووفيات الأعيان ٢: ١٠٢.

ويقول[1] :

أَيُّها الغَافِلُ المقيمُ على السَّهْـ ـوِ ولا عذْرَ في المُقَامِ لِساهِ
لا بـأعْمالِنَـا نُـطـيقُ خَلاصاً يومَ تبدُو السماءُ فَوْقَ الجبَاهِ
غـيـرَ أني على الإساءة والتَّفْـ ـريطِ راجٍ لحُسْنِ عَفْوِ الإله

ويقول[2] :

تَـعَـاظَـمني ذَنْبي فَـلَـمَّا قَرَنْتُهُ بِعَفْوِكَ رَبِّي كان عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فما زلتَ ذا عَفْوٍ عن الذَّنْبِ لم تَزَلْ تجودُ وتَـعْـفُو مِـنَّـةً وتـكَـرُّمـا

ويقول[3] :

تَـكَـثَّـرْ ما استَطَعْتَ منَ الخَطايا فـإِنَّكَ لَاقـيـاً رَبَّـا غَـفُـورَا
سَتُبْصِرُ إذ وَرَدْتَ عليه عَفْواً وتَـلْـقَى سَيِّـداً مَـلِـكاً كَـبيرا
تَـعَضُّ نـدامـةً كَـفَّـيْكَ لَـمَّـا تَـرَكْتَ مخافـةَ الـنـارِ السُّرورا

ويقول[4] :

وَثِقْتُ بِعَفْوِ اللهِ عَنْ كُلِّ مسلمٍ فلَسْتُ عن الصَّهْبَاءِ ما عِشْتُ مُقْصِرا

وهكذا كانت شَخْصِيَّةُ أبي نواسٍ مُعَقَّدةً تعقيداً شديداً ، فجَرَّتْهُ ظروفُهُ النَّفْسِيَّةُ

---

(1) ديوانه ص : ٦٢١ ، وانظر تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٧ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٧ .

(2) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٧ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٨٠ .

(3) ديوانه ص : ٧٣٠ ، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٨٢ .

(4) ديوانه ص : ٦٨٣ .

المُلْتَويةُ ، ومَعارِفُهُ الأجنبيةُ الواسعةُ ، وآراؤُهُ الفِكْرِيَّةُ الدينيَّةُ المُتَسامحةُ إلى المُجُونِ ، والمجاهرةِ بالفِسْقِ ، والجُرْأةِ على الدّين.

ومما يُقَوّي أنَّ زَنْدَقَتَهُ كانت زندقةً اجتماعيةً أنه كان يَعتَرِفُ لأصحابِهِ حين كانوا يَعْذِلُونَهُ على ما يُعْلِنُ في مُجُونِهِ من تَمرُّدٍ وإلحادٍ في الدِّينِ بأنَّ السُّكْرَ يَسْتَبِدُّ به ، فيَجْرِي الشّكُّ على لسانِهِ ، إذ يقولُ لهم وقد لاموه[1] : «والله ما أدينُ غير الإسلام ، ولكن ربما نَزَا بِيَ المجُونُ حتى أتناولَ العظائمَ ، وما أعْلَمُ أني مسئولٌ عنه ومُعذَّبٌ عليه» ، ويقول[2] : «والله إني لأعْلَمُ بما تَقُولونَ ، ولكن المجونَ يُفْرِطُ عَلَيَّ ، وأرْجُو أنْ أتوبَ ويَرْحَمني الله» . وكان إذا رُمِيَ بالزندقةِ يَدْفَعُ التُّهْمَةَ عن نَفْسِهِ ، ويستَهجِنُ إلْصاقَهَا به ، ويؤكدُ أنه مؤْمِنٌ مُوحِّدٌ يُؤَدّي الصّلواتِ ، ولا يُفرِّطُ في سائرِ الطاعاتِ والمفروضات[3] ، ونَقَلَ أبو هفان ما يُوَثِّقُ ذلك ، إذ يقول[4] : «حدثني يوسف بن الدّاية أنَّ أبا نواسٍ كان مُحافظاً على صلاتِهِ إلاّ أنْ يسكر ، وكان يَقْضي ما يَفُوتُهُ منها حين يُفيقُ من سُكْرِهِ» .

ويُقَوِّيهِ أنه يُقِرُّ في زُهْدِيَّاتِهِ بوحْدانيةِ الله ، ويُؤْمِنُ بيوم القيامةِ ، ويُصَدِّقُ بالبَعْثِ والحسابِ ، ومن ذلك قَوْلُهُ[5] :

ألم تَـرَنِي أبَـحْتُ اللّـهْوَ نَـفْسي وديني واعْـتَـكَفْتُ على المعاصي

---

(١) أخبار أبي نواس ، لأبي هفان ص : ٣٨.

(٢) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٢ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٣.

(٣) تاريخ بغداد ٧ : ٤٤٠ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٢.

(٤) أخبار أبي نواس ص : ٤٩.

(٥) ديوانه ص : ٦٢٢.

كـأني لا أَعُودُ إلى مَـعـادٍ ولا أَخْشَى هنالك منْ قَصاص

وقولُهُ [١] :

وهـذي الـقـيـامـةُ قد أشْرَفَتْ تُـريكَ مَـخَـاوِفَ فَـزْعـاتِـهَـا

ومُنَاجاتُهُ الرائعةُ وتَلْبِيَتُهُ الخاشعةُ يومَ حَجَّ خيرُ شاهدٍ على ذلك ، وفيها يقول [٢] :

إلـهـنـا مـا أَعْـدَلَكْ مَليكَ كلِّ مَنْ مَلَكْ
لَبَّيْكَ قدْ لَبَّيْتُ لكْ

لَـبَّـيْكَ إنَّ الحمـدَ لَكْ والـمُـلْكَ لا شَريكَ لَكْ
مـا خـابَ عـبـدٌ سأَلَكْ أنتَ لَـه حـيـثُ سَلَكْ
لَوْلَاكَ يا ربِّ هَلَكْ

وهي طويلةٌ ، وبقيتُهَا تَنْسَابُ على هذا النَّحْوِ من التَّوْحيدِ والتَّحميد والتَّسبيحِ الآسرِ الساحر.

وكأنَّ مُجُونَهُ هو السَّببُ في رَمْيِهِ بالزَّنْدقةِ ، إذْ «كان مع كَثْرَةِ أدَبِهِ وعِلْمِه خليعاً ماجناً وفتًى شاطراً [٣] » ، وكان ظريفاً مشهوراً ، وقد رَوَى ابنُ المعتزِّ أنه لمَّا أحْكَمَ العُلُومَ العربيةَ والإسْلاميةَ تَفَرَّغَ للنَّوادرِ والمُلَحِ فحفَظَ منها شيئاً كثيراً [٤] . وفي أخبارِهِ أنه كانَ يُسمِّي نفْسَهُ الظريف [٥] ، وفي شعره ما يؤيد ذلك ، فهو يقول [٦] :

---

(١) ديوانه ص : ٦١١.

(٢) ديوانه ص : ٦٢٣ ، وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٧٨.

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ١٩٥.

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ٢٠١.

(٥) أخبار أبي نواس . لأبي هفان ص : ١٢٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٢.

(٦) ديوانه ص : ٤٥١ ، وانظر الموشح ص : ٤١٥ ، والوساطة ص : ٦١.

وَصيفُ كأْسٍ مُحَدِّثَةْ مَلْكٍ تيهُ مُغَنٍّ وظَرْفُ زِنْديقِ

وكان بعضُ أهْلِ عَصْرِهِ يُسَمِّيهِ الظَّريف[1] ، وقال الحُصريُّ القَيْرواني[2] : «كان أظْرَفَ الناسِ أدباً». ويرى الأستاذ عبد الرحمن صدقي أنَّ شُهْرَتَهُ بِشرْبِ الخَمْرِ ووَصْفِهَا بينَ المُتَقدِّمينَ والمُتأخّرينَ من شُرَّابها وَوُصَّافها تَرْجعُ إلى ظَرْفِهِ ، يقول[3] : «الذي نراهُ أنَّ هذا السِرَّ في شخصية أبي نواس نَفْسهِ ، فالرجلُ لطيفُ الروحِ ، خفيفُ الظِّلِّ ، ثم هو مشْبُوبُ الحَيَويَّةِ ، مُتَيَقِّظُ الشّعورِ بما يَردُ على حِسِّهِ ، شديدُ الأُنْسِ بمن حَوْلَهُ ، في نَفْسِهِ سَخَاءٌ ، وفي طَبْعِهِ مُجاوبةٌ ، مع التفاتٍ إلى مواضعِ الفكاهة ، وقَصْدٍ إلى الدُّعابة. وهذا المِزاجُ في الشاعرِ يُطالِعُنا في شِعْرِهِ الغِنائيِّ الذي يَجْري فيه مع طَبْعِهِ ، ويَصْدُقُنا فيه الخَبَرَ عن نَفْسِهِ».

فَحَملَهُ ظَرْفُهُ على أنْ يُكثِرَ من الهَزْلِ ، وأنْ يُجاوِزَهُ إلى الشّكِّ ، مُمَازحةً ومُطايبةً للنُّدماءِ والأصْدقاءِ ، وتَقرُّباً وتحبُّباً إلى الخلفاءِ والوُزراءِ ، وهل أدَلُّ على ذلك من قَوْله ليحيى بن خالدٍ البَرْمكيِّ[4] :

كم مِنْ حَديثٍ مُعْجبٍ عِنْدي لَكا ... لو قد نَبَذْتُ بهِ إليكَ لَسرَّكا
إنِي أنا الرجلُ الحكيمُ بطَبْعِهِ ... ويزيدُ في علمي حكايةُ مَنْ حَكَى
أتتبَّعُ الظُّرفَاءَ أكْتُبُ عنهمُ ... كيما أُحَدِّثَ مَنْ أُحِبُّ فيَضْحَكا

---

(1) أخبار أبي نواس ، لأبي هفان ص : ٢٢ ، وتاريخ بغداد ٧٠ : ٤٣٧ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤ : ٢٦٠ ، ٢٧٠.

(2) زهر الآداب ص : ١٦٣.

(3) ألحان الحسان ص : ٣.

(4) ذيل زهر الآداب ص : ٩٤ ، وقارن برواية ديوانه ص : ٣٨٣.

وبَرَّأَهُ من الزَّنْدقةِ الدِّينيةِ كثيرٌ من الباحثين المُحْدَثينَ، منهم الدكتور محمد النّويهي، إذ يقول[١] : «إنَّ أبا نواسٍ ليس كافراً ولا مُتَشكِّكاً، ولكنه في المرتبة التي سموها منزلةَ المُؤْمنِ العاصي، والذي يَسُوقُهُ إلى هذا العصيانِ ضَعْفٌ نَفْسانيٌّ لا ضَعْفٌ إيمانيٌّ». ومنهم الدكتور محمد مصطفى هدارة، فهو يَجْزِمُ بأنَّ زَندقةَ أبي نواسٍ زندقةٌ اجتماعيةٌ لم تَمَسَّ جَوْهَرَ إيمانه قَطُّ[٢]. ومنهم الدكتور شوقي ضيف، فهو يقول[٣] : «نَراهُ أحياناً يُعْلِنُ تَمرُّداً وإلحاداً في الدين، ولكنه إلحادٌ عابرٌ، لا إلحاد عقيدةٍ كإلحادِ بشارٍ، فقد كان بشارٌ زنديقاً، وكان يظهر زندقتَهُ حين لا يَخْشى على نَفْسه، ويُبْطِنُهَا حين يأخذُهُ الخوفُ، أما أبو نواسٍ فلم يكن يَعْتَنِقُ الزَّندقة، إنما كان يَعْتَنِقُ المجونَ، ويتعبَّدَ لملاذِّ الحضارةِ التي عاشها، فصاحَ بالدين الحنيف كأنه يَرَى فيه عائقاً عن خمرِهِ ومُجُونِهِ وإثْمِهِ. وهو من هذه الناحيةِ مضطربٌ أشَدَّ الاضطراب، تارةً يُعْلِنُ دَهْرِيَّتَهُ، وأنه لا يؤمن ببَعْثٍ ولا نشورٍ، وتارةً يُعْلِنُ أنه مؤمنٌ عاصٍ، وأنه على الرغم من جَهْلِهِ بعصيانه وفسقِهِ يعتمد على عَفْوِ اللهِ ومَغْفرتِهِ».

وفي ذلك ما يدُلُّ على أنَّ ما يُنْسَبُ إلى أبي نواسٍ من الزَّندقةِ ليس من الكُفْرِ في شيءٍ، وإنما هو صورةٌ من المجونِ، وهي صورةٌ مُركبة، فهي ألْوانٌ من الفُكاهةِ والدُّعابة، ومن الخلاعةِ والبطالةِ، ومن العَبَثِ والضَّلالةِ. ولكنه أسْرَفَ في بعضِ مجونِه إسرافاً شديداً، وأفْحَشَ فيه إفحاشاً قبيحاً حتى بَثَّ فيه ارْتيابَهُ بالبَعْثِ

---

(١) نفسية أبي نواس ص: ١٢٣.

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص: ٢٦٠، ٢٦١.

(٣) العصر العباسي الأول ص: ٢٢٦.

والحسابِ، ونَفَثَ فيه شَكَّهُ في الثوابِ والعقابِ. وكان يجهرُ بذلك جَهْراً في مَجالسِ أُنْسِهِ، ويَنْثُرهُ نَثْراً بعدَ أنْ تَلْعَبَ الخمرُ برأسِهِ، وكان يصنعُ ذلك تملُّحاً وتظرُّفاً، لا إشْراكاً باللهِ، ولا اعتقاداً بالإثْنينيَّةِ، وغيرها من تَعاليمِ المانويَّةِ والمَزْدكيَّةِ.

(١١) أبو العَتَاهية

رُميَ أبو العتَاهية إسماعيل بن القاسم مَوْلَى عَنَزَةَ العَيْنيُّ[١] الكوفيُّ ثم البَغْداديُّ بالزَّنْدقةِ، وقد رماهُ بها بعضُ أهلِ عصرِهِ، ورماهُ بها أيضاً بعضُ القدماءِ.

وأوّلُ من اتّهمَهُ بالزندقةِ مِنْ أهْلِ عَصْرِهِ هو منصورُ بن عَمَّارٍ السُّلَميُّ الخراسانيُّ البَغْداديُّ، وكان صاحبَ مواعظٍ[٢]. ويظهرُ أنهما كانا يتنافسان في فَنِّ الزُّهْدِ والوَعْظ، فكان أبو العتاهية يَعِظُ بالشعر، وكان منصورٌ يَعِظُ بالقَصص. وكان كلُّ واحدٍ منهما يتتبَّعُ أقوالَ الآخر، يريد أنْ يتبيَّنَ سَقطاتِهِ، ليحُطَّ منه، ويتفوَّقَ عليه. فنشأتْ بينهما عداوةٌ، وجعلَا يتراسلان التُّهمَ، وكان أبو العتاهية هو البادئْ بالتَّصدّي لمنصورٍ، والعَيْبِ له. فقذَفَهُ مَنْصُورٌ بالزّندقةِ، ليشَهِّرَ به، ويقْضيَ عليه، قال أبو الفرج الأصفهاني[٣]: «لمّا قَصَّ منصورُ بن عمارٍ على الناس مَجْلِسَ البَعوضة[٤]، قال أبو العتاهية: إنما سرقَ منصورٌ هذا الكلامَ من رجلٍ كوفيٍّ، فبلغَ

---

(١) العَيْني: نسبة إلى عين التَمْر، وبها كان مَوْلِدُ أبي العتاهية، وهي بلدةٌ قرب الأنبار.

(٢) الجرح والتعديل ٤: ١: ١٧٦، وتاريخ بغداد ١٣: ٧١.

(٣) الأغاني ٤: ٣٤.

(٤) أطلق المكان على ما يقع فيه، يريد قَصّ ما يتعلق بالبعوضة من خلقها وصفتها وما أودعه الله فيها من الأسرار.

قولُهُ منصوراً فقال : أبو العتاهية زِنْديقٌ ! أمَا تَروْنَهُ لا يذكرُ في شعرِهِ الجنَّةَ ولا النارَ ، وإنما يذكرُ الموتَ فقط ! فبلغ ذلك أبا العتاهيةِ ، فقال فيه :

يا واعظَ الناسِ قد أَصْبَحْتَ مُتَّهماً إذْ عِبْتَ منهم أموراً أنتَ تَأْتيها
كالمُلْبسِ الثوبَ من عُرْيٍ وعَوْرتُهُ للناسِ باديةٌ ما إنْ يُوَاريهَا
فأعظمُ الإثْمِ بعدَ الشِّرْك نَعْلَمُهُ في كلِّ نَفْسٍ عَمَاهَا عن مَساويهَا
عِرْفانُهَا بعيوب الناسِ تُبصرُهَا منهم ولا تُبْصِرُ العَيْبَ الذي فيها

فلم تَمْض إلاّ أيّامٌ يسيرةٌ حتى مات منصورُ بن عمارٍ ، فوقف أبو العتاهية على قَبْرِهِ ، وقال : يَغْفِرُ الله لك أبا السريِّ ما كنتَ رَميْتَني به » !

وأسْنَدَ أبو الفرج الأصفهاني إلى رجاءِ بن سَلمةَ أنه قال [1] : « سمعتُ أبا العتاهية يقول : قرأتُ البارحةَ : « عمَّ يتساءَلُونَ » ، ثم قُلْتُ قصيدةً أحْسَنَ منها ! ! قال : وقد قيل : إنَّ منصورَ بن عمارٍ شنَّعَ عليه بهذا » ! !

وأسندَ أبو الفرج الأصفهاني إلى محمد بن أبي العتاهية أنه قال [2] : « لمّا قال أبي في عُتْبَةَ :

كأنَّ عَتَّابةَ مِنْ حُسْنِهَا دُمْيةُ قَس فتنَتْ قَسَّها
يا ربِّ لو أنْسَيْتَنيها بما في جَنَّةِ الفِرْدوسِ لم أنْسَهَا

شنَّعَ عليه منصورُ بن عمَّارٍ بالزَّندقةِ ، وقال : يتهاوَنُ بالجنَّةِ ويبتَذِلُ ذِكْرَهَا في شِعْرِهِ بمِثْلِ هذا التّهاون ! وشنَّعَ عليه أيضاً بقوله :

---

(١) الأغاني ٤ : ٣٤.

(٢) الأغاني ٤ : ٥١ ، وانظر الشعر والشعراء ص : ٧٩٤.

إنَّ المَـلِـيكَ رآكَ أحْسَـنَ خَـلْـقِـهِ ورأى جمالَكْ
فَـحَـذا بِـقُـدْرَةِ نَـفْسِـهِ حُورَ الـجِـنانِ على مِثالِكْ

وقال: أَيُصَوِّرُ الحُورَ على مثالِ امرأةٍ آدميَّةٍ، واللهُ لا يَحْتاجُ إلى مثالٍ! وأَوْقَعَ له هذا على أُلسِنَةِ العَامَّة، فلَقِيَ منهم بلاءً».

ورَوَى الخطيبُ البغداديُّ أَنَّهما تكافَآ في آخرِ الأمرِ، وأنَّ منصوراً بَرَّأَ أبا العتاهيةِ من الزَّندقةِ، وصَحَّحَ إسلامَهُ، يقول[1]: «جَلَسَ منصورُ بن عَمَّارٍ بعضَ مجالسِهِ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه وقال: إني أُشهِدُكم أنَّ أبا العتاهية زنديقٌ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فكتب إليه:

إنَّ يومَ الحسابِ يومٌ عسيرُ ليسَ للظَّالمينَ فيهِ نَصيرُ
فاتَّخذ عُدَّةً لمُطَّلعِ القَبْرِ وَهَوْلِ الصِّرَاطِ يا مُنصورُ

وَوجَّهَ بها أبو العتاهية إلى منصور، فندمَ على قَوْله، وحمدَ اللهَ وأثْنَى عليه وقال: أُشْهِدكم أنَّ أبا العتاهية قد اعترفَ بالموتِ والبَعْث ومن اعتَرَفَ بذلك فقد برئ مما قُذِفَ به».

واتَّهمهُ سلمٌ الخاسرُ بالزَّندقة، لأنه حَسَدَهُ على انقطاعِهِ إلى الفضل بن يحيى البَرْمكيِّ، وكثرةِ ما ينالُ من بِرِّهِ وخَيْرِهِ، وقال فيه:

إنما الفَضْلُ لسلمٍ وَحْدَهُ ليسَ فيه لسوى سَلْمٍ دَرَكْ

فحنقَ عليه سلْمٌ، «وكان هذا أحد الأسباب في فسادِ ما بينه وبينَ أبي العتاهية[2]». ثم عابَهُ أبو العتاهية بجمْعِ المال والحفاظِ عليه، والبُخْل به، فازدادَ

---

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٤.

(٢) الأغاني ١٩ : ٢٦١.

سَلْمٌ بُغْضاً له ، ورماهُ بالزَّندقةِ لينْتصفَ منه ، ودَلَّلَ على زندقتِه بكَذبِهِ في تنسُّكهِ وتقشُّفِهِ ، فهو يُنَفِّرُ الناسَ من الدنيا ، ويدعوهم إلى الزّهد ، ومع ذلك فهو يَمْدَحُ ويسألُ ، ويتهالكُ على المال ، ويحْرِصُ على ما أصابَ منه ، ويقتِرُ على نَفْسِهِ ، قال أبو الفرج الأصفهاني[1] : «كان سَلْمٌ تلميذَ بشارٍ ، إلاّ أنه كان تَباعدَ ما بينَهما ، فكان سَلْمٌ يُقَدِّمُ أبا العتاهية ، ويقول : هو أشْعَرُ الجنِّ والإنْسِ ، إلى أنْ قال أبو العتاهية يُخاطِبُ سَلْماً :

تَعَالى اللهُ يا سَلْمَ بنَ عمروٍ أذلَّ الحِرْصُ أَعْناقَ الرِّجالِ
هَبِ الدنيا تَصيرُ إليك عَفْواً أَلَيْسَ مَصيرُ ذاكَ إلى زَوالِ !

وبلَغَ الرشيدَ[2] هذا الشعرُ فاستحسنَهُ وقال : لعمري إنَّ الحرْصَ لمفسدةٌ لأَمرِ الدين والدنيا وما فَتَّشْتُ عن حَريصٍ قَطُّ مُغَيَّبه[3] ، إلاّ انكشَفَ لي عما أُذُمُّه . وبلغَ ذلك سَلْماً ، فغضبَ على أبي العتاهية وقال : وَيْلي عل الجَرَّارِ ابن الفاعلةِ الزنديق ! زَعمَ أني حريصٌ ، وقد كنزَ البُدُورَ ، وهو يَطْلُبُ وأنا في ثَوْبيَّ هذين ، لا أمْلِكُ غيرَهما ، وانْحرفَ عن أبي العتاهية بعد ذلك» .

وقال سَلْمٌ يُنَدِّدُ بمراءاة أبي العتاهية ونفاقهِ في زُهْدِهِ[4] :

---

(١) الأغاني ١٩ : ٢٦٩ ، وانظر طبقات ابن المعتز ص : ١٠٥ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٧ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥١ .

(٢) في بعض الروايات «المأمون» ، وهو خطأ . (انظر الأغاني ٤ : ٧٥ ، ١٩ : ٢٧٦) . والصواب «الرشيد» ، لأن سَلْماً لم يُدْرِكْ خلافة المأمون ، بل مات في خلافة الرشيد سنة ستٍ وثمانين ومائةٍ . (انظر معجم الأدباء ٤ : ٢٤٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٢) .

(٣) مُغَيَّبهِ : بدل من حريص .

(٤) الأغاني ٤ : ٧٦ ، ١٩ : ٢٧٦ ، ومعجم الأدباء ٤ : ٢٤٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٥٢) .

ما أقبحَ التَّزْهيدَ منْ واعظٍ يُزَهِّدُ الناسَ ولا يَزْهَدُ
لَوْ كانَ في تَزْهيدِهِ صادقاً أضْحَى وأمْسَى بيْتَهُ المَسْجدُ
ورَفَضَ الدنيا ولم يَلْقَهَا ولم يكنْ يَسْعَى ويَسْتَرْفِدُ
يخَافُ أنْ تَنْفَدَ أرْزاقُهُ والرِّزْقُ عندَ اللهِ لا يَنْفَدُ
الرِّزْقُ مَقْسُومٌ على مَنْ تَرَى يَنَالُهُ الأَبْيَضُ والأسْوَدُ
كُلٌّ يُوَفَّى رِزْقَهُ كاملاً مَنْ كَفَّ عن جُهْدٍ ومَنْ يَجْهَدُ

واتّهمَهُ إبراهيمُ بنُ المهدي بالزَّنْدقة ، لأنه كانَ سيّىء الطَّوِيَّةِ ، رَدِيءَ السِّيرةِ ، فقد كان ينتَحِلُ الزُّهْدَ انْتِحالاً ، ويتكلَّفُهُ تكلُّفاً ، وكان يَطْلُبُ به الشُّهْرَةَ المُدَوِّيةَ ، ويَسْعَى إلى المكانةِ العالية ، ولأنه كان يَنْعَى الحياةَ إلى الناسِ ويَبْكيها ، ويُفْسِدُ عليهم فَرْحَةَ الدنيا وبَهْجتهَا ، مما يُنافي رُوحَ الإسلام ويُجافيهَا ، قال هبةُ الله بن إبراهيم بن المَهْدِيِّ[1] : « بلغَ أبا العتاهيةِ أنَّ أبي رَماهُ في مَجْلسهِ بالزندقةِ ، وذكرَهُ بها ، فبعث إليه يُعاتِبُهُ على لسان إسحاق المَوْصلي ، فأدّى إليه إسحاقُ الرسالةَ ، فكتبَ إليه أبي :

إنَّ المَنِيَّةَ أَمْهلَتْكَ عَتَاهِي والموتُ لا يَسْهُو وقَلْبُكَ ساهي
يا وَيْحَ ذي السِّنِّ الضّعيف أمالهُ عن غَيِّهِ قَبْلَ المماتِ تَنَاهِي
وُكِّلْتَ بالدُّنيا تُبكيهَا وتَنْدُبُهَا وأنتَ عن القيامةِ لَاهي
والعَيْشُ حُلْوٌ والمنونُ مريرةٌ والدارُ دارُ تفاخرٍ وتباهي
فاخْتَرْ لنَفْسِكَ دُونَهَا سُبُلاً ولا تَتحامَقَنَّ لها فإنَّكَ لَاهي
لا يُعْجِبَنَّكَ أنْ يُقالَ مُفَوَّهٌ حَسَنُ البلاغةِ أوْ عَرِيض الجاهِ

(١) الأغاني ٤ : ١٠١.

أصْلِحْ جَهُولاً مِنْ سريرتِكَ التي تَخْلُو بها وارْهَبْ مقامَ اللهِ
إني رأيْتُكَ مُظْهراً لزهادةٍ تَحْتاجُ مِنْكَ لها إلى أشْباهِ

واتّهمَهُ حَمْدَوَيْهِ صاحبُ الزنادقةِ بالزّنْدقةِ ، لأنه ارْتابَ به ، وعَزَمَ أنْ يَعْتَقِلَهُ ويقْتُلَهُ ، فمَوَّهَ عليه أمْرَهُ ، ونجا منه ، قال العباسُ بن رستم[1] : «كان حَمْدَوَيهِ صاحبُ الزّنادقةِ قد أرادَ أنْ يأخذَ أبا العتاهية ، ففزع من ذلك ، وقَعَدَ حَجَّاماً» ، وقال محمد بن أبي العتاهية[2] : «كانت لأبي العتاهية جارةٌ تُشْرِفُ عليه ، فرأَتْهُ ليلةً يقْنُتُ[3] ، فَرَوَتْ عنه أنهُ يُكَلِّمُ القَمر ، واتّصَلَ الخبرُ بحَمْدَوَيْهِ صاحبِ الزنادقةِ ، فصار إلى منزلِهَا ، وباتَ وأشْرَفَ على أبي العتاهية ، ورآه يُصَلّي ، ولم يزل يَرْقُبهُ حتى قَنَتَ وانصرفَ إلى مَضْجعِهِ ، وانصرفَ حَمْدويهِ خاسئاً» .

تلك هي أشْهَرُ الأخبارِ التي وردَتْ في قَذْفِ أبي العتاهية بالزّنْدقةِ في حياتِهِ . ويبدو من أكثرها أنَّ التّنافُسَ والتّحاسُدَ والتّباغُضَ بَيْنَهُ وبين بعضِ الوُعَّاظِ والشعراء من أهْلِ عَصْرِهِ هي التي حَمَلَتْهُمْ على قَذْفِهِ بالزّنْدقةِ ، وأنهم كانوا يبتَغُونَ التشنيعَ عليه ، والانتقامَ منه ، والتّحْطيمَ له . ولكنهم لم يَخْتَلقُوا التُّهْمَةَ اختلاقاً ، ولم يُطْلِقوها إطْلاقاً ، بل عَلَّلوهَا تعليلاً دقيقاً ، واحْتَجُّوا لها احْتجاجاً قويّاً ، ووضَّحُوهَا تَوْضيحاً شديداً ، فقد وَقفُوا في زُهْدِهِ على شُبُهَاتٍ ، ووجَدُوا في سُلُوكه نقائصَ ، فارْتابُوا به ، وطعنُوا عليه .

ويُسْتَفادُ من تلك الأخبارِ والأشعارِ أن خُصومَهُ قَرَفُوهُ بالزّنْدقةِ لأسْبابٍ مُختلفةٍ ، منها أنه أكْثَرَ في زُهْدِهِ من الحديث عن المَوْتِ والفناءِ والقُبور ، وسَكَراتِ

(١) الاغاني ٤ : ٧.

(٢) الأغاني ٤ : ٣٥.

(٣) قنت هنا : أطال القيامَ والسُكُوت.

الموتِ، وآلامِ الاحْتضارِ، واسْترسَلَ في ذلك استرسالاً، حتى غَلَبَ على زُهْدِهِ الحُزْنُ والمرارة والأسى والكآبةُ، وأنه أَقَلَّ فيه من الحديث عن البَعْثِ والحشْرِ، والجنَّة والنار، وألمَّ بذلك إلْماماً عابراً، مما يخالفُ ما جاء في الذّكر الحكيم، فإن فيه وصْفاً مُفصّلاً للحياة الآخرة، ونَعيم الجنَّةِ المُقيمِ، وعذابِ النارِ الأليمِ، ومما يبعَث على الشّكِّ في مَصْدرِ زُهْدِهِ، والظّنِّ بأنه لم يكنْ إسلاميّاً، بل كان أجْنَبياً.

وقد بيّنَ الدكتور محمد محمود الدّش أن زُهْدَ أبي العتاهية لا يَخْلُو من تَصْويرِ حسابِ القبْرِ، وحسابِ يومِ القيامة، وما بعدَ الحسابِ من جَزاءٍ، وثوابٍ وعقابٍ، وتَخْليدٍ في الجنة أو تَخْليدٍ في النار، ولكنه لاحظَ أنَّ أبا العتاهية أفاض في ذِكْرِ هذه المعاني بعد أن اتَّهمهُ خُصُومُهُ بإغفالها وإهْمالِهَا، ونَسَبُوهُ بسبب ذلك إلى الزَّنْدقةِ، وأنه صَدَرَ فيما ذكر منها عن رُوحِ الاسلامِ، واستْمدَّ من ألفاظ القرآن الكريم، ليَدْفعَ التُّهْمةَ عن نفسهِ، ويُفْلِتَ من الهَلَاكِ، وأثبتَ ذلكَ بنصوصٍ كثيرةٍ من زُهْدِهِ[1].

ومنها أنَّهُ كان يَسْتَخِفُّ بالذكرِ الحكيم، ويزعمُ أنَّ بعضَ قصائدِهِ خَيْرٌ من بعض سُوَره!! وإذا صحَّ ذلك فإنه يكشفُ عن ضَعْفِ عَقيدتِهِ، وخُبْثِ دينِهِ.

ومنها أنه لم يكن صادقاً في زُهْدِهِ، بل كان مُنافقاً، وآيةُ ذلك أنَّ عملَهُ كان مناقضاً لقوْلِهِ، فقد كان يَجْمَعُ المالَ ويبخَلُ به، ويكْنِزُهُ ويحْرِصُ عليه، ويعيشُ على استْجداءِ الناس، وكان يَدْعُو غيرَهُ إلى الزُّهْدِ في لَذّاتِ الدُّنيا، ومباهجِ الحياة. وذلك مُفَارِقٌ للزُّهْد الإسلامي، مُوَافِقٌ للزُّهْدِ المَانَوِيِّ، فإن الزَّنادقة من زُهَاد المَانَوِيَّةِ كانوا يُؤمنونَ بأنه ينبغي لهم أنْ يقتاتُوا بما يتصدّق به الناسُ عليهم، وأنْ

---

(1) أبو العتاهية ص: ٢٤٦ — ٢٥١.

يَحْيَوْا من أرزاقِ غيرهم ، قال الجاحظ[1] : «حدثني أبو شُعَيْبٍ القلّالُ ، وهو صُفْريٌّ ، قال : رُهبانُ الزنادقةِ سيَّاحُون ، جعلوا السياحةَ بَدَلَ تَعلُّقِ النُّسطوري في المَطَامير ، ومُقامَ المَلْكانيِّ في الصَّوامع ، ومُقامَ النُّسطوريِّ في المطامير. قال : ولا يَسيحونَ إلاّ أزْواجاً ، ومتى رأيتَ منهم واحداً فالْتفتَّ رأيتَ صاحبه . والسياحةُ عندهم ألّا يبيتَ أحدُهم في منزلٍ ليلتين. قال : ويسيحُونَ على أرْبعِ خصالٍ : على القُدْسِ ، والطُّهْرِ ، والصّدقِ ، والمَسْكنةِ ، فإمَّا المَسْكَنةُ فأنْ يأكُلَ من المسألة ، ومما طابت به أنْفُسُ الناس له حتى لا يأكُلَ إلاّ من كَسْب غيرِهِ الذي عليه غُرْمُهُ ومأْثمُهُ ، وأمَّا الطُّهْرُ فترْكُ الجِماعِ ،وأمَّا الصِّدْقُ فعلى ألّا يكذب.وامّا القُدْسُ فعلى أنْ يكتمَ ذَنْبَهُ ، وإنْ سُئِلَ عنه» .

وأكَّدَ ذلك البيرونيُّ ، إذ يقول[2] : «شَرعَ [ماني] نواميسَ يَفْترضُها الصِّدّيقونَ ، وهم أبرارُ المانوية وزُهَادُهم ، على أنْفُسهم من إيثارِ المَسْكنةِ وقَمْعِ الحِرْص والشّهْوَةِ ، ورفضَ الدنيا والزُّهْدِ فيها ، ومُواصلةِ الصَّوْمِ والتَّصدُّق بما أمْكَنَ ، وتَحْرِيم اقتناءِ شيءٍ ما خَلا قُوتَ يَوْمٍ واحدٍ ، ولباسَ سنةٍ ، وتَرْكِ السِّفادِ ، وإدامةِ التَّطوافِ في الدّنيا للدّعْوَةِ والإرْشادِ» .

وأعْرَضَ بعضُ القدماء عن الخَوْضِ فيما نُسِبَ إلى أبي العتاهية من الزَّنْدقة ، ومنهم الجاحظ ، وابنُ النديم ، والشريفُ المُرْتَضَى ، وهم ممن اهْتَمَّ بالزَّنْدقة ، وأحاطَ بأكثر أعْلَامهَا في المائة الثانية . وأعْرَضَ عن الخوضِ فيه بعضُ من تَرْجَمُوا

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٧ — ٤٥٩ .

(٢) الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٧ .

له ، ولا سيّما المَرْزباني[1] ، وابن خلكان[2] ، وابنُ نُباتة[3] ، وابنُ كثير[4] ، وكأنَّ التُّهْمَةَ لم تَثْبُتْ عندهم ، فتحرَّجوا من الإلمام بها ، والكلام عليها.

ولكنَّ بعضَ مَنْ تَرْجَمُوا له وَقَفُوا عندَ ما يُضَافُ إليه من الزَّنْدقة ، وأبانُوا عن أسْبابه ، وحَدَّدُوا نَوْعَ زَنْدَقته ، ومنهم ابنُ قتيبة ، فهو يقول[5] : «كان جرّاراً ، ويُرْمَى بالزَّنْدقة» . ثم ضَربَ أمثلةً من شِعْرِهِ الذي كُفِّرَ فيه ، وعُدَّ به من الزنادقةِ ، يقول[6] : «ممَّا نُسِبَ فيه إلى الزَّنْدقةِ قَوْلُهُ ، وأشار إلى السماءِ :

إذا ما استَجْزْتَ الشّكَّ في بَعْضِ ما تَرى فما لا تَراهُ الدّهْرُ أمْضَى وأجْوَزُ

وقَوْلُهُ :

يا ربِّ لو أنْسَيْتَنيهَا وهي في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ لم أنْسَهَا

وقولُهُ :

إنَّ المليكَ رآك أحسنَ خَلْقِهِ ورأى جَمَالَكْ
فحذا بِقُدْرةِ نَفْسِهِ حُورَ الجنانِ على مثالكَ

أما البيتُ الأولُ فيدُلُّ على قَوْلِ أبي العتاهية بالدَّهْرِ ، وهو مَذْهَبُ قَوْمٍ وَرَدَ ذِكْرُهم في القرآن الكريم في قَوْلِهِ تعالى : « إنْ هيَ إلاّ حياتُنا الدُّنْيَا نَموتُ ونَحْيا وما

(١) الموشح ص : ٣٩٥ — ٤٠٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٢١٩ — ٢٢٦ .

(٣) سرح العيون ص : ٤٥٦ — ٤٦١ .

(٤) البداية والنهاية ١٠ : ٢٦٥ — ٢٦٦ .

(٥) الشعر والشعراء ص : ٧٩١ .

(٦) الشعر والشعراء ص : ٧٩٤ — ٧٩٥ .

نحنُ بمبْعُوثِين»(المؤمنون : ٣٧) ، وفي قَوْلِهِ تعالى : «وقالوا ما هيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونحْيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ» (الجاثية : ٢٤) . وهو مَذْهَبُ بعض فلاسفة اليونان ، وفي مراثي أبي العتاهية لصديقهِ عليّ بن ثابت ، وهو مِمَّن قُرِفَ بالزَّنْدقة[1] ، ما يُنْبئُ باطّلاعه على آثارِ اليونان ، وأقْوالِ فلاسفتهم ، قال أبو الفرج الأصفهاني[2] : «حَضَرَ أبو العتاهية عليَّ بن ثابتٍ وهو يجودُ بنفسهِ ، فلم يزل مُلتَزِمَهُ حتى فاض ، فلما شُدَّ لحْياهُ بكى طويلاً ، ثم أنشَدَ يقول :

يا شريكي في الخَيْرِ قَرَّبَكَ اللـ ـهُ فنعمَ الشريكُ في الخَيْرِ كُنْتَا
قدْ لَعَمْري حَكَيْتَ لي غُصَصَ الْمَوْ تِ فحرَّكْتَني لها وسَكَنْتَا

ولمَّا دُفِنَ وَقفَ على قَبْرِهِ يَبْكي طويلاً أحرَّ بُكاءٍ ، ويُرَدِّدُ هذه الأبيات :

أَلا مَنْ لي بأُنْسِكَ يا أُخَيَّا ومَنْ لي أنْ أَبُثَّكَ ما لَدَيَّا
طَوَتْكَ خطُوبُ دَهْرِكَ بعدَ نَشْرٍ كذَاكَ خُطُوبُهُ نَشْراً وَطيّا
فَلَوْ نَشَرَتْ قُوَاكَ لي المنايا شَكَوْتُ إليكَ ما صَنَعتْ إليَّا
بكَيْتُكَ يا عليُّ بدَمْعِ عَيْني فما أغْنَى البُكَاءُ عَلَيْكَ شَيّا
وكانتْ في حياتِكَ لي عِظَاتٌ وأنْتَ اليومَ أوْعَظُ مِنكَ حَيَّا»

قال أبو الفرج الأصْفهاني[3] : «هذه المعاني أَخَذَهَا كُلَّهَا أبو العتاهية من كلامِ الفلاسفةِ لمّا حضرُوا تَابوتَ الإسكندر ، وقد أخْرجَ الإسكندرُ لِيُدْفَنَ ، قال بَعْضُهم : كانَ الملكُ أمسِ أهْيَبَ منه اليومَ ، وهو اليوم أوْعَظُ منه أمْسِ . وقال

(١) الفهرست ص : ٤٧٣ .

(٢) الأغاني ٤ : ٤٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ٤٤ ، وانظر الكامل للمبرد ٢ : ١١ .

آخر : سكَنتْ حَرَكَةُ الملكِ في لَذّاته ، وقد حرَّكَنا اليومَ في سُكُونهِ جَزعاً لفقْدِهِ. وهذان المَعْنيان هما اللّذان ذَكَرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار».

وأمَّا الأبياتُ الباقيةُ التي نُسِبَ فيها إلى الزَّنْدقة فهْيَ مما أخذَهُ عليه منصورُ بنُ عَمَّار السُّلمي ، وقدَحَ به في دينهِ ، ومعانيها أقْرَبُ إلى المبالغةِ المُستَقْبحَة.

ومنهم ابنُ المعتز ، فهو يقول[1] : «يُرْمَى بالزَّنْدقةِ مع كثْرةِ أشعارِهِ في الزُّهْدِ والمواعظ وذِكْرِ الموتِ والحَشْرِ والنارِ والجنةِ . والذي يَصِحُّ لي أنه كان ثَنْوِيّاً». ويقول في حديثه عن العتاهية بن أبي العتاهية[2]: «كان أبوهُ خَبيثَ الدِّين ، يذهبُ مَذْهَبَ الثَنْوِيَّةِ . إلاّ أنه كان ناسكَ الظّاهر».

فهو يَجْزمُ بمَانَويَّتِهِ . لأنه كان يُؤمِنُ بالإثْنَيْنِيَّةِ . ويعتقدُ أنه كان ينْتَحِلُ الزُّهْدَ انْتحالاً . لأنه كان يُظهِرُ التّقشُّفَ والصَّلاحَ ، ويُسِرُّ الخُبْثَ والفَسَادَ.

ومنهم أبو الفرج الأصفهاني ، فهو يقول[3] : «أكثرُ شعرِهِ في الزُّهْدِ والأمثال ، وكان قومٌ من أهْلِ عَصْرِهِ يَنْسبُونَهُ إلى القَوْل بمذهب الفلاسفةِ ممن لا يُؤمِنُ بالبعث ، ويَحْتَجون بأن شعرهُ إنما هو في ذِكْرِ المَوْتِ والفناء دُونَ النُّشُورِ والمعاد».

وهو يُرَدِّدُ ما اتَّهمَهُ به منصورُ بنُ عَمَّارِ السُّلميُّ ، ويكَرِّرُ ما رَوَاهُ ابنُ قتيبةَ من أنه نُسِبَ إلى الزَّندقةِ لقَوْلهِ في بعض شعرِهِ بالدَّهْرِيَّة.

ومعنى ذلك أنَّ أهْلَ عَصْرِهِ ومن جاء بَعْدَهم من الأدباء والعلماء يتّفقونَ على إنه

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢٢٨.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٣٦٤.

(٣) الاغاني ٤ : ٢.

إنما رُميَ بالزندقة إمّا لأنه تأثّرَ المانويَّة والآداب الفارسية ، وإمّا لأنه تأثّر الفَلسفةَ اليونانية ، ولا سيما مَذْهبَ الدَّهْرية .

وكان أبو العتاهية في شبابِهِ ماجناً خليعاً ، قال أبو الفرج الأصْفهاني[1] : «كان في أوَّلِ أمرِهِ يتخنَّثُ ، ويَحملُ زاملةَ المُخنَّثينَ» ، وذكرَ أنَّ أبا الشَّمْقمَقِ قال له وقد رآه يَحْمِلُ زاملتهم[2] : «أمثلُكَ يضَعُ نَفْسَهُ هذا الموْضع ، مع سنِّكَ وشِعْرِكَ وقَدْرِكَ ! فقال له : أُريدُ أنْ أتعَلَّمَ كيادَهم ، وأتحَفَّظَ كَلامَهم» !

ولُقِّبَ أبا العتاهية لتهتُّكِهِ وانْحِلاله ، قال أبو الفرج الأصفهاني[3] : «قال المَهْديُّ يوماً لأبي العتاهية : أنت إنسانٌ مُتحذلقٌ[4] مُعتَّهٌ ، فاسْتوت له من ذلك كُنيةٌ (لَقَبٌ) غلبَتْ عليه دون اسْمِهِ وكُنْيتِهِ ، وسارَتْ له في الناس» ، وقال[5] : «كني بأبي العتاهية أن كان يُحِبُّ الشُّهْرَةَ والمجونَ والتَّعتُّهِ» ، وقالَ الخطيبُ البغداديُّ[6] : «أبو العتاهية لَقَبٌ لُقِّبَ به ، لاضطراب كان فيه ، وقيل : بل كانَ يحب المُجُونَ والخلاعة ، فكُنِّيَ لعُتُوِّهِ أبا العتاهية» ، وقال ابن منظور[7] : «أبو العتاهية كُنْيَةٌ ، وأبو العتاهية الشاعرُ المعروفُ ذُكِرَ أنه كان له وَلَدٌ يقالُ له : عتاهية ،

---

(١) الاغاني ٤ : ١ .

(٢) الأغاني ٤ : ٧ .

(٣) الأغاني ٤ : ٢ .

(٤) المتحذلق : المتكيس المتظرف .

(٥) الأغاني ٤ : ٣ .

(٦) تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٠ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٠٩ .

(٧) اللسان : عته .

وقيل : لو كان الأمرُ كذلك لقيل له : أبو عتاهية بغير تَعْريف ، وإنما هو لَقَبٌ له لا كُنْيةٌ ، وكُنْيَتُهُ أبو إسحاق ، ... ، ولُقِّبَ بذلك لأَنَّ المَهْديَّ قال له : أراكَ مُتخلِّطاً مُتعتِّهاً ، وكان قد تَعتَّهَ بجاريةٍ للمهديّ ، واعتُقِلَ بسببها ، ... ، وقيل لُقِّبَ بذلك لأنه كان طويلاً مُضْطَرِباً ، وقيل : لأنه يُرْمَى بالزَّنْدقة».

وقد خالط كبار المجان والخلعاء من شعراء الكوفة مثل والبة بن الحُبَاب[١] ، وأبي الشّمقمق[٢] ، وإسماعيل بن مَعْمر القَراطيسيّ [٣] ، ومسلم بن الوليد [٤] ، ومن شعراءِ البَصْرةِ مثل بشارِ بن بُرْدٍ[٥] ، وسَلْمٍ الخاسر[٦] ، وأبي نواسٍ[٧] ، والحسين بن الضَّحاك[٨] ، وكان يَشْرَبُ معهم ويَفْجُرُ ، ويَلْهُو ويتعهّرُ ، وهل أَبْيَنُ إبانةً عن ذلك من قَوْلِ أبي الفرج الأصفهانيِّ في ترجمته لإسماعيل بن مَعْمرٍ الكوفي[٩] : «كان مألْفاً للشعراءِ ، فكان أبو نواسٍ وأبو العتاهية ومسلمٌ وطبقتُهم يَقْصدونَ مَنْزِلَهُ ، ويجتمعونَ عندَهُ ، ويقْصِفُونَ ، ويَدْعُو لهم القيانَ وغَيْرَهُنَّ من الغلمان ، ويساعدهم[١٠] ».

---

(١) الأغاني ٤ : ١٠ .

(٢) الأغاني ٤ : ٧ ، ٨٧ .

(٣) الأغاني ٢٣ : ١٩٤ .

(٤) الأغاني ٤ : ٢٧ ، ٤١ .

(٥) الأغاني ٤ : ٢٨ ، ٧٢ .

(٦) الأغاني ٤ : ١١ .

(٧) الأغاني ٤ : ١٥ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٢٣ : ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٨) الأغاني ٢٣ : ١٩٥ .

(٩) الأغاني ٢٣ : ١٩٤ .

(١٠) وراجع في ذلك أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٠٨ — ١١٠ ، ١٤٩ — ١٥١ .

وقُذِفَ بعض أولئك الشعراءِ بالزَّنْدقة ، لمُجُونِهم وخَلاعَتِهم ، وشَكِّهم وضَلالتِهم.ومن عجيبِ الأمرِ أنَّ أبا العتاهية لم يُقْذَف بالزَّندقةِ لتخنُّثِهِ وبطالته في صَدْرِ حياتِهِ ، بل قُذِفَ بها بعدَ أنْ فارقَ سيرتَهُ الأولى ، وأقْلَعَ عن اللّهْوِ والمجون ، وكَفَّ عن ارتكابِ الآثام ، وأظْهَرَ النُّسكَ والتَّزهُّدَ ، ولَبِسَ الصُّوفَ وتَقَشَّفَ؟ ! وكأَنَّ مَنْ قَذَفُوه بالزَّنْدقة كانوا يُريدونَ الزَّنْدقةَ الدِّينيةَ لا الزَّنْدقةَ الاجتماعية ، فلم يجدوا الدّليلَ عليها في شعرِهِ الماجنِ ، بل وَجدُوهُ في شِعْرِهِ الزَّاهدِ.

وعلى الرغم من أنَّ أبا العتاهية لم يتخصَّصْ في الزُّهْدِ إلاّ بعدَ أنْ جاوزَ الخمسينَ من عُمْرِهِ ، ونظَمَ في الغزلِ والخَمْرِ والمديح والهجاء والعتابِ والرِّثاءِ شعراً كثيراً ، فإنَّ مُعْظَمَ ما وصل إلينا من شعرِهِ يكاد يكون في الزهد. وكان أبو عمر يوسف بن عبد البرِّ النَّمريُّ القُرطبيُّ المتوفى سنة ثلاثٍ وستين وأربعمائةٍ جَمعَ مِنْ زهدِهِ ديواناً مُفْرداً. وقد اعتمد عليه الأب لويس شيخو في إخراج ديوان أبي العتاهية ، وسَمَّاهُ : الأنوار الزَّاهية في ديوان أبي العتاهية» ، وضَمَّ إليه ما عثر عليه من مقطوعات الشاعرِ وقصائِده في فُنونِ الشعر الأخرى [1].

وفي زُهْدِ أبي العتاهية ما يُشيرُ بقُوَّةٍ إلى أنه كان يَصْدُرُ في بعضِهِ عن تعاليمِ المانويَّة ، وعن فكرةِ الاثنينيَّةِ خاصةً ، وقصيدتُهُ «ذاتُ الأمثال» خيرُ شاهدٍ على ذلك ، فهو يقول فيها [2] :

لِـكُـلِّ شيءٍ مَـعْـدِنٌ وجَوْهَـرُ وأَوْسَطٌ وأصْـغَـرٌ وأكـبَـرُ
مَـنْ لكَ بالمحْضِ وكُلّ مُمتزجْ وسَاوس في الصَّـدْرِ منهُ تَعتَلِجْ

(١) انظر تفصيل ذلك في أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٧٦ — ١٧٨.

(٢) الأغاني ٤ : ٣٧ ، وديوانه ص : ٣٧٦.

وكُلُّ شيءٍ لاحِقٌ بجَوْهَرِهِ أَصْغَرُهُ مُتَّصِلٌ بأكْبَرِهْ
ما زالتِ الدُّنيا لنا دارَ أذَى ممزوجةَ الصَّفْوِ بألْوانِ القَذَى
الخَيْرُ والشَّرُّ بها أزْواجُ لِذا نِتاجٌ ولِذا نِتاجُ
مَنْ لكَ بالمحْضِ وليسَ مَحْضُ يَخْبُثُ بَعْضٌ ويطيبُ بَعْضُ
لِكُلِّ إنسانٍ طَبيعَتانِ خَيْرٌ وشَرٌّ وهما ضِدّانِ
إنَّكَ لو تَسْتَنْشِقُ الشَّحِيحا وَجَدْتَهُ أَنْتَنَ شَيْءٍ ريحَا
والخيرُ والشرُّ إذا ما عُدّا بَيْنَهما بَوْنٌ بَعيدٌ جدّا
عَجِبْتُ حتى غَمَّني السُّكوتُ صِرْتُ كأني حائِرٌ مَبْهُوتُ
كذا قَضَى اللهُ فكيفَ أصْنَعُ الصَّمْتُ إن ضاقَ الكلامُ أوْسَعُ

وكان المانويَّةُ يَعْتَقِدونَ أنَّ العالَمَ مَصْنُوعٌ من أَصْلَيْنِ قَديمَيْنِ أزَلِيَّيْنِ، هما النُّورُ والظُّلْمَةُ، وأنَّ من النُّورِ نَشأَ كلُّ خَيْرٍ، ومن الظُّلْمَةِ نَشأَ كُلُّ شَرٍ، وأنَّ العالمَ بما فيه من عَشْرة أجْناسٍ، خَمْسَةٌ منها خَيْرٌ ونُورٌ، وخَمْسَةٌ منها شرٌّ وظُلْمةٌ، وأنَّ الإنسانَ مُرَكَّبٌ من جميعها على قَدْرِ ما يكونُ في كلِّ إنسانٍ من رُجحانِ أجناس الخَيْرِ على أجْناسِ الشَّرِّ، ورُجْحَانِ أجْناسِ الشَّرِّ على أجْناسِ الخَيْرِ، وأنَّ في كُلِّ حاسةٍ من حَوَاسِّ الإنْسَانِ جِنْساً قائماً بنفسهِ من النَّوعَينِ، مُسْتَقِلّاً عما يُماثِلُهُ في الحواسِّ الأخرىَ، فحاسَّةُ السَّمْعِ جِنْسٌ على حِدَةٍ، والذي في حاسَّةِ البصَرِ من الخَيْرِ والنُّورِ لا يُعِينُ الذي في حاسة السَّمْعِ من الخَيْرِ، ولكنه لا يُضادُّهُ، ولا يُفَاسِدُهُ، ولا يَمنَعُهُ، فهو لا يُعينُهُ لمكانِ الخلافِ والجنس، ولا يُعينُ عليه لأنه ليس ضدّاً. وأجْناسُ الشرِّ خِلافٌ لأجناسِ الشرِّ، ضِدٌّ لأجناسِ الخَيْرِ. وأجناسُ الخَيْرِ يُخالِفُ بَعْضُهَا بَعْضاً ولا يضاده، وأنَّ التَّعاوُنَ والتَّآدي لا يَقَعُ بين مُختلفِهَا، ولا بينَ مُتضادها، وإنما يقع بين مُتَّفقها، وأنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ في العالم امتزجا امتزاجاً تاماً، وأن امتزاجها شرٌّ كبيرٌ يجبُ الخلاصُ منه، وأنَّ الرَّهبنةَ والامتناع عن الزواج،

وتَحْريمَ النِّكاح مما يُقَصِّرُ الشَّقَاءَ، ويُقَلِّلُ العناءَ، ويَقْضي على البلاءِ، ويُقَرِّبُ الفَنَاءَ[1].

ومعاني الأبيات السابقة مُسْتقاةٌ من التّعاليم الثَّنْوِيَّةِ المانويَّة. فهو يتحدَّثُ فيها عن الخَيْرِ والشرِّ، ويَرَى أنَّ العالمَ مركَّبٌ منهما، وأنَّ كلَّ شيءٍ مصيرُهُ إليهما، ويُقَرِّرُ أنهما قد اخْتلطا، وأنه ليس في العالم شيءٌ خالصٌ، وأنَّ الإنسان مُكوَّنٌ من أمْشَاجٍ من هذين العُنْصُرينِ المُتَضادّين، وأنْ اخْتلاطَهما مَلأَ العالَم مَصائبَ ومفاسدَ، ومهالكَ وشدائدَ، وأنَّ الإنسانَ يتجرّعُ الحياةَ هُمُوماً وكُرُوباً، وآلاماً وأحْزاناً.

وهو يُكَرِّرُ هذه المعاني في زُهْدِيّاتهِ مراراً، مُسْتلْهِماً لها ولِغَيْرِهَا من التّعاليمِ الثَّنوِيَّةِ المانَويَّةِ، فهو يقول[2]:

الـخَـيْـرُ والشرُّ في التّصْوير بَيْنَهما لـو صُوِّرا لَكَ بَوْنٌ غَيْرُ مُؤْتَلف

فهو يَحكي ما يعْتقِدُهُ المانويَّةُ من أنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ عُنْصُرانِ مُتضادّانِ.

ويقول[3]:

لم تَقْتَحِمْ بي دَوَاعي النَّفْسِ مَعْصيةً إلاّ وبَيْني وبيـنَ الـنُّورِ ظَـلْماءُ

فهو يتأثَّرُ ما يَعْتَنِقُهُ المانويَّةُ من أنَّ الخَيْرَ يَنْشأُ من النُّورِ، والشر يَنْشأُ من الظُّلْمَةِ،

---

(١) انظر تعاليم ماني في الحيوان ٤ : ٤٤١ — ٤٤٢، والفهرست ص : ٤٥٦ — ٤٧٤، والآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٧ — ٢٠٩، والملل والنحل ١ : ٢٢٤ — ٢٢٩، وفجر الإسلام ص : ١٠٤، والعصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص : ٧٩.

(٢) ديوانه ص : ١٦٥.

(٣) ديوانه ص : ١.

بل هو ينقُلُ ذلك نَقْلاً دقيقاً ، إذْ يَعْتَرِفُ بأنه لم يَقْتَرِف سيِّئةً إلاّ إذا حَالَتِ الظُّلْمَةُ بينَهُ وبينَ النُّورِ ، وحجَبَتْهُ عنه !

ويقول [١] :

الخَيْرُ والشَّرُّ مُزدادٌ ومُنْتَقِصٌ فالخيرُ مُنْتَقِصٌ والشَّرُّ مُزْدادُ
فالخيرُ ليس بمَوْلُودٍ لَهُ ولدٌ لكنْ لهُ مِنْ بنات الشرِّ أَوْلادُ

فهو يستَوْحي ما يُؤْمِنُ به المَانويَّةُ من أنَّ امتزاجَ النّورِ والظُّلْمَةِ شرٌّ مُسْتَطِيرٌ ، وأنَّ العالَمَ قد فشا فيهِ الشرُّ وغَلَبَ عليه بسببِ امْتزاج هذين العُنْصُرينِ المُتَضادَّيْن . إذ يُرَدِّدُ أنَّ الخَيْرَ يتضاءلُ وينْحَسِرُ ، لأنه عَقيمٌ لا يَلِدُ خَيْراً ، وأنَّ الشرَّ ينمُو ويتكاثَرُ ، لأنه يَلِدُ شرًّا ، ولأنَّ الخَيْرَ يَلِدُ شُروراً ! !

وهو يَنْظُرُ الى الإسلام والعالِمِ والعبادِ وأعْمَالهم من خلال المَفَاهِيمِ الثَّنْوِيَّةِ المانويَّة [٢] ، فقد كان يَذْهَبُ إلى أنَّ الله خَلَقَ جَوْهَرَيْنِ مُتضادَّينِ ، وركَّبَ العالم منهما ، وأنه سيعيدُ كُلَّ شيءٍ إليهما ، قبلَ أنْ تَبْلَى الأَجْرَامُ والأجسامُ ، وكأن يَذهبُ إلى أنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ لا يَمْلِكُ من أمْرِهِ شيئاً [٣] ، واستمع إليه يقول [٤] :

أرَى الناسَ في الدنيا مُعافًى ومُبتلى وما زالَ حُكْمُ اللهِ في الأرضِ مُرْسَلا
مضَى في جميعِ الناسِ سابقُ عِلْمِهِ وفصَّلَهُ من حيثُ شاءَ وَوَصَّلا
ولَسْنَا على حُلْوِ القَضَاءِ ومُرِّهِ نَرَى حَكَماً فينا منَ اللهِ أعْدَلا

(١) ديوانه ص : ٣٧٤ .

(٢) انظر أبوالعتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ٢٤٤ .

(٣) الأغاني ٤ : ٥ .

(٤) ديوانه ص : ٢١١ .

بَلا خَلْقَهُ بالخيْرِ والشّرِّ فِتنَةً لِيَرْغَبَ عَمَّا في يَدَيْهِ ويسْألَا
كَفَى عِبْرَةً أني وأنَّكَ يا أخي نُصَرَّفُ تَصْرِيفاً لَطيفاً ونُبْتَلَى

فهو يُقِرُّ بوَحْدانيَّةِ اللهِ، ولكنَّ فِكْرَةَ الاثْنَيْنِيَّةِ لا تُفَارِقُهُ ولا تَغيبُ عن خاطِره، بل تَسْتبدُّ به وتُلحُّ عليه، فيذكرُ أنَّ اللهَ أوْجَدَ الخيْرَ والشرَّ، وامتحنَ الناسَ بهما، وأنَّ الناسَ صِنفان: صحيحٌ وسَقيمٌ، وأنَّ القضاءَ نَوْعانِ: حُلْوٌ ومُرٌّ، وأنَّ الناسَ مَغْلُوبُونَ مَقْهورونَ، يُصْرَفُونَ عما يُحِبُّونَ، ويُحْمَلُونَ على ما يَكْرَهُونَ!

والزُّهْدُ الذي يَدْعُو الناسَ إليه، ويُرَغِّبهم فيه، ويُغْرِيهم به أقْرَبُ إلى الزُّهْدِ عندَ رُهْبانِ المانويَّةْ، فهو يَحُضُّ على اعتزالِ الحياةِ، والاقْتصارِ على القليلِ، والرِّضا بالحِرْمان، بمثْلِ قوْله [1]:

رغيفُ خُبْزٍ يابسٍ تأكُلُهُ في زَاويَهْ
وكُوزُ ماءٍ باردٍ تَشْرَبُهُ مِنْ صافيهْ
وغُرْفَةٌ ضيِّقَةٌ نَفْسُكَ فيها خاليَهْ
أو مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ عن الوَرى في ناحِيَهْ
تَدْرُسُ فيه دَفْتراً مُسْتَنِداً بساريَهْ
مُعْتَبِراً بمَنْ مضَى مِنَ القُرُونِ الخاليَهْ
خَيْرٌ من السّاعاتِ في فَيْءِ القُصُورِ العاليَهْ

فهو يُفَضِّلُ الكفافَ على التَّرفِ، والبُؤس على النَّعيمِ، ويَسْتَغْني من طَيِّباتِ الحياةِ برَغيفٍ يابسٍ يَسُدُّ به رَمَقَهُ، وبكُوزِ ماءٍ باردٍ يَرْوي به ظَمأَهُ. ويَسْتَحْسِنُ أنْ يَنقطِعَ عن الناسِ، ويأوي إلى حُجْرةٍ ضيقةٍ أو مَسْجدٍ بمكانٍ قَصِيٍّ يتفرَّغُ فيه للعبادةِ

(١) ديوانه ص: ٣٠٧.

والقراءة، والتأمُّل والتّفكير في الكَوْنِ والخَلْقِ، والاعتبارِ بمصيرِ مَن سَبَقَ من الأُمم والأقوام. وكل أولئك من مَعالم الزُّهدِ عند رُهْبان المانويَّة[1].

ولذلك يَرَى بعضُ الباحثينَ أنَّ زَنْدقةَ أبي العتاهية زَنْدَقَةٌ دينيةٌ خالصةٌ، لأنه كان يُؤمنُ بالإثنَيْنِيَّةِ، ويدينُ بالمانويَّةِ، ومنهم الدكتور محمد بديع شريف، إذ يقول[2]: «بدأ بالغزلِ واستمرَّ عليه حيناً من الدّهْرِ، ثم تركَهُ ومالَ إلى الزُّهْدِ، فاتّهمهُ الناسُ بالزندقةِ، وقد ترجع هذه التُّهْمةُ إلى ما انتشَرَ في تضاعيفِ شعرهِ من المَعاني الدّالةِ على الإثنَيْنِيَّةِ وإلى هذا الزُّهْدِ الذي هو مَبْدأٌ أصيلٌ من مبادئ المانويَّة، وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البَعْثَ في شعره، وأنَّ شأنَهُ شأنُ الزَّنادقة من شعراء هذا العَصْر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحَوَاسُّ، وأنه كان يقول: «إذا كنتَ تَشُكُّ فيمن تراهُ فكيف بمن لا تَقعُ عَيْنُكَ عليه».

وهو يرى أنه كانَ من الشعوبيَّةِ، وأن شُعُوبيتَهُ هي التي قَادَتْهُ إلى اعْتِنَاقِ المانويَّةِ، وأنه اتَّخذَ من الزهدِ وسيلةً إلى تَدْميرِ الحياةِ العَربيَّةِ الإسلاميَّةِ، إذ يقول[3]: «إذا كان أبو نُواسٍ فتحَ للناس باباً جديداً في الغزلِ والإباحةِ والبراعةِ في وَصْفِ الخمر، فإنَّ أبا العتاهيةَ فتحَ لهم باباً آخر في الزُّهْدِ والكَفِّ عن الحياةِ، وأصبحَ أثرُ شعرِهِ واضحاً في كثيرٍ من تعاليمِ النِّحلِ التي نَبطَتْ في الحياةِ العربية. وليس الضَّرَرُ الذي يَصِلُ من شعر أبي نواسٍ إلى النفوس، فيُحَلِّلَهَا بأكثر من هذا الضرر الذي يَقْتُلُ الطموحَ، ويصرفُ الأنفسَ عن الحياة، وينقلُ الأمةَ من أُفْقِهَا

(1) انظر الحيوان ٤ : ٤٥٩، والآثار الباقية عن القرون الخالية ص: ٢٠٧.

(2) الصراع بين الموالي والعرب ص: ٩٨.

(3) الصراع بين الموالي والعرب ص: ١٠٢.

الواسع الذي يَنْتَظِمُ الإنسانيةَ ، إلى أفقٍ ضَيِّقٍ فيه عُكُوفٌ وانطواءٌ تَسْعَى المانويةُ إليه » .

ومنهم الدكتور محمد محمود الدّش ، وقد درَسَ حياةَ أبي العتاهية وشعْره دَرْساً دقيقاً ، وبحثَ زَنْدَقَتَهُ وزُهْدَهُ بَحْثاً عميقاً . وانْتهى إلى أنه كان يُبْطِنُ المانويَّة ، وأنه اصطَنَعَ الزُّهْدَ ليَستَّرَ به زَندقته ، وأنه كان يَرُومُ طَمْسَ الشريعةِ الاسلاميَّةِ ، وإضعافَ الأمةِ العَربيَّةِ ، وبَعثَ الديانةِ المانويَّة ، وإقامة الدولةِ الكِسْرَوِيَّةِ ، إذ يقول[1] : « الواقعُ أن أبا العتاهية أراد أن يتَّخذَ من الزُّهْدِ وسيلةً إلى هَدَفَيْنِ : الأول دَفْعُ الاتِّهام بالزندقةِ الذي كان يلاحِقُهُ ، ويكاد يأخذ برقبتهِ إلى عُقُوبةِ القَتْلِ ، والآخر إشاعةُ نَفْسِ المبادئ التي كان يُشيعُهَا زُملاؤُهُ عن طريقِ الخلاعةِ والمجون . وإذا كانت هذه الخلاعةُ وذلك المجونُ من ألوانِ الفسادِ التي يَرْتَادُها الخاصةُ والأثرياءُ ، فإنَّ أبا العتاهية أراد أنْ يتخذَ طريقَهُ إلى العامةِ الذين لا يجدون الوسيلةَ الى حانات الخمورِ وبُيوتِ المجون والجواري والغلمان لأنهم فقراء ، وبذلك ينشرُ بينهم الزهدَ المانويَّ الذي يقوم على المسْكنةِ والمذلَّة والخُمولِ والسَّلْبيَّةِ في الحياة ، وهي الأمورُ التي يَرْفُضُهَا الإسلامُ كُلَّ الرَّفْضِ ، إذْ يأْبَى على الإنسانِ إلَّا أنْ يكونَ إيجابياً ساعياً في سبيلِ الرِّزْقِ والخيرِ والحياة . ولسنا نَشُكُّ في أنَّ الخاصةَ من أولي الأمرِ كالبرامكةِ وبني سَهْلٍ وغيرهم شجعوا على هذا الاتِّجاهِ الجديدِ الذي أرادَهُ أبو العتاهية من الزُّهْدِ ، ليُشيعُوا مذاهِبَهم في الزندقةِ من ناحيةٍ ، وليَسْتكينَ الشعبُ في استخذاءٍ واستِنامةٍ ، وبذلك يَضْمنونَ عَدَمَ ثورتِهِ من ناحيةٍ أخرى » .

ويَرَى الدكتور محمد جابر عبد العال أنَّ أبا العتاهية لم يَصْدُرْ في زُهْدِهِ عن

---

(١) أبو العتاهية ص : ١٣٦ .

مَصْدَرٍ أجْنَبيٍّ واحدٍ ، بل صَدَرَ فيه عن مصادِرَ مُتعدِّدة ، أهَمُّهَا المانويَّةُ والمذاهبُ الفَلْسفيةُ اليونانيةُ والرَّهْبنةُ المسيحيةُ[1] .

ويعتقدُ جُولْدتسيهر أنه تأثَّرَ البُوذيَّةَ تأثُّراً قَويّاً ، واسْتدلَّ على ذلك بقوْلهِ[2] :

يا مَنْ تَشرّفَ بالدُّنيا وزينتِها ليسَ التّشرُّفَ رَفْعَ الطّينِ بالطّينِ
إذا أرَدْتَ شريفَ الناسِ كُلِّهِم فانْظُرْ إلى مَلِكٍ في زيٍّ مِسْكينِ

فقد استَظْهَرَ منه أنَّ أبا العتاهيةِ يعني بُوذَا ، وهو ابنُ مَلِكٍ زَهدَ في المُلْكِ ، وساحَ في الدنيا ، واتَّخذَ ذلك سبباً إلى الرّبْطِ بين زُهْدِهِ وزُهْدِ بُوذا[3] . وهو يبالغ في تَصْويرِ أثر البُوذيةِ في التَّصوُّفِ الاسلاميِّ[4] . وقد استَبْعدَ نيكلسون المعنى الذي استظهرَهُ جولدتسيهر ، وأنكر العلاقةَ بينه وبين بُوذا ، ورجّح أن قَوْلَ أبي العتاهية « فيه رَفْعٌ للرَّجُلِ الزّاهدِ فَوْقَ مَنْ سواه دونَ إشارةٍ مُعَيَّنةٍ إلى شَخْصٍ[5] » .

وقد بَرّأَ فريقٌ من الباحثين أبا العتاهية من الزندقةِ ، ومنهم أحمد أمين ، فهو يميلُ إلى أن العداوةَ بينه وبين خُصُومه هي التي دَفَعَتْهُم إلى اتِّهامِهِ بالزَّنْدقة[6] .

ومنهم محمد أحمد برانق ، فهو يقول[7] : « لئن كان أبو العتاهية زِنْديقاً حقًّا لما كان يستطيع أنْ يُظْهِرَ ذلك ، وخلفاءُ المسلمين أولياءُ نِعْمتِهِ ، ومُقَدِّمُوهُ في مجالسهم ، ومُحِبُّو شعرِهِ ، ومانحوهُ جوائِزَهم » ! ويقول[8] : « خلاصة القَوْلِ في أبي العتاهية

---

(١) حركات الشيعة المتطرفين ص : ١٤٥ ، ١٥٧ ، وانظر تاريخ الأدب العربي ، لبروكلمان ٢ : ٣٥.

(٢) ديوانه ص : ٢٧٤.

(٣) العقيدة والشريعة ص : ١٤٢.

(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص : ٣ ، والعصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٨٧.

(٥) تاريخ الأدب العباسي ص : ٧٢.

(٦) ضحى الإسلام ١ : ١٥٦.

(٧) أبو العتاهية ص : ٢٧.

(٨) أبو العتاهية ص : ٣١.

أنه ما كان زنديقاً ، وما أظهرَ الزندقةَ ، وما فَعَلَ فِعْلَ المُتَزَنْدِقِينَ ، وما كان للرجل ، وهو نديمُ الخلفاءِ وسَميرُهم والمقربُ إليهم أنْ يتزَنْدَقَ في رِحَابِهم» ! !

ومنهم أنيس المقدسي ، فهو يقول بعد أنْ أوْردَ الأبياتَ التي نُسِبَ فيها أبو العتاهية إلى الزندقة[1] : «ليس في هذه الأبيات عند التحقيق غير مبالغاتٍ خياليةٍ قد تجري على لسانِ المؤمن لتقرير معنًى شعريٍّ أو ايضاحه» .

ومنهم الدكتور محمد مصطفى هدارة ، فهو يقول بعدَ أنْ ساق المشهورَ من أقوالِ القدماء والمحدثين وآرائهم في زندقة أبي العتاهية وناقشها[2] : «نحن نؤمن إيماناً وثيقاً بأنّ أبا العتاهية ليس زنديقاً ولا كافراً ، ولكنه يؤمن إيماناً لا يتطرق إليه الشَّكُّ ، وكُلُّ ما في الأمر أنه رجلٌ عاش وسطَ تياراتٍ من الفلسفاتِ المختلفة والمذاهب المتباينة ، فتأثَّر بها لا تأثر الزنديق ولكن تأثُّرَ المؤمن ، فهو يستخدم ما في الثَّنْوِيَّةِ من فكرة الخيرِ والشرِ لتوضيحِ تيَّارهما في نفسِ الإنسانِ وفي العالم كله . ولكنه لم يتعدّ هذه الحدودَ ، ولم يجعل لأيهما سلْطاناً . وإنما جعل الأمر كله بيد الإله الأوْحَد ، وبذلك لم يتعدَّ حدودَ الإسلام . ومما لا شَكَّ فيهِ أنه تأثر بالفَلسفةِ اليونانية أيضاً ، وظهرَ أثرُ ذاكِ في شعره ، ولكن هذه الفلسفة كانت وسيلةً في يده لإدْراكِ بعض ظواهرِ الكَوْنِ ووصفها ، ولم تكن غايةً للشكِ والإلْحاد» .

فهل كان أبو العتاهية زنديقاً ؟ وما نَوْعُ زَنْدقته ؟ يبدو من مراجعة أخبارِهِ وأشعارِهِ أنه كان بصيراً بالمانوية ، خبيراً بسيرةِ رُهبانها ، وأنه استمدَّ منها في زهدِهِ استمداداً مباشراً[3] . ويبدو منها أنه كان محيطاً بالآدابِ الفارسية ، وأنه نقل عنها في حِكمه

---

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص : ١١٤ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص : ٢٦٩ .

(٣) أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٢٤ ، ٢٤٢ .

وأمثالِهِ نَقْلاً كثيراً[1] . ويبدو منها أنه كان مُلِمًّا بالرَّهبنَة المسيحية ، وأنه خَضَعَ لها في زُهْدِهِ خُضوعاً قليلاً[2] . ويبدو منها أنه كان عارفاً بالبُوذية ، وأنه تأثَّرها في زُهْدِهِ تأثُّراً ضَئيلاً[3]. ويبدو منها أنه كان مُطّلعاً على بعض المذاهب الفلسفية اليونانية ، ولاسيما مَذْهَبُ الدَّهْرية ، وأنه صَدَرَ عنها في شَكِّهِ صُدوراً مَحْدوداً[4] . ومن المعلوم أنَّ المانوية مزاجٌ من المجوسيَّةِ والمسيحيَّةِ والبُوذِيَّةِ ، وما أخذته المانويةُ عن هذه الديانات ، وما انْفردتْ به عنها ظاهرٌ في زُهْدِ أبي العتاهية ، بَيِّنٌ فيه ، مثل الإثْنينيّة التي أخذتها عن المجوسيّة ، والرّهبنة التي أخذتها عن المسيحيّة والبُوذيَّةِ ، والتّشاؤم الذي استقلَّتْ به عنها . ولذلك كان سلطانُ المانويَّةِ مُستحكماً في نَفْسِهِ ، مُستفيضاً في زُهْدِهِ[5] .

ولم يَنْهَلْ أبو العتاهية من المنابع الفكرية والأدبية والدينية الأجنبيةِ من فارسيةٍ وهنديةٍ ومسيحيةٍ ويونانيةٍ فحسب ، بل نَهَلَ أيضاً من المنابع الفكرية والأدبية والدينية العربية الإسلامية ، فقد اختلف إلى حلقات المتكلمين في الكوفة ، ووقف على مذاهب أصحاب المقالات كالزّيدية البترية[6] ، والجَبْريَّة[7] وتَرَدَّدَ إلى مجالس العلماء ، فحفظَ الشعرَ ، وأتقَنَ العربيةَ ، وقرأ القرآن . وأصاب أطرافاً من

---

(1) أبو العتاهية . للدكتور محمد محمود الدش ص : ٧٢ . والعصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٤٤ .

(2) حركات الشيعة المتطرفين ص : ١٦١ ، ١٧٣ .

(3) أبو العتاهية للدكتور محمد محمود الدش ص : ٦٨ .

(4) حركات الشيعة المتطرفين ص : ١٤٧ .

(5) أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٣٣ ، ١٣٩ .

(6) الأغاني ٤ : ٦ ، وسرح العيون ص : ٤٥٧ .

(7) الأغاني ٤ : ٦ ، وسرح العيون ص : ٤٥٧ .

الحديث ، وروى شيئاً من أقوال البلغاء والحكماء المأثورة[1] . وفي زَهْدِهِ وحِكَمِهِ وأمثالِهِ ما يدل على ذلك ، وقد حَلَّلَ أبو العباس المبرد إحدى مَواعظه ، وأبان عن استعارته لكثيرٍ من معانيها من الحديث الشريف ، ومن كلام علي بن أبي طالب ، والحسن البَصْري ، ومن حِكَمِ لقمان ، ومن شعر الخليل بن أحمد ، وهي تجري على هذه الشاكلة[2] :

يا عجباً للناس لو فكَّرُوا وحاسَبُوا أنْفُسَهُمْ أَبْصَرُوا
وعَبَرُوا الدنيا إلى غَيْرِهَا فإنَّما الدنيا لهم مَعْبَرُ
الخيرُ مما ليس يَخْفَى هو الـ مَعْرُوفُ والشَّرُّ هو المُنْكَرُ
والموعدُ الموت وما بعدَهُ الـ حشْرُ فذاك المَوْعِدُ الأكْبَرُ
لا فَخْرَ إلاّ فَخْرُ أهْلِ التُّقَى غداً إذا ضَمَّهُمُ المَحْشَرُ
ليَعْلَمنَّ الناسُ أنَّ التُّقَى والبِرَّ كانا خَيْرَ ما يُذْخَرُ
عجبتُ للإنسانِ في فَخْرِهِ وهو غداً في قَبْرِهِ يُقْبَرُ
ما بالُ مَنْ أوَّلُهُ نُطفةٌ وجيفَةٌ آخِرُهُ يَفْخَرُ
أصبح لا يَمْلِكُ تَقْديمَ ما يَرْجُو ولا تأخيرَ ما يَحْذَرُ
وأصبحَ الأمْرُ إلى غيرِهِ في كُلِّ ما يُقْضَى وما يُقْدَرُ

يقول[3] : «أمَّا قَوْلُهُ :

يا عجباً للناسِ لو فكَّروا وحَاسَبُوا أنْفُسَهم أبْصَروا

---

(1) أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١١٩ ، والعصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٣٨ .

(2) الكامل ٢ : ١١ ، وديوانه ص : ١٠٣ .

(3) الكامل ٢ : ١٢ — ١٤ .

فمأخوذٌ من قولهم : الفِكْرَةُ مرآةٌ تُرِيكَ حَسَنَكَ من قَبِيحِكَ ، ومن قَوْلِ لقمانَ لابنه : يا بُنَيَّ ، لا يَنْبغي لعاقلٍ أنْ يُخْلِيَ نَفْسَهُ من أربعةِ أوقاتٍ ، فَوَقْتٌ منها يُناجي فيه ربَّه ، ووَقْتٌ يحاسبُ فيه نَفْسَهُ ، ووقتٌ يكسبُ فيه لِمعاشِه ، ووَقْتٌ يُخَلِّي فيه بين نَفْسِهِ وبين لَذَّاتِهَا ، لِيَسْتعينَ بذلك على سائر الأوقات.

وَقَوْلُهُ :

وعَبَروا الدنيا إلى غَيْرِهَا فإنما الدّنيا لهمْ مَعْبَرُ

مأخوذٌ من قول الحسن : اجْعَلِ الدنيا كالقَنْطرةِ تَجُوزُ عليها ولا تَعْمُرهَا .

وَقَوْلُهُ :

الخيرُ ممّا ليسَ يَخْفَى هو الـ مَعْرُوفُ والشرُّ هو المُنكَرُ

مأخوذٌ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه : «يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيتَ في حثَالةٍ من الناسِ مَرِجَتْ عُهُودُهم وأمَانَاتُهم ، وصار الناسُ هكذا» ، وشبَّكَ بين أصابعِه ، فقلت : مُرْني يا رسولَ الله ، فقال : خُذْ ما عَرفْتَ ، ودَعْ ما أنْكَرْتَ ، وعليكَ بِخُوَيصةِ نَفْسِكَ ، وإياكَ وعَوَامَّهَا» .

وقولُهُ :

لَيَعْلَمنَّ الناسُ أنَّ التُّقَى والبِرَّ كانا خَيْرَ ما يُذْخَرُ

مأخوذٌ من قَوْلِ أبي هُريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسَلَّمَ قال : «إذا حُشِرَ الناسُ في صعيدٍ واحدٍ ، نادَى مُنادٍ من قِبَلِ العَرْشِ : لَيَعْلَمَنَّ أهْلُ المَوقفِ مَنْ أهْلُ الكرم

اليومَ؟ ليقم المُتَّقُونَ! ثم تَلا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أكرَمكُمْ عند الله أتْقاكُمْ» (الحجرات: ١٣).

وقَوْلُهُ:

مـا بـالُ مَنْ أَوَّلُـهُ نُـطْـفَـةٌ وجـيـفَـةٌ آخِـرُهُ يَـفْـخَـرُ!

مأخوذٌ من قَوْلِ علي بن أبي طالبٍ رضيَ الله عنه: وما ابنُ آدمَ والفَخْر!! وإنما أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وآخِرُهُ جِيفَةٌ، لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَه».

ولو قال قائلٌ: إنَّ أقربَ ما أخذ منه أبو العتاهية:

لـيَـعْـلَـمَنَّ الـناسُ أنّ الـتُّـقَى والـبِـرَّ كـانـا خَـيْـرَ ما يُـذْخَرُ

من قول الخليل بن أحمد:

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذَّخائِرِ لم تَجِدْ ذُخْـراً يـكونُ كَصالحِ الأَعْمالِ[1]

لكانَ قد قال قَوْلاً»

وهو يَصْدُرُ في بعض معاني زُهْدِهِ ومواعِظِهِ عن رُوحِ الاسْلامِ، ويَسْتَقيها من القرآن الكريم، كقوله في إحدى مَواعِظِهِ[2]:

يـا عجباً كُلُّنا يَحِيدُ عن الْـ ـحَـيْـنِ وكُـلٌّ لـحَـيْـنِـهِ لاقي

(١) المشهور أنَّ البيت للأخطل التغلبي. (انظر ديوانه ص: ١٥٨).

(٢) البيان والتبيين ٣: ١٢١.

كأنَّ حَيّاً قَدْ قامَ نادِبُهُ والْتفَّتِ الساقُ منهُ بالساقِ[1]
واستَلَّ منه حياتَهُ مَلَكُ الـ ـمَوْتِ خَفيًّا وقيل: مَنْ رَاقِ

والشَّطْرُ الثاني من البيت الثاني مأخوذٌ من قوله تعالى: «والْتَفَّتِ السّاقُ بالسّاقِ». (القيامة: ٢٩).

وهو يُقِرُّ في بعضها بوَحْدانيّةِ الله، ويَدْفَعُ ما اتُّهِمَ به من الزَّنْدقةِ، قال أبو الفرج الأصفهاني، قال الخليل بن أسدٍ النُّوشَجاني[2]: «جاءنا أبو العتاهية إلى مَنْزلنا فقال: زعمَ الناسُ أني زنديقٌ، واللهِ ما ديني إلاَّ التَّوْحيدُ. فَقُلْنا له: فَقُلْ شيئاً نتحدَّثُ به عنك، فقال:

أَلا إنَّنا كُلَّنا بائدُ وأَيُّ بني آدمٍ خالدُ
وبَدْؤُهُمُ كانَ مِنْ رَبِّهِمْ وكُلٌّ إلى رَبِّهِ عائدُ
فيا عجباً كيفَ يُعْصَى الإلـ ـهُ أمْ كيفَ يَجْحدُهُ الجاحِدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ وَاحِدُ»

وفيما رواهُ الخطيبُ البغدادي أن الرشيدَ قال لأبي العتاهية[3]: «الناسُ يَزْعمونَ أنك زِنْديقٌ! فقال: يا سيِّدي، كيفَ أكون زنديقاً وأنا القائل:

أيا عَجَبي كيفَ يُعْصَى الإلـ ـهُ أمْ كيفَ يَجْحدُهُ الجَاحِدُ
وللهِ في كُلِّ تَحْريكةٍ وفي كل تَسْكينةٍ شاهدُ
وفي كُلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحدُ».

---

(١) التفت الساق بالساق: فقدت الحركة.

(٢) الأغاني ٤: ٣٥.

(٣) تاريخ بغداد ٦: ٢٥٣.

وعلى أنَّ محمد خلف الله يُوافِقُ بعضَ الباحثين مثل جُولدتسيهر ونيكلسون وأحمد أمين «في أنَّ أبا العتاهية تأثَّر بمؤثرات أجنبيةٍ في نَزْعته الزُّهْديةِ ، وأنَّ روحَ هذه النزعةِ لم تكنْ إسْلاميةً صِرْفةً[1] » ، فإنه يَرَى أنَّ معالمَ هذه المؤثّراتِ كانت ضعيفةً في شعر أبي العتاهية بعامةٍ ، وهو يَحْتَجُّ لذلك ببعض الرواياتِ التي تشير إلى أن أبا العتاهية كان قليلَ المَعْرفة ، ضَحْل الثقافةِ ، ويُرَجِّحُ أنه استَلْهَمَ زُهْدَهُ من فُروعِ الثقافةِ العربية الإسلامية ، يقول[2] : «ليس من شَكٍّ في أنَّ أبا العتاهية تَعَرَّضَ لأمثالِ تلك المؤثراتِ بحكم بيئتِه وثقافةِ عَصْرِهِ ، وما كان في ذلك العَصْرِ من تَسرُّبِ الثقافاتِ الهِنْديَّة والفارسيَّةِ واليونانيةِ إلى المجتمع الإسلاميِّ من طرقٍ مباشرةٍ وغير مباشرةٍ. ولكن ضآلة نتائج هذه المؤثراتِ في شعر أبي العتاهية تَجْعلنا أمْيَلَ إلى الْتِماسِ مصادر تفكيره الزُّهْدي في جَداول الحياة الإسلامية العربية المشتركة . ويُقَوِّي هذا المَيْلَ عندنا أنَّ الرَّجُلَ لم يكن معروفاً بتَوسُّعٍ في ثقافةٍ ، ولا عُمْقٍ في تَأمُّلٍ ، ولا انْصراف إلى تَفَلْسُفٍ ، ولم يُعْرَفْ عنه أنه شارك مشاركةً جديَّةً في مناقشةٍ مَذْهبيَّةٍ أو دَعْوةٍ دينيةٍ. وهذه الناحيةُ فيه لم تَفُتْ مُعَاصريه ، فجارُهُ يقولُ عنه فيما يروي صاحبُ الأغاني[3] : إنه كان من أقلِّ الناسِ معرفةً . وقال له مرةً بشر المَرِّيسي[4] : يا أبا اسحاق ، لا تُصَلِّ خَلْفَ فلانٍ جارك وإمام مسجدكم فإنه مُشَبِّهٌ. فقال أبو العتاهية : كلّا ! إنّه قرأ بنا البارحةَ «قُلْ هو اللهُ أحَدٌ» ، كأنما يَظُنُّ شاعِرُنا أنَّ المُشَبِّهَ لا يقرأ : «قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ» ! ! ويذكر الجاحظُ[5] أنَّ أبا العتاهية أرادَ مرةً أنْ

---

(١) دراسات في الأدب الإسلامي ص : ٩٧.

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي ص : ٩٨.

(٣) الاغاني ٤ : ٨٠.

(٤) أصْلُ الخبر في الأغاني ٤ : ٨٠.

(٥) أصْلُ الخبر في الاغاني ٤ : ٦ ، وسرح العيون ص : ٤٥٧.

يناقش ثمامةَ بن أشْرس بين يَدَيْ المأمون، فقال له المأمون: عليك بشعرك! فألحَّ على الخليفة أن يأذَنَ له في مُسَاءَلةِ ثمامة، فأذن، فألْقمَهُ ثمامَةُ حجراً. فضَحِكَ المأمون، وقال له: أَلَمْ أَقُلْ لكَ أنْ تَشْتَغِلَ بشعرك وتَدَعَ ما ليس من عَمَلِك»!

ولكنه لم يُحَدِّدْ «جداول الحياة الإسلامية العربية المشتركة» التي يميلُ إلى أن أبا العتاهية استَقَى زُهْدَهُ منها، ولم يُوَضِّحْ آثارَهَا في زُهْدِهِ!

وقد نَقَضَ الدكتور محمد محمود الدَّش ما يُرْوَى من أنَّ ابا العتاهية كان ضئيلَ المعرفةِ، قليلَ الثقافة، وأبان عن اطّلاعه على معارفِ عَصْرِهِ الفكرية والأدبية والدينية من عربيةٍ إسْلاميةٍ، ومن فارسيةٍ وهنديةٍ ويونانيةٍ، وتَوسّع في الكشف عن مظاهرها في ثَقافَته وشعرِهِ توسُّعاً شديداً، وجَلَا صُوَرها جلاءً دقيقاً[1].

ويَلُوحُ من كلِّ ما سبق أنَّ عقيدةَ أبي العتاهية كانت مزاجاً من الإسلام والمانويَّة، فهو لم يكن مُؤْمناً مُوَحِّداً خالصاً، ولم يكن مانويًّا ثَنَوِيًّا خالصاً، بل جمع بين العَقيدتَيْن، وحاول التَّوْفيقَ بينهما. وقد تنبَّه بعضُ أهْلِ عصره لذلك، ومنهم أحمد بن حرْبٍ، فإنه يقول[2]: «كان مَذْهَبُ أبي العتاهية القول بالتَّوْحيد، وأنَّ اللهَ خَلَقَ جَوْهَرَيْنِ مُتضادَّيْن، لا مِن شيءٍ، ثم إنه بنَى العالمَ هذه البِنيةَ منهما، وأنَّ العالَمَ حَدِيثُ العَيْنِ والصَّنعةِ، لا مُحْدِثَ له إلاّ الله. وكان يزعمُ أنَّ اللهَ سيَرُدُّ كُلَّ شيءٍ إلى الجَوْهَرَيْنِ المُتَضادَّين قبلَ أنْ تَفْنَى الأعيانَ جَميعاً. وكان يذهبُ إلى أنَّ الأفعالَ واقعةٌ بقدر الفِكْرِ والاسْتدلالِ والبَحْثِ طباعاً. وكان يقول بالوَعيدِ وبتَحْريمِ المكاسبِ، ويتشيَّعُ بمذهب الزَّيْديَّةِ البَتْريَّةِ المُبْتدعة، لا يتنقَّصُ أحداً، ولا يَرَى مع ذلك الخروج على السُّلْطان. وكان مُجبِّراً».

---

(١) أبو العتاهية ص: ١١٩ — ١٣٤.

(٢) الأغاني ٤: ٥، وسرح العيون ص: ٤٥٧.

وهذا مَذْهَبٌ جديدٌ يَقُومُ على المَزْجِ بين الإسلامِ والمانويَّةِ، فهو يَعْتَقِدُ بوَحْدانيةِ الله، وأنَّ الله هو الذي خَلَقَ الكَوْنَ. وذلك من مَظاهِرِ تأثُّرِه بالإسلام. وهو يَعْتَقِدُ أنَّ الله أوجَدَ عُنْصُرينِ مُتضادَيْنِ. وهما النور والظُّلْمَةُ، وأنشأَ الكَوْنَ منهما، وأنه سيُعِيدُ الأشياءَ إليهما قبلَ أنْ تَبيدَ المَوْجُوداتِ، وذلك من مظاهر تأثُّرِهِ بالمَانويَّةِ.

وهو يُؤْمِنُ بتَحْريمِ المكاسبِ. ويتشيَّعُ للزَّيْديَّةِ البَتْريَّةِ، ويميلُ إلى قَوْلِ الجَبْريَّةِ. ولا تَعارضَ بين ذلك كلهِ وبين المانويَّةِ، بل هو من مَظاهر تأثُّرِهِ بها أيضاً، فقد كانَ المانويةُ يقولونَ بتحريمِ المكاسبِ[1]، وكان الزَّيْديَّةُ البَتْريَّةُ يقولون[2]: «إنَّ الإمامةَ شُورَى فيما بينَ الخَلْقِ، ويَصِحُّ أنْ تَنْعقِدَ بِعقْدِ رَجُلَيْنِ من خيارِ المسلمين، وإنها تَصحُّ في المَفْضُول مَع وُجُودِ الأفْضَل». وكانوا يُجوِّزونَ «قيامَ المَفْضُولِ مع وُجُودِ الفَاضِلِ والأفْضَلِ[3]». فهم خاضِعُونَ للأمر الواقعِ، مُستكينونَ له، راضونَ به، شأنُهم في ذلك شأنُ المانويَّةِ، فهم يَدْعُونَ إلى المَسْكَنةِ، ويَسْتسيغونَ المذلَّة.

وكانَ الجَبْريَّةُ يَرَوْنَ أن الإنسانَ عاجزٌ عن صُنْعِ أفْعالِهِ، وأنَّهُ مُسيَّرٌ غيرُ مُخيَّر، وكان بَعْضُ الجَبْريَّةِ كالضِّراريَّةِ يَذْهَبُونَ إلى «أنَّ الإمامةَ تَصْلُحُ في غيرِ قُرَيش، حتى إذا اجتمعَ قُرَشيٌّ ونبطيٌّ قدّمنا النَّبطيَّ، إذ هو أقَلُّ عدداً، وأضْعَفُ وسيلةً، فيمكننا خَلْعُهُ إذا خالفَ الشَّريعةَ[4]». وذلك موافقٌ لتعاليمِ المانويةِ وأهْدافهم، فإنهم كانوا

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٩، والآثار الباقية عن القرون الخالية ص : ٢٠٧.

(٢) الملل والنحل ١ : ١٤١.

(٣) الملل والنحل ١ : ١٤٢.

(٤) الملل والنحل ١ : ٨٣.

يؤمنون بالإجْبارِ والاضطرارِ إلى الأعمال ، ويُنْكرونَ الاسْتِطاعاتِ ، إذ كانوا يَرَوْنَ أن أعمالَ العبادِ من خيرٍ وشرٍّ إنما تَصْدُرُ عن إله النُّورِ وإلهِ الظُّلْمةِ ، وكانوا يَسْعَوْنَ إلى إقامةِ دَوْلةٍ ثَنْوِيَّةٍ[1] .

وعلى ما يَبْدُو في المذهب الذي اصْطَنَعَهُ أبو العتاهيةِ من تَوْفيقٍ بين الإسلام والمانوية . فإنَّ العناصرَ والأفكارَ المانوية أكثرُ فيه وأغْلبُ عليه .

وقد أشار عدَّةٌ من الباحثين إلى نَزْعَةِ أبي العتاهية التَّوْفيقيَّةِ بين الإسلام والمانويَّة ، ورَدُّوا إليها ما يُنْسَبُ إليه من الزَّنْدقة ، ووجدُوا فيها حَلّاً لمُعْضِلَتِهِ ، على تَحرُّز بعضهم منها ، وشَكِّهم فيها ، ومنهم أويسْتربٍ ، فهو يَصِفُ أبا العتاهية بأنه «أوّلُ شاعرٍ فيلسوفٍ في الأدبِ العربي ، يقف فريداً مُستَقلاً بالناحية التي اختارها لنَفْسِهِ» ، ويقول : «إنَّ مُعاصريه قد تَمثَّلُوهُ مُفكِّراً حُرًّا ، لأنه أنْكَرَ البَعْثَ للمَوْتَى ، ولأنه حاول أنْ يَحلّ لُغْزَ المانويةِ الخالد ، بزَعْمِهِ أنَّ الله خَلَقَ جَوْهَرَيْنِ مُتضادَّيْنِ مُشْتَركينِ ، منهما خَرَجَ كلّ شيءٍ بنظامِهِ ، وإليهما يَنْحَلُّ كلُّ شيءٍ مُرتدّاً إليهما بنَفْسِهِ[2] » .

ومنهم فيدا ، فهو يقول[3] : «أوّلُ ما نُلَاحِظُهُ في مُعْتقداتِ أبي العتاهيةِ أنه كان يُؤْمِنُ بالإثنينيّة بكل صراحةٍ ، فالعالمُ الظاهرُ مُكوَّنٌ من جَوْهَرَيْنِ مُتعارضَيْنِ ، والوُجُودُ تتنازعُهُ طبقتان ، إحداهما خَيِّرةٌ ، والأخرَى شريرةٌ . وهو يرجعُ الوُجُودَ كُلَّهُ في النهايةِ إلى الجَوْهَرَيْنِ المُتعارضَيْنِ اللذين نَشأَ منهما الكَوْنُ وتكوَّنَ ، غيرَ أنَّ أبا

---

(١) انظر أبو العتاهية للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٢٤ — ١٢٦ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : أبو العتاهية .

(٣) من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص : ٣٨ .

العتاهية صاغَ نظريَّاتِهِ الإثنينيّة في صيغةٍ واحديَّةٍ . إذْ جَعَلَ الله الوَاحِدَ عندَ بَدْءِ الأشياءِ ، وقال : إنه خالقُ الجَوْهَرَيْنِ ، وإنَّ العالمَ ما كان له أنْ يُوجَدَ بدون الله وَحْدَهُ ، طارحاً بذلك أسطورةَ الخليطِ الأزليِّ بين الجَوْهَرَيْنِ أو المَبدأَيْنِ ، ونَعْني بهما النُّور والظُّلْمَةَ » .

ولكنهُ حارَ في آخر الأمر في مُعْضِلةِ أبي العتاهيةِ ، فلم يقْطعِ الخُصُومةَ فيها ، ولم يُبَرِّيءْ صاحبها من اعتناق المانويَّةِ ، فهو يقول [1] : « إننا لا نَعْلَمُ أكان أبو العتاهية مُوَحِّداً فأخذَ نَظريَّةَ الإثنينيَّة من المانويَّةِ ليَستعينَ بها على تَوْضيح العالم في وُجْهَتي الخَيْرِ والشرِّ حيث تَنُوءُ أحياناً بالآلام وأخرى تَسُرُّ بالمباهج ، أم أنَّ تَوحيدَهُ هذا كان قناعاً يتستَّرُ به لنشْرِ مبادئ المانويَّةِ ، كما هي طبيعةُ أهلِ هذه النِّحْلَةِ » !

ومنهم الدكتور شوقي ضيف ، فهو يقول [2] : « ابنُ حَرْبٍ يضعُ في يَدنا المفْتاح لحلِّ مشكلةِ أبي العتاهية ، فهو ليس مانويّاً ثَنْوِيّاً يؤمنُ بأن للعالم إلهين ، كما ظَنَّ ابنُ المعتزّ وبعضُ مُعاصريه ، إنما هو مانويٌّ من نَمطٍ جديدٍ ، إذ يمزِجُ بين المانوية والإسلام ، إلاّ إذا كان قَد مَوَّهَ عن مانويَّتِه الخالصةِ بادِّعائهِ وَحْدَانيَّةَ ربِّه » ! !

وإذا استقامَ أنَّ أبا العتاهية كان مؤمناً مُوحِّداً ، وأنه استعانَ بالثقافاتِ الفارسيةِ والهِنْديَّةِ واليونانية والمسيحيَّةِ لتفريع معاني الزهد وإغنائها ، وتَعْميقها وإثرائها ، وتَوْضيحهَا وجلائها ، فإن ذلك قد يُمَثِّلُ طريقةً فنيَّةً ، قامت على أُسُسٍ فِكريَّةٍ أجنبيَّةٍ . وهو يُصَرِّحُ بأنه اتخذَ الزهدَ وسيلةً إلى الشُّهْرَةِ الواسعةِ والمكانةِ الرفيعةِ عند

---

(١) الصراع بين الموالي والعرب ص : ٩٩ .

(٢) العصر العباسي الأول ص : ٢٤٢ .

الجماعات التي تُعْجبُ بهذا اللَّوْنِ من الشعرِ ، وتُفَضِّلُهُ على ألوانِ الشعرِ الأخرى ، قال ابنُ أبي الأبيض[1] : «أتيتُ أبا العتاهية فقلتُ له : إني رجلٌ أقولُ الشعرَ في الزهد ، ولي فيه أشعارٌ كثيرةٌ ، وهو مذهبٌ أستَحْسِنُهُ ، لأني أرْجُو ألّا آثَمَ فيه ، وسمعتُ شعركَ في هذا المعنى ، فأحببتُ أنْ أستزيدَ منه . فأحبُّ أنْ تَنْشدني من جَيِّدِ ما قُلْتَ . فقال : اعلمْ أنَّ ما قُلتَهُ رَديءٌ ، قلتُ : وكيف؟ قال : لأنَّ الشعرَ ينبغي أنْ يكونَ مثلَ أشعارِ الفحُولِ المُتَقدِّمينَ أو مثلَ شعر بشارٍ وابن هَرْمةَ ، فإنْ لم يكن كذلك فالصوابُ لقائله أنْ تكونَ ألفاظُهُ مما لا يخفَى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيَّما الأشعارُ التي في الزُّهْدِ ، فإنَّ الزهدَ ليس من مذاهبِ الملوك ولا من مذاهب رواةِ الشعر ولا طُلّابِ الغريب ، وهو مذْهَبٌ أشْغَفُ الناسِ به الزهادُ وأصحابُ الحديث ، والفقهاءُ وأصحابُ الرِّياء والعامةُ ، وأعجبُ الأشياء إليهم ما فَهِمُوه» .

وربما دخلَ ما يُنْسَبُ إليه من الزندقةِ بسببِ ثَقافتِهِ الأجنبيَّةِ فيما يعرفُ بالزندقةِ الفكريَّة . وقد لاحظ بعضُ أهلِ عصرِهِ أنه كان حائراً مُضطرباً . وضعيفاً مُتقلِّباً لا يثبتُ على رأيٍ ولا يستقرُّ على مقالةٍ ، بل يتحوَّلُ من رأيٍ إلى رأيٍ ، ويتنقَّلُ من مقالةٍ إلى مقالةٍ طلباً للنجاةِ والسَّلامةِ ، قال العباسُ بن رستم[2] : «كان أبو العتاهية مُذَبْذباً في مَذْهبِهِ ، يعتقدُ شيئاً ، فإذا سمعَ طاعناً عليه تَركَ اعتقادَهُ إياه وأخذَ غيرَهُ» !

ولكنَّ كثيراً من أخبارِهِ وأشعارِهِ وأحكام القدماءِ والمُحْدثين على سيرتِهِ وزُهْدِهِ تكشفُ عن صلتِهِ القويَّةِ بالمانويَّةِ ، فقد كان يؤمنُ بالإثنينيّةِ ، وأن الجَوْهَرينِ المُتَضَادَّيْنِ من النُّور والظُّلْمَةِ هما أصْلُ الخيرِ والشرِّ في العالم ، وكان يُرَدِّدُ مُصْطَلَحاتِها في زُهْدِهِ .

---

(١) الاغاني ٤ : ٧٠ .

(٢) الأغاني ٤ : ٦ .

وكان في زُهْدِيَّاتِهِ كئيباً متشائماً ، ويائساً قانطاً ، وذاماً للناس برما بالدّهْرِ[١] .
وهذه صفةٌ غريبةٌ عن الزُّهْدِ الإسْلاميِّ ، قريبةٌ من الزُّهْدِ المَانَويِّ[٢] ، فإن المانويَّة كانوا يعتقدون أن الشرَّ هو الفاشي في الناسِ والغالبُ على الدهر ، فتزهَّدُوا تَقْصيراً للحياةِ والبقاءِ ، واستعجالاً للموتِ والفناء .

وكان يُظْهِرُ الزُّهْدَ تَضْليلاً وخداعاً ، لا صِدْقاً واقْتِناعاً ، فقد كان يَطْربُ بعدَ أنْ لَبِسَ الصُّوفَ وتَقَشَّفَ[٣] ، وكان يحِنُّ إلى أيامِ الشبابِ واللّهْوِ ، ويبكي مفاتنها ومَلذَّاتها ، ويتحسَّرُ على مَباهجها ومسرَّاتها[٤] . وكان يُحِبُّ الحياةَ ، ويحرصُ على الدنيا ، ويطْلُبُ المال[٥] . وكان يمدحُ وينالُ الجوائزَ[٦] . وكان شحيحاً شُحًّا شديداً[٧] ، على وَفْرةِ ما أصابَ من المكافآتِ والهباتِ وما كَنَزَ من الذّهبِ والفِضَّةِ[٨] . وكان يعيشُ على المسألةِ ويأكُلُ من كَسْبِ غَيْرِهِ[٩] . شأْنُهُ في ذلك شأْنُ رُهْبانِ المانويَّة .

---

(١) الأغاني ٤ : ٣٧ ، ٧٤ ، ١٠٦ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي ص : ٩٦ ، والعصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٤٩ ، وأبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ٢٦٠ .

(٣) الأغاني ٤ : ٧٨ .

(٤) الأغاني ٤ : ٤٥ ، ١٠٩ .

(٥) الأغاني ٤ : ٥٠ ، ٥٣ .

(٦) الأغاني ٤ : ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، وانظر أبو العتاهية ، للدكتور محمد محمود الدش ص : ١٣٢ ، العصر العباسي الأول ، للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٤٣ .

(٧) الأغاني ٤ : ٢ ، ١٦ — ١٩ .

(٨) الأغاني ٤ : ٦٣ .

(٩) الأغاني ٤ : ٩٥ .

وكلُّ أولئك شواهدُ على استحكام المانوية في قَلْبِهِ وتمكُّنِهَا من نَفْسِهِ، فقد كان يَصْدُرُ عنها في فِكْرِهِ وسُلُوكه، وكان يتأثَّر بها في قَوْلِهِ وفِعْلِهِ. وكان يَدَّعي الزُّهْدَ ادّعاءً، ويتكلَّفُهُ تكلفاً، ليُخْفِيَ نِحْلَتَهُ. ويحفظَ حياتهُ[1]. وهي تُرجِّحُ أنَّ ما يُنْسبُ إليه من الزَّنْدقةِ كان إلحاداً في الدّينِ ومُرُوقاً من الإسلام.

(1) انظر أبو العتاهية، للدكتور محمد محمود الدش ص: ١٣٧.

(١٢) آدم بن عبد العزيز

من الشعراء العرب الذين علقتْ بهم تُهمةُ الزندقة آدم بن عبد العزيز الأموي. وهي تهمة رَميَ بها لشدةِ مجونه، لا لاعتقادِهِ بالديانات الفارسية. إذ يقول أبو الفرج الأصفهاني: «إنه كان في أول أمْرِهِ خليعاً ماجناً مُنْهمكاً في الشراب[١]». ويروي أنَّ المهدي أخذه وضربه على أن يعترف بالزندقة فأنكر. فاحتج عليه بقوله الذي تهاون فيه بالدين[٢]:

إسْقني واسْقِ خليلي في مَدَى الليلِ الطويلِ
قهوةً صهباءَ صِرْفاً سُبِيَتْ من نَهْرِ بيلِ
في لسان المرءِ منها مثلُ طعْمِ الزنجبيلِ
من ينلْ منها ثلاثاً ينسَ منهاجَ السبيل
قلْ لمن يَلْحاكَ فيها من فقيهٍ أو نبيلِ
أنتَ دَعْها وارجُ أخرى مِنْ رَحيقِ السلسبيل
تَعْطَشُ اليومَ وتُسْقَى في غدٍ نَعْتَ الطُّلولِ

---

(١) الأغاني ١٥ : ٢٨٦، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٥، ٣٦٦.

(٢) الأغاني ١٥ : ٢٨٧، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٦.

فقال : كنت فتًى من فتيانِ قريش . أشربُ النبيذَ ، وأقولُ ما قلتُ على سبيلِ المجونِ ، والله ما كفرتُ بالله قط ، ولا شككتُ فيه ، فخلي سبيله »[3] . ثم إنه نسكَ بعدما عمّر ، ومات على طريقة محمودة[4] .

---

(٣) الأغاني ١٥ : ٢٨٨ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٦ .

(٤) الأغاني ١٥ : ٢٨٦ ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(١٣) يحيى بن زياد

من الشُّعراءِ العَرَبِ الذين لَصَقَتْ بِهِمْ تُهْمَةَ الزَّنْدقَةِ أيضاً يحيى بن زيادٍ الحارثيّ . وقد لصقت به التهمةُ لخلاعتِهِ وبطالته . والقدماءُ أنفسهم يلاحظون ذلك ، وينصون عليه ، وهم ينسبونه الى الزندقة ، إذ يردِّدونَ أنه كان من جملة زنادقة عصره الذين كانوا يتنادمون ويجتمعون على الشراب ، ويهجو بعضهم بعضاً[1] . فقد كان خليلاً لحماد عجرد ، وكان مطيع بن إياس صديقاً له لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودةً ومحبّة[3] ، فجاءته التهمةُ من صحبته لهما ولأمثالهما . بل إن الشريف المرتضى الذي طعن في دينه ، لم يلبث أن اعترف بأن خِفَّةَ روحه هي التي جعلت الناسَ يرمونه بالزندقة ، إذ يقول : «كان يحيى يعرف بالزنديق ، وكانوا إذا وصفوا إنساناً بالظرف قالوا : هو أظرف من الزنديق ، يعنون يحيى ، لأنه كان ظريفاً»[4] فزندَقَتُهُ نَوعٌ من الظرف والتَّحرر والتحلل من القيم والتقاليد الاجتماعية المرعية . وليست إيماناً بالمذاهب الفارسية القديمة ، ولا انسلاخاً من الإسلام .

---

(١) الأغاني ١٤ : ٢٧٩ ، وأمالي الشريف المرتضى ١ : ١٣١ .

(٢) الاغاني ١٤ : ٣٣٣ .

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ٩٥ .

(٤) أمالي الشريف المرتضى ١ : ١٤٣ .

ولم يبْقَ من شعره شيءٌ يدل على ظَرْفهِ أو تحرره أو تحلّله . ويقول أبو الفرج الأصفهاني : «إنه أظهر تورعاً وقراءةً ونزوعاً عما كان عليه . وهجر حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكِرَ عنده ثَلَبهُ ، وذكر تَهتُّكَهُ ومُجونَهُ[1] . ونَسَبهُ إلى الزندقة ، ورماه بالخروج عن الإسلام[2] . فقال حماد يعرّض بتقواه ، ويشكك في تَوْبتهِ[3] :

لا مؤمنٌ يعرفُ إيمانُهُ وليسَ يحيى بالفتى الكافرِ
مُنافقٌ ظاهِرُهُ ناسكٌ مخالفُ الباطنِ للظاهِرِ

كما انقطعَ أيضاً عن مطيع ، وفسد ما بينهما ، وتهاجرا[4] . ويقول أبو الفرج الأصفهاني في موضع آخر : «كان المهدي سأل أباه أن يولي يحيى بن زياد عملاً ، فلم يجبه ، وقال : هو خليعٌ متخرقٌ في النّفقةِ ماجن . فقال : إنه قد تابَ وأنابَ ، وتضمَّنَ عنه ما يحب ، فولاه بعض أعمال الأهواز[5] .

---

(١) الأغاني ١٤ : ٣٣٣ .

(٢) الأغاني ١٤ : ٣٣٤ .

(٣) الأغاني ١٤ : ٣٣٤ .

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ٩٥ .

(٥) الأغاني ١٤ : ٣٦٣ .

الفصل الثالث

الشعوبية في التاريخ

(١) معنى الشعوبية

الشعوبية حركةٌ ثقافيةٌ حضاريةٌ مناهضةٌ للعرب ، كان العراق هو المسرح الذي ظهرت عليه ، وترعرعت فيه ، لأنه كان ملتقى العنصر العربي الغالب بالعصر الفارسي المغلوب . وهي حركة بدأت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، وبقيت مستترة طوال العصر الأموي ، حتى إذا نجح العباسيون في إنشاء دولتهم ، واستخدموا الموالي ، واستَعملُوهُمْ في المراكز الهامة ، وأسندوا إلى بعضهم مسئولية الحكم ، وأطلقوا لهم الحرية ، أحسوا بذواتهم ، وتسلطت عليهم النزعة القومية ، فقويت حركة الشعوبية بينهم ، وتصاعد خطرها ، إذ تحولت إلى ما يشبه المنظمات التي كان يشرف عليها ، ويخطط لها ، ويتعهدها ويساعدها رؤساء من الوزراء والأدباء والكتاب والشعراء من الموالي الفرس .

ولم تشع الشعوبية بين الموالي الفرس فقط ، فقد امتدت إلى سائر الأمم التي أذعنت للعرب ، كالنَّبَطِ والقِبْط [١] ، والأندلسيين [٢] ، والزُّطِ من أهل السند ، والزنج من أهل افريقية ، كما يصور ذلك الجاحظ في رسالته « فخر السودان على البيضان » [٣] وجمعَ بين هؤلاء الشعوبية على اختلافِ أصولهم وأجناسهم مُفاخَرَتُهُمْ

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ١٣ : ٣١٦ .

(٢) رسالة أبي عامر بن غرسية في الشعوبية ، بنوادر المخطوطات ٣ : ٢٤٦ ، وضحى الإسلام ١ : ٥٩ .

(٣) رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ١ : ١٧٩ .

للعرب ، واستطالتُهم عليهم ، وحطُّهمْ من شأنهم ، وعداؤهم لهم . ولكن شيوع الشعوبية بين الأمم الأخرى لا يقلل من الدور الكبير الذي لعبه الموالي الفرس فيها ، فهم أصل الداء ، وموطن البلاء ، إذ كانوا أكثر من غيرهم عدداً وقوة ، وتولوا المناصب الرفيعة في الدولة العباسية ، مما هيأ لهم أن يذكوا تلك الحركة ، وينفثوا سمومها .

(٢) أسباب نُشوء الشُّعوبية

يُعْزى ظهور الشعوبية الفارسية ، إلى ثلاثة أسبابٍ : أولها اجتماعيٌّ ، وتَدُورُ كل شواهده على استعلاء العرب على الموالي ، فقد اعتدُّوا بصراحة أنسابهم ، وشَرَف أحسابهم ، وظنوا أنهم أمة ليس كمثلها أمة . وأنهم جنس لا يماثله جنس آخر ، حملهم على هذا الاعتقاد والمَذْهَب . وصرفهم إلى هذا الكبر والعُجْبِ النصرُ العظيمُ الذي أحرزوه بتغلُّبهم على الفرس والروم ، فتملكهم الشعور بالسيادة والعظمة ، ونظروا إلى غيرهم من الشعوب نظرة السيد إلى المسود[1] ، ومن أجل ذلك كانوا لا يكنُّونَ الموالي بالكنى ، ولا يَدْعُونَهُم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يقدّمونهم في الموكب ، وإنْ حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطْعَمُوا المولى لسِنِه وفَضْله وعِلْمِهِ أجلسوه على طَرَفِ الخُوان لئلا يَخْفَى على الناظر أنه ليس من العرب . وكانوا يقولون : لا يقطّع الصلاة إلا ثلاثة : حمارٌ أو كلبٌ أو مولًى . وإذا ماتَ مولى يقولون هو مال الله يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها الى مولاها ، فإن رضي زوّج ، والا رُدَّ ، فإن زوج الأب أو الأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح ، وإن كان قد دخل بها . وكانوا لا يزوجونهم العربيات الحرائر ، وإن بنى

---

(١) ضحى الإسلام ١ : ٢٢ .

أحدهم بواحدة منهن فرّقوا بينه وبينها. وكانوا لا يصلون وراءهم، ولا يدخلونهم مساجدهم، ولا يسمحون لهم بالصلاة على الجنائز إذا حضر بعض العرب، وإن كان من حضر غريراً. وكانوا يُسخِّرونهم عنوةً، فقد كانت العرب إلى أن قامت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق، ومعه شيء فرأى مولى، دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل. وعلى نحو ما استهانوا بالموالي استهانوا بالمولدين الذين آباؤهم من العرب وأمّهاتهم من الإماء، فسموهم الهجناء تمييزاً لهم من العرب الأصلاء، ولجوا في تحقيرهم لهم حتى رفضوا أن يرثوا كما يرث الصرحاء[1].

وثاني الأسباب سياسي، وتمثل كل أدلته نَبْذَ الأمويين للموالي، وإقصاءهم لهم عن المراكز الحساسة بحكم تعصبهم للعرب، فكانوا إذا اختاروا والياً راعوا أن يكون من العرب، وإن اختاروا قاضياً أو إماماً يصلي بالناس اختاروه من العرب أيضاً، وإن خرجوا عن ذلك ثار العرب عليهم، وطالبوهم بعزل المولى من وظيفته[2]، وكانوا يمنعونهم من الانضمام إلى الجيش العربي النظامي، لأنه كان مؤلفاً على أساس قبلي، وكانوا لا يستعينون بهم إلا عند الحاجة والضرورة، ولا يقبلونهم إلا متطوعين ومحاربين راجلين، في حين كان العرب يقاتلون على صهوات الجياد[3]، وكانوا لا يفرضون لهم عطاء ثابتاً، كما كانوا يفرضون للمقاتلة العرب[4].

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٤١٣، ٤١٧، والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣ : ٦٤، ١٦ : ١٠٦، ومحاضرات الأدباء ١ : ٢٢٠، ولسان العرب ١٧ : ٣٢١.

(٢) العقد الفريد ٣ : ٤١٣، ٤١٧، وضحى الإسلام ١ : ٢٦.

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ٧٥، والسيادة العربية ص : ٣٧، وتاريخ الدولة العربية ص : ٢٣٧، ومظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص : ١٢٩.

(٤) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٩.

وثالثُ الأسباب اقتصادي ، وتبرُز بعض الأخبار المتصلة به إهمالَ الأمويين للشؤون المالية في البلاد المفْتوحة ، وظلمَهُم لأهلها من الموالي وأهل الذمة ، فقد استمروا يطالبون مسلميهم بالجزية ، ويتعسفون في استيفائها منهم تعسفاً . ومن أكثر الأخبار ذيوعاً ، وأوسعها دوراناً في هذا المجال ما فعله الحجاج بالموالي وأهل الذمة في البصرة بعد أن ثاروا عليه مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وانتقل نفرٌ منهم من القرى ونزلوا بالمدن ، فانكسر الخراج ونقص نقصاً شديداً ، فإنه حينئذٍ أمرهم بالرجوع إلى قراهم ، ونقش على يد كل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها ، ولم يسقط الجزية عمن أسلم منهم[1] . ومنها شكوى أبي الصيداء صالح بن طريف مولى ضبة ، إلى عمر بن عبد العزيز ارهاقَ الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على خراسان للمسلمين من مواطنيها الأصليينَ ، وعُنْفَهُ بهم ، فقد رفع إليه أن عشرين ألفاً من أهل الذمة أسلموا يُؤْخَذُونَ بالجزية[2] . ويقال إن عمال خراسان استمروا يتلاعبون بالخراج والجزية إلى أيام نصر بن سيار ، ذلك أنه حين أعلنَ خُطَطَهُ المالية الإصلاحية ، وكلّفَ منصور بن عمر بتنفيذها أتاه ثلاثون ألفَ مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم ، وثمانون ألفَ رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم ، فحوّل ذلك عليهم ، وألقاه عن المسلمين[3] . ومنها أن وَضْعَ أهل سمرقند كان أسوأ من وَضْعِ أهْلِ خراسان ، وأقوى شاهد على ذلك أن أشرس بن عبد الله السلمي دعا أهل الذمة مِنْ سكان سمرقند ومَنْ وراء النهر إلى الإسلام على أن ترفع عنهم الجزية ، فأجابوا دعوته ، فلما اسلموا وضع عليهم الجزية ، وصمم على جمعها منهم ، فامتنعوا عليه ونصبوا له الحرب[4] .

---

(١) الحيوان ٧ : ١٦٥ ، والعقد الفريد ٣ : ٤١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٥٥٩ .

(٣) تاريخ الطبري ٧ : ١٧٣ .

(٤) تاريخ الطبري ٧ : ٥٥ .

(٣) مناقشة الأسباب

نَظَر الباحثون نَظَراً دقيقاً في الأسباب الثلاثة التي يقال إنها أدت إلى نُشُوء حركة الشعوبية وتعاظمها واستفحالها مُبيِّنين ما فيها من التعميم والخلط ، وخالصين إلى أنها لم تكن تشكل الدوافع الحقيقية لتمرد الموالي الفرس على العرب ، وطعنهم عليهم ، ومحاربتهم لهم ، وإنما كان وراءها سبب دفين آخر ، وهو تأصل العصبية الجنسية ، وتضخم النزعة القومية الاستقلالية في نفوسهم . فمن الناحية الاجتماعية كانت العناية بالأنساب حيةً بين العرب حياة تعكس تأثرهم بالقيم والمفاهيم الجاهلية ، ولا يخفى ما في تزويج البنات من الخضوع للتقاليد القبلية . وما يقال عن احتقار العرب للموالي فيه نظرٌ ، فلم يكونوا جميعاً يُهَوِّنون من شأن الموالي ، ويتعالون عليهم تعالياً طبقياً ، إنما كان ذلك فاشياً في أوساط البدو ، وأشراف القبائل والعمال لتمكُّنِ الروح الأعرابية منهم ، وإحساسهم بالثقة والتفوق في أنفسهم بعد نجاحهم السريع في القضاء على الفرس والروم[١] ؛ والقدماء أنفسهم حين أوردوا الأمثلة التي ذكرناها على ترفُّعِ العرب على الموالي ، لاحظوا أنها كانت محصورةً في المتعصبين منهم ، مقصورةً على المتهورين فيهم[٢] .

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص : ١٧ ، وضحى الإسلام ١ : ٢٧ ، والصراع بين العرب والموالي ص : ٢٤ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٤١٢ .

ومن جهة أخرى لم يكن الموالي صنفاً واحداً ، بل كانوا أصنافاً ، فمنهم أناسٌ من السبي وأسرى الحرب ، استُرِقُّوا ثم أُعْتِقُوا ، وهم قلةٌ بين الموالي ، وهم عند تَحْريرهم تبقى الفروق قائمةً بينهم وبين ساداتهم ، ولا يرقون إلى منزلتهم الاجتماعية. وجُلُّ الموالي أناسٌ دخلوا في الإسلام ، ووجدوا أن المجتمع يتألف من قبائل ، وأن دور القبائل في الحياة الاجتماعية كبير ، إذ لا كيان ولا منزلة خارج نطاقها ، فانتسبوا إليها أفراداً وجماعات انتساباً ينطوي على الحلف ، ويضمن للمولى مكاناً في المخطط الاجتماعي. فالولاء في هذه الحالة ولاءُ حِلْفٍ لا ولاء عِتْق. وهم بهذا الحِلْفِ يحصلون على الحماية اللازمة ، كما أنهم بدورهم يُعَزِّزونَ مكانةَ أحلافهم ويساعدونهم مساعدة فعالة. ومع أن في هذا الحلف شيئاً من عدم التكافؤ. فإنه لا يحمل أي مهانةٍ أو احتقار[1].

وكان منهم المِهَنِيُّونَ ، وهم طبقاتٌ ، فمنهم الكاتب الذي كان يتمتع بمكانة اجتماعية حسنة ، ومنهم التاجر صاحب المنزلة المرموقة ، والنفوذ الواسع ، ومنهم العالم الذي كان يشرفُ بعلمه وفضله ، والذي منحه الناس من الإجلال ما منحوا العرب ، ومنهم الفلاحون والحرفيون ، وهؤلاء كانوا في مرتبة اجتماعية متواضعة. ومعروف أن القبائل كانت تنظر إلى الفلاحة وإلى الحرف الأخرى نظرة لا تخلو من استهانة ، وازدراؤها للموالي من الفلاحين والحرفيين كان موجهاً إلى مِهَنِهم لا إلى أصولهم[2].

وأما من الناحية السياسية فصحيح أن الأمويين أبعدوا الموالي عن المناصب السياسية والعسكرية ، وركزوا السلطة في أيديهم ، وخصُّوا أشراف القبائل

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص : ١٩.

(٢) ضحى الإسلام ١ : ٢٧ ، والجذور التاريخية للشعوبية ص : ٢٠.

بالوظائف الكبرى . وهذه السياسة على ما فيها من مخالفة لروح الإسلام ، تبدو طبيعية مع ظروف العرب السياسية والفكرية في الدَّوْلَةِ الأموية ، فالعرب هم الفاتحون المنتصرون ، والأمويون هم السادة الحاكمون . وكان مستقراً في أعماقهم أنهم أولو خِبْرةٍ واسعةٍ في شئون الإدارة ، وأنهم قادرون على القيام بالحكم ، والنهوض بأعبائه[1] ، على أنهم إذا كانوا نحَّوا الموالي عن المراكز السياسية والعسكرية الحساسة فإنهم أفادوا منهم في الميادين الفنية المختلفة فوائدَ كثيرةً ، منذ أيام معاوية إلى أيام مروان بن محمد ، فهم الذين كانوا يشرفون على ديوان الخراج والرسائل والخاتم ، وهم الذين كانوا يقومون بوظيفة الحراسة والحجابة . ومن الطريف أن خليفة بن خياط سرد أسماء من تولوا هذه الوظائف في عهود الخلفاء الأمويين سرداً مفصلاً يدل على أن أكثرهم كانوا من الموالي الفرس ، وأقلهم كانوا من الموالي الروم[2] .

وأما من الناحية الاقتصادية فمن الثابت أن بعض الولاة الأمويين كالحجاج فرض الجزية على الموالي المسلمين نتيجة الأزمة المالية في مُنتصَف العصر الأموي . وهذا التدبيرُ مجافٍ للعرف الإسلامي ، ولذلك فإنه نُقِضَ ، ولم يُتَّخَذْ قاعدةً . وما يقال عن إرهاق الموالي بالضرائب فيه مبالغةٌ ، فالحق أن الأمويين لم يتجاوَزوا الضرائبَ المعروفة كهدايا النيروز والمهرجان ، والضرائب على الصناعات والحرف ، وبالمثل فإن العطاء شملَ بعضَ الموالي في صدر الإسلام لقلة عددهم ، وحاجة العرب إليهم في الفتوح ، ولكن اتّساعَ الهجرة العربية من الجزيرة إلى البلاد المفتوحة ، وانتظامهم في الجيش لم

(١) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٨ ، والجذور التاريخية للشعوبية ص : ١٦ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ١ : ٢٧٦ ، ٣٩٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٢ : ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ، ٦٢٢ .

يدع مجالاً ولا ضرورةً للموالي ، حتى ينضموا إلى صفوفه ، فاقتصر العطاء على العرب ، وشاركت طوائفُ من الموالي في غزوات الحدود الشرقية ، غير أنها كانت من المُتَطَوِّعةِ ، ولذلك كانت تنال حظاً من الغنائم فقط ، لأنها لم تكن مسجلة في ديوان الجند[1] .

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص : ١٨ .

(٤) تَحْقيرُ الشُّعوبية للعَرب

ليس من شك في أنَّ مُراجعةَ الباحثين للأسباب التي تردُّ إليها حركة الشعوبية ، وتَقْويمَـهُم لها في ضوء الأوضاع الاجتماعية والفكرية والسياسية للدولة الأموية يقطع بأن تلك الحركة كانت في حقيقتها تعبيراً عن الوَعي القومي الفارسي ، وفي مظهَرِها تَذَمُّراً من السلطان العربي ، ولو صَحَّ أنَّ الموالي كانوا يَضُجُّـونَ في الدولة الأموية من ضَيْمٍ وقع عليهم ، واستبدادٍ أجْحَفَ بهم ، وأنهم كانوا يَبْتَغُونَ المساواةَ والعَدْلَ ، لوجب أن يَتَلاشى تضجُّرُهُم وقَلَقُهُم ، وينتهي تَذَمُّرهم وضيقُهُم ، بعد قيامِ الدولة العباسية ، فقد أنْصَفَتْهُمْ وسَوَّتْ بينهم وبين العرب ، وفتحتْ لهم الأبواب إلى الإدارة والوزارة والجيش ، وأصبح لهم صوتٌ مسموعٌ ، ونفوذٌ شاسعٌ في البلاط العباسي[١] ، ولكن العكس هو الذي حدث ، إذ تآلفَ غوغاؤُهُم وزعماؤُهُم وأهلُ الرياسةِ والسياسةِ منهم ، وتنامَى شعورُهُم القومي تنامياً عظيماً حتى تَفَاقَمَ شَرُّهُ ، فإذا هم تزدادُ معاداتُهُم للعرب ، وتشتدُّ مناوَأتُهم لهم ، حتى أخذوا يجهرون بها جهراً ، بعد أن كانوا يَطْوُونَها ويَكْتُمونَها في العصرِ الأموي . وسلكوا مُختَلفَ السبلِ للطعنِ على العرب ، واصطنَعُوا شتّى الوسائلِ للحطِّ من شأنِهم في الجاهليّةِ والإسلام. فقد نَقَضُوا كُلَّ خَصائِصِهِمْ ومَساعِيهِم ومَحاسِنِهِم في الجاهلية نقضاً ،

---

(١) مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص : ٦٩ ، ٨٩.

إذ انْبَرَوْا في عرقلةِ أنسابهم زاعمين أنهم كان ينكحُ بعضهم نساءَ بعض في غاراتهم بلا عقدِ نكاحٍ ، فاختلَطَتْ أنسابُهُمْ وأصولُهُمْ وتداخَلَتْ دِماءُهُم وأشخاصُهم[1] ، وأنكروا كلَّ صفاتهم الخلقية الكريمة ، دامغين لهم بالبخلِ والخِسَّةِ والدَناءةِ والجبنِ والعجز[2] . وعابُوا حُضورَ بديهتهم ، وفصاحةَ خُطَبِهم وبلاغتهم ، وما كانوا يَستَعينُونَ بهِ في أثناءِ الخطابة من الاتكاءِ على أطرافِ القسيِّ والعصيِّ ، والإشارَةِ بالقضبان والقنا . وسخروا من آلاتِهم وأساليبهم في الحرب ، وخُططهم في القتال[3] ، وسخَّفُوا عَيْشَهم ومَطاعِمَهم ومآكِلَهم[4] ، ووصفوهم بالتأخّر والانحطاطِ في العلمِ والصناعة والإدارة والسياسة[5] .

وقرنوا حملتَهم الغاشمة في الطعن على العرب ، والنسخ لكل مكارمهم ومناقبهم بتأليف الكتب في معايبهم ومَقابحهم ، واشتهر بذلك منهم كثيرون فيونس بن أبي فروة كتب كتاباً في مثالبِ العرب وعيوب الإسلام[6] وعلان الشعوبي صَنَّفَ كتابَ الميدان في المثالب ، هَتكَ فيه العرب وأظهرَ مثالبَها[7]، وهو كتاب يحتوي على جميع مثالب العرب ابتداءً ببني هاشم قبيلةٌ بعد قبيلةٍ على الترتيب إلى آخر قبائل اليمن[8] ، وأبو عبيدة معمر بن المثني وَضَعَ كتابَ المثالبِ الذي قدحَ فيه على بعض أسباب النبي[9] ، وذكر فيه أنساب العرب وفسادها ، ورماهم بما يُسيءُ الناسَ

(١) العقد الفريد ٣ : ٤١٢ .

(٢) كتاب العرب لابن قتيبة ، برسائل البلغاء ص : ٣٦٥ ، ٣٧٠ .

(٣) البيان والتبين ٣ : ٤ — ١٢

(٤) كتاب العرب ص : ٣٦٦ .

(٥) العقد الفريد ٣ : ٤٠٥ .

(٦) الحيوان ٤ : ٤٤٨ ، وأمالي المرتضى ١ : ١٣٢ .

(٧) الفهرست ص : ١٠٥ .

(٨) معجم الادباء ١٢ : ١٩١ .

(٩) الفهرست ص : ٥٣ .

ذكرُهُ، ولا يحسنُ وصفه[1] ، وألف أيضاً كتاب مثالب باهلة[2] ، وكتاب أدعياء العرب[3] ، وكتاب لصوص العرب[4] ، ويقال إنه كان أغْرى الناس بمشاتم الناس، وألْهَجَهمْ بمثالبِ العرب[5] . والهيثم بن عدي صَنَّفَ كتابَ المثالبِ الصغير، وكتاب المثالب الكبير، وكتاب مثالب ربيعة، وكتاب أسماء بغايا قريش في الجاهلية وأسماء مَنْ ولدن[6] .

ولم يقفوا في هجومهم على العرب عند هذا الحد، فقد زَيَّفُوا الشروحَ، واختلقُوا القصصَ، وافتعَلُوا الأخبارَ، ونسبوها جميعها إلى عرب الجاهلية لتشويه تاريخهم، وكان ذلك أخطرَ على العرب من الحرب الظاهرة، لأن نَقْضَهُ أصعبُ، والوقوف على بطلانه أعسر[7] .

وعبثوا بالشعر الجاهلي عبثاً شديداً، سواء بنسبة الشعر إلى غير قائله، أو بوضع الأشعار وإضافتها إلى الشعراء الجاهليين، حتى لا يكون للعرب أدبٌ موثوق به، يطمئن الناشئة إليه، ويكبّون عليه. وعرف منهم بذلك عديدون أشهرهم حَمَّادُ الراوية، الذي جَرَّحَهُ علماءُ الكوفةِ والبصرةِ، واتهموه بِصُنعِ القصائد، وإفساد الشعر[8] ، ومثله جَنَّادُ الكوفي[9] وخلَف الأحمر[10] .

---

(١) مروج الذهب ٤ : ٣٦.

(٢) الفهرست ص: ٥٤.

(٣) الفهرست ص: ٥٤.

(٤) الفهرست ص: ٥٤.

(٥) كتاب العرب ص: ٣٤٦.

(٦) الفهرست ص: ٩٩، ١٠٠.

(٧) ضحى الاسلام ١ : ٧٠.

(٨) الحيوان ٤ : ٤٤٧، وطبقات ابن المعتز ص: ٦٩، وطبقات فحول الشعراء ص: ٤١، والأغاني ١ : ٨٩، وآمالي المرتضى ١ : ١٣٢، ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٦٥.

(٩) معجم الأدباء ٧ : ٣٠٦.

(١٠) الشعر والشعراء ٢ : ٧٦٥، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص: ١٧٩، وأمالي القالي ١ : ١٥٥، ومعجم الأدباء ١١ : ٦٨، والمزهر للسيوطي ٢ : ٤٠٣. وبغية الوعاة ص: ٢٤٢.

ولم يكن الشعوبية يجهلون أنَّ تحقيرَهم للعرب في العصر الجاهلي، وتصويرَهم لهم بمظهر البداوة الساذجة، والتخلف في العلم والفلسفة والصناعة والحكم إنما هو تحقير من وجه آخر لحاضرهم الإسلامي، فقد كانوا يعلمون ذلك علماً وثيقاً، ويقصدون إليه قصداً دقيقاً، مستغلين للتمويه عليه، وتغطية غاياتهم الخبيثة منه، دعوةَ الإسلامِ لاطِّراحِ كثيرٍ من العاداتِ والأعراف القبلية. ولذلك لَجُّوا في حملتِهم على العرب لجاجةً صغَّروا معها تاريخَهم الإسلامي، وقلَّلوا من عظمةِ مُلْكِهم، ودينِ دولتِهم، مدَّعين أنهم ليسوا أهل الإسلام ولا أصله ولا كل من عمل له، فقد شركهم في ذلك العجم، وأنهم إنْ عَدُّوا الفخر كلّه مُلْكاً فإن للعجم، بل للشعوبيّةِ ملوكَ الأرضِ كلّهم، وإن اعتَقَدُوا أنه نُبُوَّةٌ فإن من العجم الأنبياء والمرسلين قاطبةً ما خلا أربعة، ومنهم المصطفون من العالمين آدم ونوح، وهما العنصران اللذان تفرّع منهما البشر، فالعجم هم الأصل، والعرب هم الفرع[1].

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٤٠٥ ، ٤٠٧.

(٥) تَمجيدُ الشُّعوبيةِ للفُرْس

في مقابل تحطيم الشعوبيّة لماضي العرب الجاهلي، وحاضرهم الإسلامي، ودفعهم عنهم كل فضيلة، وإلحاقهم بهم كل رذيلة، نسبوا كل مكرمة إلى أنفسهم، فهم لا العرب أصحاب الأعراقِ الناصعةِ والأنساب الرفيعة، وأبناء الملوك والأمراء، ليس بينهم الوضعاء والأدنياء، وأعجب من ذلك ادِّعاؤُهم إلى إسحاق بن إبراهيم، وفخرُهُم به على العرب بأنه لسارة الحرة، وأن اسماعيل أبا العرب لهاجر الأمة، فَبَنوا الأحرار هم العجم، وبنو اللَّخناء هم العرب[1]. وهم أصحاب البأس والنجدة والنخوة والعفة[2]، وأهل البيان المعجب، والكلام المطرب الذي يملأ السمع والقلب «ومن أحبَّ أنْ يَبلُغَ في صناعةِ البلاغة، ويَعرِفَ الغريبَ، ويتبحَّرَ في اللغة فليقرأ كتاب كارْوَند (صناعة المديح والثناء)، ومن احتاجَ إلى العَقلِ والأدبِ والعلمِ بالمراتبِ والمُثلانِ والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في سير الملوك[3]». وهم أرباب الأسلحة الراقية، والخُططِ

---

(١) كتاب العرب ص: ٣٥١.

(٢) كتاب العرب ص: ٣٦١.

(٣) البيان والتبيين ٣: ١٠.

العسكرية المحكمة المتقدمة[1] ، وأهل الممالك والدول والمدائن والنظم والأحكام والصناعة والفلسفة والفنون والآداب[2] . ولم يزالوا يغالون في مديح أنفسهم والثناء على ماضيهم ، ويتكثرون في رفع أقوامهم وملوكهم تكثراً بعيداً حتى نسبوا إلى دول الفرس القديمة ما لا يقره التاريخ من مَدَنِيَّةٍ وآثار[3] ، وحتى وصفهم الجاحظ بأنهم «أصحابُ نَفْجٍ وتَزَيُّدٍ ولا سيما في كل شيءٍ يدخُلُ في باب العصبية ، ويزيد من أقدار الأكاسرة[4]» .

وعلى نحو ما قَرَنُوا ذَمَّهُم لعربِ الجاهليَّة وعَيْبَهُم لهم بمديح الفرس والتَّنويهِ بهم ، فكذلك قَرَنُوا تأليفهم الكتبَ في مثالبِ عرب الجاهليّة بتأليفهم الكتبَ في مناقبِ الفرس وتاريخهم ، وجاوزوا ذلك إلى المقارنة بينهم وبين العرب ، وتفضيلهم لهم عليهم ، فقد وضعَ الهيثمُ بن عدي ، ربيبُ الحسن بن سهل كتاب تاريخ العجم ، وكتاب أخبار الفرس ، وكتاب من تزوَّجَ من الموالي في العرب[5] وصنف أبو عبيدة كتاب الموالي ، وكتابَ فَضائل الفرس[6] ، وألف سعيد بن حميد البَخْتكان الذي كان يدعي أنه من أولاد ملوك الفرس ، والذي كان شديد العصبية على العرب كتابَ انْتِصافِ العَجَمِ من العرب ، وكتاب فضل العجم على العرب وافتخارها[7] ، ومثله سهل بن هارون الفارسي صاحبِ خِزانَةِ الحِكمَةِ للمأمون. فإنه

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ١٣ .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٤٠٥ .

(٣) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص : ١١

(٤) الحيوان ٧ : ١٨٩ .

(٥) الفهرست ص : ٩٩ ، ١٠٠

(٦) الفهرست ص : ٥٣ ، ٥٤ .

(٧) الفهرست ص : ١٢٣ .

كان شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة[1] .

واندفعوا يُهولون حَظَّ الفُرْسِ في الإسلام ، وجهادهم في سبيله ، مُزَيِّفين بعضَ الأحاديثِ التي تُرْجِعُ أصلَ قريش إلى النبط ، وتنفيهم عن العرب[2] ، ومُلفِّقينَ أحاديثَ كثيرة في فَضْلِ الفُرْسِ واصطناعِ الرسول لهم من دون العرب ناسبين إياها إلى الثِّقاتِ من الصحابة والتابعين ، حتى لا يَتَطَرَّقَ الشكُّ إليها ، وهي أحاديث استغلوا فيها سَلْمان الفارسي استغلالاً بالغاً ، فرووا له من الزهد والحكمة والعلم ما لم يُروَ لأي صحابي آخر ، وزعموا أن الرسول رشحه ورشح قومه الفرس لبلوغ أعلى درجات الإيمان . وعلى الجملة فإنهم اتخذوه وسيلةً لبيان عظمتهم ، وأن لهم فضلاً كبيراً على العرب المسلمين[3] ، بل لقد قالوا : « نحن معاشر الموالي بقديمنا في العَجَمِ أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذي صار لنا في العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القديمُ دون الحديث ، ولنا خصلتان وافرتان فينا جميعاً ، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة[4] » .

وتخطُّوا التَّعريض بالعرب في الجاهلية والإسلام ، والإشادة بماضي الفرس وحاضرهم إلى صَبْغِ الحياةِ العباسية الذاتية والرسمية بالطابع الفارسي[5] ، واجتهدَ كل مولى فارسي تقلَّدَ منصباً من المناصب الهامة في تلوينه باللون الفارسي ، وكان للكتاب خاصة أثرٌ كبيرٌ في إشاعة الثقافة الفارسية ، إذ ترجموا إلى العربية كتباً كثيرة في الشرائع والنظم والتقاليد والآداب[6] ، ليفسحوا المجال واسعاً لتيار الثقافة

---

(١) الفهرست ص : ١٢٠ .

(٢) معجم البلدان ٤ : ٣١٨ ، ولسان العرب ٢ : ٤٨٧ .

(٣) ضحى الاسلام ١ : ٧٥ .

(٤) رسالة بني أمية ، برسائل الجاحظ للسندوبي ص : ٢٩٩ .

(٥) العصر العباسي الأول للدكتور شوقي ضيف ص : ٢٠

(٦) ضحى الإسلام ١ : ١٧٧ .

والحضارة الفارسية ، ويبثوه في أركان المجتمع العربي الإسلامي ، حتى يشلُّوا به تيار الثقافة والحضارة العربية الإسلامية ، ويعطلوا مَدَّه ، مما يدلُّ على أن مناداتهم بالتَّسويَةِ بينهم وبين العرب في العصر الأموي ، واستنادهم فيها إلى تعاليم الإسلام السمحة ، كان حيلةً بارعةً في خطة شاملة قرروا تنفيذها على مراحل ، وهي حيلة ألجأهم إليها صَدُّ الأمويين لنزعتهم القومية صداً عنيفاً ، ومعاقبتهم عليها عقاباً شديداً[1] ، ومما يشير إلى أنهم كانوا يَرْمونَ في آخرِ المطاف إلى الاستقلال والانفصال ، آية ذلك أنهم لم يرحبوا بالعباسيين الذين سووا بينهم وبين العرب وردّوا إليهم حقوقهم السياسية ، بل استقبلوا حكمهم بالثورات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية . وهي ثورات أشعلت في عهد المنصور ، واستمرَّت ملتهبةً في عهد المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم ، ولم تتوقف إلا بعد إنشاء الإمارات الفارسية المستقلة[2] .

---

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٤ : ٤١٢ ، ٤٢٣ ، ومقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص : ٢٦٩ والصراع بين العرب والموالي ص : ٣٣ .

(٢) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص : ١٤ .

الفصل الرابع

الشعوبية في الشعر

(١) بشارُ بن بُرْد

لعل أنكر شعراء العصر العباسي الأول من الموالي الذين تَعمَّقتهم النعرةُ الجنسية والعصبيةُ الحضارية هو بشار بن برد ، فهو أكبر ممثِّلٍ للشعوبية بينهم ، إذ يرسمُ في شعره التطور التاريخي لحركتهم ، مصوّراً انبثاق شعورهم القومي ، وانْبعاثَ تَطلُّعِهم إلى الظهور والتميز من العرب ، والتَّخلي عن الولاء فيهم ، والوفاء لهم ، قبل أنْ يَعْظُمَ سلطان الفرس والخراسانيين في أيام العباسيين الأولى ، ومُشَخِّصاً تَصاعُدَ إحساسهم بكيانهم ، وإفْصاحَهُمُ الحَذرَ المَحْسوبَ عن ذواتهم ، وشموخهم بأجناسهم ، وبدايةَ معارضتهم للعرب ، وغَمْزَهُمْ لهم بعد أن استقرَّ وَضْعُهُم ، وارتفَعَتْ مَنْزِلَتُهُمْ في عهد أبي جعفرٍ المنصور[١] ، ومُعَبِّراً أيضاً عن تَوَهُّجِ يَقْظَتِهم القَومية ، وما رافَقَها من تَنَفُّخِهم بأنفسهم وأعْراقِهم ، واعتزازهم بماضيهم ، وحياتهم المترفة الراقية ، وتَسَخُّطِهِمْ على العرب ، وتَنَقُّصِهِمْ لحياتهم الخشنة الجافية ، وإدلالهم على العباسيين بما أسْدَوْا إليهم من فَضْلٍ بمناصَرَتِهم لهم على الأمويين والعلويين ، وتمكينهم إياهم من الفوز بالخلافة ، ومُحافَظَتِهِمْ على حُكْمِهم ، ومَنْعِهم له من الزَّوال ، حين قوي وجودهم ونفوذهم في عهد المهدي[٢] .

---

(١) تاريخ الطبري ٨ : ١٦ ، ٩٢.

(٢) تاريخ الطبري ٨ : ١٧٥.

وبيان ذلك أنه لم يكن يحس أصله الخراساني في العصر الأموي ، بل كان مشدوداً إلى مواليه العقيليين ، مُعْتَدّاً بانْتِمائِهِ إليهم ، مُتَبَنِّياً لمواقفهم ، مُدافعاً عن سياسَتِهم ، مُصَرِّحاً بذلك تصريحاً مُجَلْجِلاً ، كقوله يفتخر بولائه في بني عقيل[1]:

إنني مِنْ بني عُقَيْلٍ بن كَعْبٍ مَوْضِعَ السَّيْفِ من طُلى الأعناقِ

وقوله متمدحاً بانتسابه إليهم ، ومباهياً بقوتهم وامتناعه بهم[2] :

أمِنتُ مَضَرَّةَ الفُحَشاءِ أني أرى قَيْساً تَضُرُّ ولا تُضَارُ
كأنَّ الناسَ حين تَغيبُ عنهم نباتُ الأرضِ أخْطَأَهُ القِطارُ

وقوله مُمجِّداً لبطولتهم ونكايتهم بأعدائهم ، ومُؤَازَرَتِهم لمروان بن محمد ، وفتكهم بالخارجين عليه[3] :

أُلاكَ الأولى شَقُّوا العَمَى بسيوفهمْ عن العينِ حتى أبصَرَ الحَقَّ طالبُهْ
إذا رَكِبُوا بالمَشْرِفيَّةِ والقَنَا وأصبحَ مروانٌ تُعَدُّ مَواكِبُهْ
فأيُّ امرىءٍ عاصٍ وأيُّ قبيلَةٍ وأرْعَنَ لا تَبكي عليه قَرائِبُهْ

فلما طَوَّح العباسيون بالأمويين ، وقَوَّضوا سلطان أنصارهم من القَيسيِّين وسائر المضريين ، وأشركوا المهالبة اليمنيين ، والشيبانيين الربعيين في الإدارة والقيادة ، نُوّاباً عن العرب المسلمين ، وَرَدُّوا الاعتبار إلى الموالي ، ورفعوا من قدر الخراسانيين ، ضَعفَ شعوره بالانتماء إلى قيسٍ ، وأخذ يتأثر بالشعارات الإسلامية التي أطلقها

---

(1) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣ : ١٣٩ .

(2) ديوانه ٣ : ٢٥٠ ، والأغاني ٣ : ٣٩ .

(3) ديوانه ١ : ٣١٦ ، والأغاني ٣ : ٢٣٦ ، وانظر ص : ١٦٢ ، فإن له قطعة أخرى يعتد فيها بقيس ومضر .

العباسيون ، معلنين فيها أنَّ العرب وغيرَهم من المسلمين مُتكافِئونَ متساوون في الحقوق والواجبات ، لا فرق بينهم[1] ، ولا فَضْلَ لأحدٍ منهم على أخيه ، فمهَّدَ له ذلك السَّبيلَ إلى الانفكاك من محالفته لبني عُقَيل ، وإلى التَّبرُّؤ من ولائه للعرب ، فإذا هو يهتفُ أنه مولى لله ، وأن الاعتصام بحبله خير من محالفة أعز القبائل وأقواها كتميم وقريش ، إذ يقول[2] :

أصبحتُ مولى ذي الجلالِ وبعضُهمْ مَوْلى العُرَيبِ فخذْ بِفَضْلِكَ فافْخَرِ
مولاكَ أكرمُ من تميمٍ كلِّها أهلِ الفَعالِ ومن قريشِ المَشْعَرِ
فارجعْ إلى مولاكَ غيرَ مُدافَعٍ سبحانَ مولاكَ الأجَلِّ الأكبرِ

وبذلك يصوّرُ تنازُلَهُ عن ولائِهِ في بني عُقَيْلٍ وتَنَكُّرَهُ للعرب ، وادّعاؤُهُ الإلتجاء إلى الله والاعتماد عليه ، المرحلة الأولى من كُفرِهِ بالعرب ، وتَمَلْمُلِهِ وتَمَلْمُلِ الموالي ، وسعيهم إلى الانفلات من الكيان القبلي العربي ، والتفرُّد والبروز في المجتمع العباسي .

ثم إنه عندما رأى العباسيين زمنَ أبي جعفر المنصور يستمرون في تألفهم للموالي ، والخراسانيين ، ومصانعتهم لهم ، وفاقاً لسياسة الموازنة بين نفوذهم ونفوذ العرب التي الْتَزَمُوها صيانةً لمصلحتهم وخلافتهم ، حتى سلخوهم من ارتباطاتهم القبلية ، وأنعشوا آمالهم القومية ، ونزعاتهم الاستقلالية ، لم يلبث أن راح يصرّح بِنَسَبِهِ الخراساني ، ويفتخر به ، مُدَّعياً أنه من سلالة ملوك العجم ، ولكنه كان محتاطاً لنفسه أشدَّ الاحتياط في هذه المرحلة الانتقالية الحرجة ، التي كان النفوذ الفارسي الخراساني يسير فيها جنباً إلى جنب مع النفوذ العربي في القصر العباسي ،

---

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، وشرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٤ .

(٢) الأغاني ٣ : ١٣٩ .

ولذلك مضى يَزاوج في إعجابه بذاته، وشموخِهِ بمنزِلتِهِ بين التعظيم لمحتدّه الخراساني العجمي، ومنبته العامري العربي ناسباً نفسه إلى الفريقين، ومن ذلك قوله[1] :

أنا ابنُ ملوكِ الأعجمينَ تَقَطَّعَتْ عليَّ ولِي في العامرينَ عمادُ

وقوله[2] :

ونُبِّئْتُ قَوْماً بهمْ جِنَّةٌ يقولونَ مَنْ ذَا وكنتُ العَلَمْ
ألا أيها السائلي جاهداً لِيَعْرِفني أنا أَنفُ الكَرَمْ
نَمَتْ في الكِرامِ بني عامرٍ فُروعي وأَصلي قريشُ العجمْ

حتى إذا رسخ وجود الفرس والخراسانيين في المجتمع العباسي، وأصبح لهم كيان واضح مستقلّ فيه، وغلبت مظاهر حياتهم وألوان حضارتهم عليه لم يعد يعبأ بالعرب، ولا يُبالي بِلَومِهم، ولا يكترث لِغَضَبِهِمْ، فألقى عن وجهِهِ القناع، وأسفر عن شعوبيته الحاقدة البغيضة، وكفرَ بالعرب والعروبة، فإذا هو إنْ تمدح بشخصيّته لا يتمدَّحُ إلا بعنصرِه الخراساني، أما عروبةُ مَنْشَئِهِ وزِيِّهِ ولسانه فأسْقَطَها وأغفَلَ ذكرَها، إذ يقول[3] :

وإني لَمِنْ قومٍ خراسانُ دارُهُم كرامٍ وفَرْعي فيهمُ ناضرٌ بَسَقْ

(١) ديوانه ٣: ١٠٥.

(٢) الأغاني ٣: ١٣٨، وديوانه ٤: ١٥٦.

(٣) البيان والتبيين ١: ٥٧.

ويقول[1] :

مِنْ خراسان وبيتي في الذُّرى ولَدَى المَسْعاةِ فَرْعي قَد سَبَقْ

فأصلُه وفرعُه أمسيا خراسانيين خالصين ، بعد أن كان أصله خراسانياً ، وفرعه عربياً !

وإذا هو يهاجم الأعراب مزرياً بحياتهم الوعرة القاسية ، ومآكلهم الفظة ، وملابسهم الغليظة ، وأنسابهم المغمورة ، معلياً نفسه عليهم ، وملحقاً لها بأبناء ملوك الفرس والعجم ، وزاعماً أنه يطرق أبواب الخلفاء ، ويحظى عندهم بمكانةٍ سَنِيَّةٍ ، ويعيش معيشةً ناعمةً ، وذلك قوله وقد نافست ابنته أعرابيةٌ فقيرةٌ[2] :

تقول ابنتي إذْ فَاخَرَتْها غريبةٌ مُؤَزَّرَةٌ بالوبرِ في شَوْذَرٍ قِدَد[3]
لها والدٌ راعٍ إذا راحَ عندَها بأشويةٍ من قلبِ ضبٍّ ومن كبدْ
أبي نجلُ أملاكٍ وزَوْرُ خليفةٍ يَلينُ له بابُ الهُمامِ إذا وَفَدْ
وأنتِ لقاةٌ بينَ خِلْفٍ وأكلبٍ متاعٌ لمن جازَ السبيلَ ومَن قَصَدْ[4]
وإنكِ من قومٍ عليهم غضاضةٌ ترى غِيَراً بالنفسِ من عيشِها النَكَدْ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٥٧

(٢) ديوانه ٣ : ١٥١ .

(٣) الشوذر : ثوب مشقوق ليس له كمان ولا جيب يلبس على الكتفين. القدد : الملفق من قطع .

(٤) الخلف : ضرع الناقة

معاودةٌ حَمْلَ الهَشيمِ بكفِّها على كاهلٍ قد كادَ يَأْوَدُ أو أَودْ[1]

لشتانَ ما بيني وبينك في التُّقى

وفي الحَسبِ الزَّاكي وفي العيشِ والحَفَدْ[2]

ويقول معرِّضاً بأعرابي آخر قال له: «ما للموالي وللشعر» تعريضاً نفذ منه إلى الافتخار بأصله الخراساني، وأنه من جملة أبناء مرازبة طخارستان، أهل اليسار والترف في مطاعمهم اللذيذة، وأوانيهم الذهبية والفضية، وملابسهم الفاخرة، ومراكبهم الفَخْمة، وأن وقوع جدّه في أسر المهلب بن أبي صفرة، واسترقاق ابنه برد، واسترداده لحريته بالعتق، لا يطعن في شرفه، ولا يَغُضُّ من قيمته، وإنْ لحقه به شيء من العار فردّه إلى ما يحمله الزمان في أعطافه من مفارقات وتغيرات، يعزّ بها اللئام، ويذلّ بها العظام، مندّداً بصنيع العرب مع الفرس والخراسانيين، لأنهم بعد أن قهروهم بغوا عليهم واستعبدوهم، ومنوِّهاً بحسن سياستهم للعرب حين سادوهم وحكموهم. ثم انطلق يعيِّر ذلك الإعرابيّ بالبَطَرِ والأَشَرِ، وأنه حين لانتْ حياتُهُ ورقَّتْ بمخالطتِهِ للموالي ومعاشرته لهم، هبَّ يطاولهم، بل يطاولُ بني الأحرار منهم مُسخفاً حياته الماضية المتوحشة القاسية، يوم أن كان جلفاً همجياً يشرب مع الكلب إذا عطش من حوض واحد، ويضرب في مناكب الأرض، ويرتاد مجاهل الصحراء بحثاً عن قوت يقيم به رمقه، فلا يجد إلا أرذل حيوانات الصحراء، فيفرح بها، ويراها صيداً ثميناً، وقد تفوته فيبقى جائعاً، وحينئذ كان يضطرُّ إلى تأجير بعيرِهِ ليفوزَ

(١) أود: أعوج

(٢) الحفد: الأعوان والخدم.

بِبُلْغَةِ العيش ، خاتماً سخريته منه باستهجانه مطاولته له ، ونافراً من نزوله بينَ بني الأحرار ، وداعياً عليه بالهلاك والاحتراق[1] :

سأخبرُ فاخرَ الأعرابِ عَنِّي	وعنه حين بارَزَ للفِخارِ
أنا ابنُ الأكرمينَ أباً وأماً	تَنَازَعَني المرازبُ من طُخارِ
نُغاذَى الدَّرْمَكَ المنفوطَ عزّاً	ونشربُ في اللُّجَينِ وفي النُّضارِ[2]
ونَركَبُ في الفَريدِ إلى النَّدامى	وفي الدِّيباجِ للحَرْبِ الحبارِ[3]
أسِرْتُ وكم تَقَدَّمَ من أسيرٍ	يُزَيِّنُ وَجهَهُ عقْدُ الإسَارِ
إذا انقَلَبَ الزمانُ علا لعبدٍ	وسفَّلَ بالبَطاريقِ الكِبارِ
مَلَكْنَاكُمْ فَغَطَّيْنَا عليكُمْ	ولم نَنْصِبْكُمْ غَرَضاً لِزارِ
أحينَ كُسِبتَ بعدَ العُرْيِ خزّاً	ونادمتَ الكِرامَ على العُقارِ
ونلتَ منَ الشَّبارِقِ والقَلايا	وأُعْطيتَ البَنَفسَجَ في الخُمارِ[4]
تُفاخِرُ يا ابنَ راعيةٍ وراعٍ	بني الأحْرارِ حَسْبُك من خسارِ
لعمرُ أبي لقد بدلتَ عيشاً	بعيشكَ والأمورُ إلى مجاري
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قراحٍ	شَرِكْتَ الكلبَ في ذاكَ الإطارِ
تُريغُ بخطبةٍ كَسرِ الموالي	ويُنْسيكَ المكارمَ صَيْدُ فارِ
وتَغدُو في الكِراءِ لِنَيْلِ زادٍ	وليسَ بسيِّدِ القومِ المكاري
وتَنْتَسِجُ الشِّمالَ للابسيها	وتَرعَى الضأْنَ بالبلدِ القِفارِ[5]

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٩ ، والأغاني ٣ : ١٦٦ .

(٢) تغاذى : نطعم. الدرمك المنفوط : السميذ المطبوخ.

(٣) الفريد : الفضة المصنوعة. الحبار : برود الحرير.

(٤) الشبارق : لون من الطعام. الخمار : ما يعتري الشارب من الألم. واعطيت البنفسج : عولجت بمائه من صداع السكر.

(٥) الشمال : جمع شملة وهي كساءٌ يتَّشحُ به.

وفَخرُكَ بينَ يربوعٍ وضبٍ على مثلي من الحَدَثِ الكبارِ
مقامُكَ بيننا دَنسٌ علينا فليتكَ غائبٌ في حرِّ نارِ

ولولا أنه كانَ يَطوي نَفْسَهُ على بركانٍ هائجٍ من الغَيْظِ والمَقْتِ والبُغْضِ للعرب لما انفجر هذا الانفجار ، ولما تهوّر هذا التهوّر ، فإن مفاخرةَ الأعرابية لابنته ، وجهل الأعرابيّ بمكانته لا يجرّان شاعراً كبيراً مثله إلى الطعن على الأعراب ، والهزء منهم ، ولا إلى التعصّب للعجم ، والتفخيم لهم ، وآية ذلك أن له رقعةً من قصيدة نظمها في عهد المهدي ، يتهكّم فيها بالأعراب ، بل بقبائل العرب النابهة ، ثالباً مواليه القيسيين أمجادهم ، وسالباً أشراف الربعيين محامدهم ، إذ يقول فيها[1] :

إذا لم تَرَ الذُّهلي أنوكَ فالتَمِسْ له نَسَباً غيرَ الذي يتنسَّبُ
وأمّا بنو قَيسٍ فإنَّ نَبيذَهُمْ كثيرٌ وأمَّا خَيرُهُم فمغيبُ
وفي جَحْدَرٍ لؤمٌ وفي آلِ مِسْمَعٍ صَلاحٌ ولكنْ دِرْهَمُ القومِ كَوكَبُ
وسيِّدُ تَيْمِ اللاتِ عندَ غدائِهِ هزيزٌ وأما في اللقاءِ فَثعلَبُ
وحيّا لُجَيْمٍ قَسْوَرانِ تُنُزِّعَتْ شَباتُهما لم يبقَ نابٌ ومخلبُ[2]
وأنذلُ مَنْ يمشي ضُبَيِّعة إنهم زَعانِفُ لم يَخْطِبْ إليهم مُحَجبُ
ويشكرُ خصيانٌ عليهم غضارةٌ وهل يُدْرِكُ المجدَ الخصيُّ المجبُ

وجعلَ يهلِّلُ لسياسةِ العبّاسيِّين الإسلاميّة التي رخَّصَتْ له ولغيره من الموالي في السلطة والسيطرة والرفعة والجاه ، وفي الشَّغَبِ على العرب والهجاء المرِّ لهم تهليلاً حمل فيه لا على الأعراب ، بل على أكرم العرب من الأمويين والعلويين من بني

(١) ديوانه ١ : ٣٤٣.

(٢) حيا لجيم : هما حنيفة وعجل. القسور : الأسد ، الشباة : الظفر.

الحسن مستغلاً معاداة العباسيّين للفريقين ، تهليلاً لم يَرْعَ معه عهداً ولا ذمّةً لأولي نِعْمَتِهِ ، ولم يَرْتَدِعْ عَنْ المَنِّ عليهم بحراسةِ الخراسانيِّين ، بني الأحرار المظفّرين لهم ، وحمايَتِهِم لمُلْكِهِمْ ، بل تنفّج بذلك كلّه عليهم ، وذكّر المهدي نفسه بأنهم هم الذين انتزعوا الخلافة له ولقومه ، ووهبوها لهم ، وأنهم هم الذين رفعوه إلى الملك ، وأحاطوا به يذودون عنه ، يقول[1] :

أَنَصَفْتُمونا فعابوا حكمكم حَسَداً والله يَحميكُم من غِلِّ حُسَّادِ
سَطَوْا علينا بأَنْ كنّا مَواليَكُمْ وعَيَّرُونا بآباءٍ وأجدادِ
لمَّا رأوْنا نُواليكم ونَنصُرُكمْ ثاروا إلينا بأضغانٍ وأحْقادِ
دونَ الخليفةِ منا ظِلٌّ مأسدِهِ ومن خراسانَ جُنْدٌ بعدَ أجنادِ
قومٌ يذبونَ عن مَوْلى كَرامَتِهم ويُحسنونَ جوارَ الواردِ الصَّادي
إنا سَراةُ بني الأحرارِ وَقَرْنَا رَكْضُ الجيادِ وَهَزُّ المُنْصلِ البادي
في كُلِّ يومٍ لنا يَدٌ ومُلحَمَةٌ حتى سَبَأْنا بأسيافٍ وأغمادِ
سُقْنَا الخلافةَ تَحْدوها أَسِنَّتُنَا والقَاسِطونَ على جَهْدٍ وإِسْهادِ[2]
حتى ضَرَبنا على المَهْديِّ قُبَّتَهُ فُسطاط مُلْكٍ بأطنابٍ وأَوتادِ

وهو يبلغ بذلك أقصى غاية للشعوبيّة ، ويُعبِّرُ عن أعلى درجات الوعي القومي الفارسي والخراساني ، مما يتضح أيضاً في قصيدته البائية المشهورة[3] فهي أقوى

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٠.

(٢) القاسطون : الجائرون.

(٣) ديوانه ١ : ٣٧٧.

شاهدٍ على ما أَوْغَلَ فيه هو وأمثالُهُ من الشعوبيين من التَّبجُّحِ على العرب والعباسيين.

وفي ذلك ما يكشف عن أنَّ بشار بن برد كان من أخطر دعاة الشعوبية، فقد كان من أشدّهم حقداً على العرب، وأكثرهم إزراءً بهم، وأطولهم افتخاراً بالفرس والخراسانيين، وأوضحهم تصويراً لأمانيهم الاستقلالية، وأبينهم تعبيراً عن أفكارهم القومية، ولم يقف في شعوبيته عند التَّشعُّبِ على العرب، والتَعَصُّبِ للعجم، فقد كان يقوم بتثقيف الموالي وتَوعيَتِهم، بَعْثاً لشخصياتهم، وتَنْشيطاً لكيانهم، مُحَرِّضاً لهم على الانفصال عن أحْلافِهِمْ، والعودة إلى أجناسهم، والتَّمسكِ بتراثهم، تحريضاً عَلَنِيّاً وقف العربُ على مراميه، فَتَصَدُّوا له هاتفين به أنْ «قد أفسدت علينا موالينا، تدعوهم إلى الانتفاء منا وتُرَغِّبُهم في الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء فينا»[1]، تحريضاً حَفِظَهُ له رؤوس الشعوبية، معظِّمين تضحياته في سبيل إنهاض بني قومه من غفلتهم وسباتهم، فإذا طاهر بن الحسين يسأل عمَّن بقي من ولده ليحتفي به، بعد انتصار الفرس على العرب، بقتلهم الأمين، وتتويجهم المأمون[2].

بل إن شعر بشار في الشعوبية يشتمل على بعض مسائل الخلاف بين العرب والموالي، ويدلّ على أنها كانت تضرب بجذورها في أعماق المجتمع العباسي منذ ابتداء الدولة العباسية، مثل قضية مساهمة الفريقين في الثورة العباسية، وقضية تنافسهم في الأنساب، وقضية تسابقهم في الملك والحضارة، وما كان يتخرَّصه الموالي من أنهم أصحاب الثورة والخلافة، وذرية الملوك، ونسل الأحرار، وأهل الملك والحضارة،

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٠٣.

(٢) الأغاني ٣ : ١٩٩.

وهي قضايا نراها شاخصة في شعره بتراكيبها وقوالبها التي كان الشعوبية يصوغونها فيها، ويرددونها في القرن الثالث، والتي نقلها الجاحظ عن ألسنتهم في «رسالة مناقب الترك»[1] وابن قتيبة في «كتاب العرب»[2]، وابن عبد ربه في الفصل الذي عقده للشعوبية وأهل التسوية وردّهم على ابن قتيبة[3].

(١) رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ١ : ٥.

(٢) رسائل البلغاء ص : ٣٤٤.

(٣) العقد الفريد ٣ : ٤٠٣، ٤١٠.

(٢) أبو نواس

لا يذكر أبو نواس إلا تذكر معه الثورة على وصف الأطلال ، ذلك التقليد الفني الذي استقر في فواتح القصائد العربية منذ الجاهلية ، وظل من أبرز مميزاتها وأشهر تقاليدها في العصور اللاحقة ، وفي كل بلد غرس فيه أبناء العرب شجرة الشعر ، سواء في مشارق الأرض أو في مغاربها ، في الشام والعراق وفارس ، وفي مصر والأندلس . فهل كان أبو نواس أول من دعا إلى نبذ الوقوف على الديار الدائرة والإعراض عن وصفها وافتتاح القصائد بها ، أو أنه سبق الى ذلك؟ وهل هو الذي رفع لافتات الثورة في العصر العباسي ، أو أن شعراء كثيرين غيره انضموا إلى موكب ثورته وشاركوه في حمل لافتاتها؟ وهل كانت ثورته تستمد تعاليمها وأهدافها من المنابع الشعوبية ، أو أنها كانت ثورة حضارية خالصة؟

لقد كان الكميتُ بن زيدٍ أولَ مَنْ رَفعَ صوته منادياً بترك الوقوف على المنازل العافية ووصف ما فيها من آثار بالية ، مدفوعاً إلى ذلك بدافع ديني محض هو حبه لآل البيت ، غير أن صوته لم يكن مدوياً بحيث تتجاوب أصداؤُهُ في كل مكان ، كما أنه لم يقرنه بمحاولات جادة لاستحداث ألوان من المقدمات تكون مستخلصة من طبيعة الحياة لعهده ، ومعبرةً خير تعبيرٍ عنها ، ومصوّرةً أصدق تصوير لها ، بحيث تكون طراز العصر الذي يتهافت الشعراء عليه ، ويروجون له . فقد قصر جهوده على

أن يعلن في ثنايا وصفه للأطلال وتبيانه لعفائها أنها لا تستثيره ولا تحظى باهتمامه ، مُعَلِّلاً ذلك بأن ما يشغله هو الهاشميون والدفاع عن قضيّتهم والانتصار لحقهم[1] . ومع ذلك فإنه كان يفصل في أوصاف الديار ويتأنى في ذِكْرِ تَقَالِيدِها حتى يُحيطَ بكلّ دقائقها مما جعل «يوهان فك» يسجل له أنه تحول بالنسيب «تحولاً سلبياً» ورفعه إلى مرتبة الخلق الفني ليس غير[2] .

وتلك هي المحاولة الأولى التي حاولها الكميت في العصر الأموي والتي لم يكتب له التوفيق فيها ، لأنه كان يقف في الميدان وحيداً ، ولأنه لم يرتكز في دعوته إلى أصول جديدة . ومن أجل ذلك ظل يهتف حتى بح صوته ، وذهبت الرياح بهتافه دون أن يستمع أحد إليه أو يتعاطف معه . وإذا كانَ الكميتُ لم يترك أي أثر في معاصريه من الشعراء ، فحسبه أنه كان من السبّاقين إلى ذلك ، وإن اختلفت دعوته عن دَعْوَةِ أبي نواس في الدّوافع والنتائج.

والرّاجحُ أنَّ أبا نواس هو الذي دعا بقوة إلى إهمال استهلال القصائد بوصف الأطلال ،حتى لقد غطت شهرته على غيره من الشعراء الذين حملوا الشعارات معه ، وطوفوا بها في أنحاء المجتمع العباسي، لأنه كان كبيرهم وأجرأ مَنْ نَطَقَ عن لسانهم. وجَمْعُ أشعارهم التي هاجموا فيها وصفَ الأطلال يُبْرِزُ أثرَ كل واحدٍ منهم في تلك الثورة ، ويَظْهِرُ نصيبَهُ منها ، ويُبيِّنُ مَوْضِعَهُ فيها .

---

(١) انظر كتابي مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ص : ٢٠ — ٢٤ .

(٢) كتاب العربية ص : ٤٠ .

وأشهرهم أشجع السلمي ، فقد تبنى القضية ودافع عنها مراراً[1] في هُدوء وبغير جلبة أو ضوضاء. وهو دفاع ينتصر فيه للمحدثين ويحتج لهم بأن مسارح الشباب وأنواع الملاهي وأنماط الحياة الاجتماعية قد تبدلت في عصرهم وتَطوَّرتْ تطوراً شديداً ، مما يستدعي أن تتبدل المقدمات وتتطور مع تطور الحياة التي ترتبط بها أوثق ارتباط . وربما كانت مقدمة قصيدته الميمية في مدح محمد بن جميل أروع مثل عَبَّر فيه عن رأيه وبَيّنَ موقفه من تلك القضية ، إذ يقول[2] :

مالي وللرَّبْعِ والرسوم هنَّ طريقٌ إلى الهُمومِ
للَحْظُ طرفٍ وغَمزُ كفٍّ وخمرةٌ من بناتِ ريمِ
وصوتُ مثنًى يُجيبُ زيراً على حَشَا طفْلةٍ هَضِيمِ
وريحُ رَيْحانةٍ بمسكٍ تَدْعُو نَديماً إلى نَديمِ
أحسنُ من خيمةٍ ورَبْعٍ تَجْرَحُهُ الريحُ بالنَّسيمِ

والأبياتُ وثيقةٌ دقيقةٌ يَعْرضُ فيها أشجعُ لاتِّصالِ المقدماتِ بالبيئةِ وطراز الحياة فيها ، كما يطالب بأن تظل موصولةً بها ومعبرة عنها ومتطورة معها. فإذا كان فتيان البادية من الشعراء يلتقون بأترابهم من الفتيات في المراعي ومضارب الخيام حيث تنعقد بينهم وبينهن الصلاتُ والموداتُ ، فليس غريباً أن يَستَهِلّوا قصائدهم ببكاء عهود حبهم واسترجاع ذكرياتهم مع محبوباتهم في مرابع شبابهم ، أما هو وأمثاله من شباب الحاضرة فلا يعرفون من المرابع إلا أسماءها ، على حين يعرفون معرفةً وثيقةً مجالس اللهو ودور الغناء ، تلك التي يختلفون إليها ، وتنشأ تجاربهم العاطفية بها ،

---

(١) الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢١ .

(٢) الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ١١٢ .

والتي يؤلف الحب فيها بين قلوبهم وقلوب الإماء والقيان الفاتنات اللائي يصْدَحْنَ بأحلى الأنغام ويطفن عليهم بأقداح الخمر ، وينثرن الورود والرياحين بينهم ، لكي تحرك عواطف الحب الكامنة بنفوسهم ، وتهيج مشاعرهم وخواطرهم ، ولذلك ألا يكون من التزييف والتكلف أن يَنْصَرِفُوا عن وصفها وافتتاح قصائدهم بها إلى وصف الأطلال؟ ولم لا يكون من حقهم ، كما كان من حق أسلافهم ، أن يصدُرُوا في فواتح مطوّلاتهم عن واقع حياتهم؟

وعلى هذه الشاكلة أبيات أبي حيان الموسوس فإنه يدعو إلى التحلل من بكاء المنازل الدارسة ووصف النوق وما تقطع من الفلوات ، كما يدعو إلى وصف مظاهر الحياة الحاضرة ، وبخاصة مناظر قطربل وكرومها وخمورها ، فإنها أحق بأن توصف وأن يوقف عليها ، يقول[1] :

لا تَـبكِ هـنداً ولا المواعِيسا ولا لـرَبْـعٍ عـهـدتَ مـأنُوسا
وقِفْ بـقـطـربـلٍ ونُـزْهَـتِـهَـا واحْبِسْ بها عن مسيرِكَ العيسا

وفي المعاني السابقة تدور أبيات ديك الجن الحمصي اللامية ، فإنه يسخر فيها ممن يُحيُّونَ الديارَ المقفرة ، ويهزأ بمن يميلون إليها ويقفون عليها لأنها لا طائل تحتها ، ويصرح بأنه مستهتر بالخمر وزقاقها وأباريقها ، وبالغناء والقيان والإماء ، يقول[2] :

قـالـوا السلامُ عـليك يا أطلالُ قلتُ السلامُ على المُحيلِ مُحَالُ
عـاج الشـقـيُّ مرادُهُ دِمَنُ البلَى ومُـرادُ عَـيْنِي قُـلَّـةٌ وحِـجَالُ[3]

---

(1) طبقات ابن المعتز ص : ٣٨٥.

(2) ديوان المعاني ١ : ١٠٦ ، وانظر ديوان ديك الجن الحمصي ص : ٩٠.

(3) القلة : الجرة. الحجال : جمع حجلة وهو ستر يضرب للعروس في داخل بيتها.

لأغـــادِين الـــراحَ وهيَ زلالُ ولأَطْـرُقَنَّ الـبيتَ فيـه غـزَالُ

وإذا كان أشجع السلمي ، وأبو حيان الموسوس ، وديك الجن الحمصي يفضلون أنْ يستبدل بوصف الأطلال في أوائل القصائد وصف الخمر وتصوير مجالسها فإنَّ عبد الله بن أمية لا يَزْدري ذلك فحسب ، بل يزدري أيضاً كل ما يتصل به من أسماء جاهلية ، ومحبوبات راحلاتٍ ، ويتوجه بحبه فقط إلى غلامه «مهنا» الذي بهره وسَحره ، يقول [1] :

دعْ دارساتِ الـــطـــلولِ وكـــلَّ ربْـــعٍ مُـــحـــيـــلِ
ولا تصفْ دارَ سلـــمـــى ذَرْهَـــا لـــكـــلِّ جـــهـــولِ
ولا تـــقـــلْ آلُ لـــيلى قـــد آذنوا بـــرحـــيـــلِ
حسبي بحبٍّ مُـــهـــنَّـــا عـــمَّنْ غـدا في الـحُـمُـولِ
صَـــعْبِ الـــعِـــنـــانِ شموسٌ بـــالـــمُـــقْـــلَـــتَـــيْنِ قَـــتـــولِ

أما أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يوسف فيختلف رأيه عن آراء الشعراء السابقين ، لأنه لا يدعو إلى استبدال شكل بشكل ، ولا طراز بطراز ، بل يدعو إلى إهمال المقدمات كلها ، وإلغاء كل ما يتصل بها أو يتشعب عنها من وصف النساء ووصف الإبل والصحراء ، يقول [2] :

يا شاعراً يَصِفُ المهامه والسُّرى ويَـــلُومُ في دَيْـــمـــومـــةٍ يـهـمـاء
دعْ وَصفَ كلِّ نَجيَّةٍ وعَقيلةٍ تَهْوي كسربِ قطاً وسربِ ظباء
واقصدْ بمدحك سيداً تبهَى بهِ خُطبُ الخطيبِ ومدحةُ الشعراء

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٣٢٣.

(٢) الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ص : ٢٤٥.

وعلى هذا النحو أبيات مطيع بن إياس التي افتتح بها قصيدته الهمزية في مدح الغمر بن يزيد ، فإنه يكرِّرُ فيها المعاني ذاتها ، إذ يقول[1] :

لا تلح قلْبك في شقائهْ ودع المُتَيَّمَ في بلائِهْ
ودعِ النسيبَ وذكرَهْ فبِحَسْبِ مثلِكَ من عنائِهْ
واذكرْ فتَى بيَمينِه حتفُ الزمانِ لدَى التوائِهْ

وأطرف من هذا وذاك أن أبا المخفف عاذر بن شاكر يسخر من كل أنواع المقدمات ، فهو يقول[2] :

دعْ عَنكَ رسم الديارِ ودَعْ صفاتِ القفارِ
وعدِّ عن ذكرِ قوم قد أكثروا في العُقَارِ
وَصِفْ رغيفاً سَرِيًّا حكته شمسُ النهارِ

وكرر رأيه مرة ثانية شارحاً له ، ومُبَيِّناً جميع جوانبه ، إذ يقول[3] :

جانبتُ وصلَ الغانياتِ وصحوتُ عن وَصْلَ اللواتي
نَعِمَتْ بهنَّ عيونُ منْ واصلْنَهُ حتى المماتِ
فدعِ الطلولِ لجاهلِ يبكي الديارَ الخالياتِ
ودعِ المَديحَ لأمردٍ ولخادمٍ ولغانياتِ
وامْدَحْ رغيفاً زانَهُ حَرْفٌ يجلُّ عن الصِّفاتِ

---

(١) الأغاني ١٣ : ٢٩٧ ، وانظر شعراء عباسيون ص : ٣١.

(٢) كتاب الورقة ص : ١١٥.

(٣) كتاب الورقة ص : ١١٥.

وأبو المخفف إنما يتظرَّفُ ويميلُ إلى الدعابةِ والتَّصعلك ، فقد كان فقيراً معدماً يدور بغداد كلها مستجدياً التجار والصناع وذوي السلطان ما يقيم به أوده ويبقى على حياته[1] . ولذلك لا يَعْنيهِ في شيء هؤلاء الّذين يتمسكون بالقديم ويصفون المعاهد الخاوية والمفارز المهلكة ، ولا أولئك الذين يدعون إلى الجديد وينغمسون في اللهو والمجون ، فيشربونَ الخمر ويهيمون بالغلمان والحسان والقيان ، فإن ذلك كله ليس من شغله ، إنما الذي يشغله هو الاستجداء والتصعلك والبحث عن رغيف الخبز.

ومعنى ذلك أن أبا نواس لم يكن يصول في الميدان وحده ، بل كان يشركه دعاة كثيرون ، ينادون بالتجديد ، ويدعون إليه دعوات مختلفة . فمنهم من كان يُؤثِرُ تغييرَ مقدمة بمقدمة ، ومنهم من كان يفضل تركَ المقدمات كلها ، والأخذ بأهداب الموضوع مباشرة دون بسط أو تمهيد.

ومع ذلك فإن أبا نواسٍ كانَ أهمَّ مَنْ حَمَلَ رايات الثورة ورفع شعاراتها ، وعمل على نشرها وإعلانها ، كما أن شهرته قد رَوَّجَتْ لثورَتِهِ على المقدّمات الطللية . فقد استَهلَكَ طاقَتَهُ ، واستفرغَ وقته في إذاعة تعاليمها والدعوة لها ، كما عمل جاهداً على توضيحها لعلها تشيع وتذيع ، ولعل أنصار القديم ينزلون عن رأيهم ويؤمنون بها وينضمون إليها. وبذلك يحقق النصر لنفسه في جبهتين مختلفتين : فهو من ناحية يحاول كسب الأنصار ، وهو من ناحية ثانية يحاول الانتصار على خصومه[2] .

---

(١) المصدر نفسه ص : ١١٤ .

(٢) انظر ديوانه ص : ٦ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٩٧ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٥٧ ، ٦٧٣ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٩٨.

ولكن ابا نواس لم يكن يجْهَرُ بدَعْوَته في فواتح مدائحِه ، فإنها جميعها تكادُ تخلو خُلُواً تاماً من أية إشارةٍ إليها ، وإنما كان يذيعها في فواتح خمرياته ، فإن في ديوانه ما يقرب من أربعين خمرية بين مقطوعة وقصيدة كلها مرفوع عليها لافتات الثورة وشعاراتها ، التي كان يدعو فيها دعوة صريحة إلى مذهبه ، ويهاجم مهاجمة شديدة أنصار القديم ، متوسلاً إلى ذلك بمختلف الوسائل والجاً اليه أكثر السبل.

فهو تارة يدعو إلى نبذ افتتاح القصائد بوصف الدمن والرسوم ، ويسخر من أولئك الذين يتمسكون بهذا التقليد ويحضهم على وصف الخمر ومجالسها ، على نحو ما يتضح في قوله[1] .

قلْ لمنْ يبكي على رسمٍ دَرَسْ واقفاً ما ضرَّ لو كانَ جلسْ
اتْرُكِ الرَّبْعَ وسَلْمى جانباً واصطبحْ كَرْخيَّةً مثلَ القَبسْ

وقوله[2] :

لا تَبْكِ رَسْماً بجانب السَّندِ ولا تَجُدْ بالدموعِ لِلجَرَدِ
ولا تُعَرِّجْ على مُعَطَّلَة ولا أَثافٍ خلَتْ ولا وَتدِ
ومِلْ إلى مَجْلسٍ على شَرَفٍ بالكَرْخِ بَيْنَ الحَديقِ مُعْتَمد

وقوله[3] :

إنْسَ رسمَ الديارِ ثُمَّ الطلولا واهْجُرِ الربعَ دارساً ومُحيلا

---

(١) ديوانه ص : ١٣٤ .

(٢) ديوانه ص : ١٧٢ .

(٣) ديوانه ص : ٦٧٣ .

هل رأيتَ الديارَ رَدّت جواباً وأَجابتْ لذي سؤالٍ سؤُولا

واشْرَبَنْهَا كأنها عَيْنُ ديكٍ يَطْرُدُ الهمَّ طَعْمُهَا والغَلِيلا

وهو تارةً أخرى يذكرُ أسماءَ الأمكنة التي كررها الجاهليون واقفين عندها ، ومسترجعين ذكرياتهم فيها ، وباكين عليها ، غير أنه لا يردد معانيهم ، بل يتناولها بالنقض والقلب . فإذا كان الشعراء يطلبون إلى أصحابهم أن يعرجوا معهم على ديار صواحبهم فإنه يدعو إلى الابتعاد عنها ، يقول[1] :

لا تُعَرِّجْ بدارسِ الأطلالِ واسْقِنيها رقيقةَ السّربالِ

ويقول[2] :

دعِ الوقوفَ على رَسْمٍ وأطلالِ ودمنةٍ كَسَحيقِ اليُمْنَةِ البَالي

ويقول[3] :

أُتْرُكِ الأطلالَ لا تَعْبَأْ بها إنها مِنْ كلِّ بُؤْس دانيهْ

وإذا كانوا يُحيُّونَهَا فهو يَضِنُّ بالتحية عليها ، يقول[4] :

ابْخَلْ عَلَى الدارِ بتكليم فَما لَدَيْهَا رَجْعُ تَسْليمِ

وإذا كانوا يبكون لها وعليها ، فإنه يحُضُّ على العزوف عن البكاء فيها ومن أجلها ، ويدعو إلى العكوف على الخمر التي تسر الناظر إليها ، وتبعث الأمل والحياة في نفس مَنْ شَمَّ رائحتها ، يقول[5] :

---

(١) ديوانه ص : ٩٧ .

(٢) ديوانه ص : ٦٨٠ .

(٣) ديوانه ص : ١١٩ .

(٤) ديوانه ص : ١٥٥ .

(٥) ديوانه ص : ١٨٩ .

لا تَبْكِ رَبْعاً بذي سَلَمِ وَبَزَّ آثارَهُ يدُ القِدَمِ
وعُجْ بِنا نَجْتَلي مُخَدَّرةً نَسيمُها ريحُ عَنْبَرٍ ضَرِمِ

وهو تارة ثالثة يوازن بين حياة البدو والأعراب وبين حياة أهل الحاضرة موازنة يظهر فيها مساوئ الأولين وما كانوا يعيشون فيه من بيئة صحراوية مجدبة لا نعيم فيها ولا رخاء، بل فيها قسوة الطبيعة وشظف العيش وسوء الحال وندرة الملاهي وسذاجتها وسخفها ويُبْرِزُ محاسن الحياة الجديدة وما فيها من رقةٍ ونعومةٍ وملاهٍ أهمها الخمر التي يستمتع بها في مواخير الخمارين والتي يسعى بها إليه الغلمان الذين تتوافر فيهم جميع صفات الخلاعة والبطالة، فهم صغار غريرون ناعمون فاتنون متمرسون بأصول مهنتهم وما تحتاج إليه من تأنّث وتَخنُّث، نافذاً من تلك الموازنة إلى تفضيل الحياة الحاضرة والحض على الانهماك فيها والإقبال عليها، والإزراء بالحياة الماضية واحتقارها والإعراض عنها. ومن خير ما يصور ذلك عنده قوله[1] :

دع الأَطلالَ تَسْفيها الجنوبُ وتُبْلي عهدَ جدَّتها الخُطُوبُ
وخلِّ لراكبِ الوَجْناء أرضاً تَخُبُّ بها النَّجيبَةُ والنَّجيبُ
بلادٌ نَبْتُها عشَرٌ وطَلْحٌ وأكثرُ صَيْدِهَا ضَبُعٌ وذيبُ
ولا تأخذْ عن الأَعرابِ لَهواً ولا عَيْشاً فعيشُهُمُ جَديبُ
دع الألبانَ يَشْرَبُها رجالٌ رقيقُ العَيْشِ بينَهمُ غَريبُ
إذا رَابَ الحليبُ فبُلْ عليهِ ولا تحرَجْ فما في ذاك حوب[2]
فأطيبُ منه صافيةٌ شمولٌ يطوفُ بكأسِها ساقٍ أديبُ

---

(١) ديوانه ص: ١١

(٢) الحوب: الإثم.

يـكـادُ مـن الـدّلالِ إذا تَـثَـنَّى عـلـيك ومن تَساقُطِهِ يَذُوبُ
فـهـذا الـعـيشُ لا خِيَم البوادي وهـذا الـعيشُ لا اللبنُ الحَليبُ

فهو يدعو إلى التخلي عن الحياة البدوية وما يتصل بها من منازل مقفرة طمرها الغبار، وأفنى معالمها تعاقب الأزمان، وما يمت إليها من الرحلة في الفيافي والقفار. فليس في تلك الحياة شيء يمكن أن يبهج ويسر، إنّ أرضها ليس فيها إلا الأشواك والأشجار الجرداء والضباع والذئاب، وإن أهلها لا ينالون من أسباب العيش إلا ما يبقون به على رمق الحياة في نفوسهم، فهم لا يشربون إلا الألبان التي يمقتها مقتاً شديداً ويكرهها كرهاً عظيماً مشوباً بالسخرية منها والازراء بها، وخير منها عنده الخمر التي تنعش النفس والتي يدور بها عليه غلام يتمتع بجميع آيات الجمال، فهو متقن آدابَ حرفته وصنعته، وهو أيضاً على حظٍ كبير من الحسن المتمثل في قامته المشوقة وقَدِّهِ الريان وأردافه الممتلئة والذي يمزجه بغنجه ودلاله ورقته. فأين الخُشُونَةُ من النُّعومَةِ؟ وأينَ اللَّبنُ منَ الخَمْرِ؟ وأينَ حياةُ البَادِيَةِ من حياةِ الحاضِرَة؟

وربما كانت قصيدته الرائية أدق مثال يصور حملته على الأعراب وتهكمه بهم وبوسائل لهوهم وبكل ما شاع بينهم وعرف من قصص حبهم، كما يصور أيضاً إكبابه على الحياة الجديدة ودعوته إلى الانغماس في آثامها والتمتع بأزهارها ورياحينها وإمائها وغلمانها، يقول[1] :

دَعِ الــرسْمَ الــذي دَثَــرا يُــقَــاسي الـريحَ والـمَـطَـرا
وكـنْ رجلاً أضَــاعَ الْــعِــلْـمَ في الـلـذاتِ والـخَـطَـرَا[2]

---

(١) ديوانه ص : ٥٥٧.

(٢) الخطر : الشرف.

ألَم ترَ ما بَنى كسرى وسابورٌ لمن غَبَرا
مَنازِهُ بينَ دجلة والـ فراتِ تفيَّأتْ شجَرا
بأرض باعدَ الرّحمن عنها الطَّلْحَ والعُشَرَا
ولم يجعلْ مصايدَها يرابيعاً ولا وحرا[1]
ولكن حُورَ غِزلَان تُراعى بالمَلَا بقَرا[2]
وإنْ شئنَا حَشَنْنَا الطير من حافاتِها زُمرا
وإنْ قالوا اقْتُلُوا عنكمْ يُباكِرْ شَرْبُهَا الخَمرَا[3]
فذاكَ العيشُ لا سِيداً بقفرتِها ولا وَبَرَا[4]
بعازبِ حَرّة يُلْفَى بها العصفُورُ مُنْجَحِرا[5]
إذا ما كنتَ بالأشيا ءِ في الأعرابِ مُعْتبرا
فإنكَ أيما رجلٍ وردْتَ فلم تجدْ صَدرا
ومِنْ عجبٍ لعشقهم الـ جفاةَ الجُلْفَ والصَّحَرَا
فقيل مرقَّشٌ أودَى ولَمْ يَعْجِزْ وقد قَدرا
وقد أودَى ابنُ عجلانٍ ولم يَفطن له خَبَرا
فحدَّثَ كاذباً عنهُ وقال بغيرِ ما شَعرا
ولو كان ابنُ عجلان من البلوى كما ذَكَرَا
لكان أذمَّ عهداً في الـ هوى وأخبَّهُ عُذُرَا

---

(١) الوحر: دويبة سامة.

(٢) الملا: الصحراء.

(٣) اقتلوا: امزجوا الخمر بالماء.

(٤) السيد: الذئب. الوبر: دويبة صغيرة.

(٥) العازب: البعيد. منجحر: مختبئ.

تَـعُـدُّ الشِّـيحَ والـقـيصو م والـفَـقْـهَـاءَ والسَّـمُـرَا
جَـنِي الآس والـنَّسريـ ـنِ والسُّوسانِ إنْ زَهَـرَا
ويُـغْـنيهـا عن المرجـا نِ أَنْ تَـتَـقَـلَّـد الـبَـعـرا
أمـا واللهِ لا أَشِراً حَـلِـفتُ بـه ولا بَـطِـرَا
لـو أنَّ مُـرَقشـاً حَـيٌّ تَـعَـلَّـقَ قَـلـبُـهُ ذِكَـرَا
لأَيـقـنَ أنَّ حُبَّ الـمُـرْ دِ يُـلْـفَى سَهْـلُـهُ وَعِـرَا

فهو يُرَدِّدُ المعاني التي ذكرها في الأبيات السابقة، ويتوسَّعُ فيها كاشفاً عن سَوْءاتِ الأعراب، ومظهراً حسنات أهل الحاضرة، لعله يفلح في إقناع الشعراء بالتحول عن وصف الأطلال. وهو ترديدٌ يُبْرز فيه كُلَّ مساوئ البادية وأخطارها، فهي أرض مقفرة فقيرة تطفح بالحيوانات الجارحة والقارصة، وليس فيها إلا أشجار الطلح والعشر والشيح والقيصوم، كما أن جوها حار يخنق الأنفاس ويلجئ الطيور إلى أوكارها. ويحتقر الأعراب وعشاقهم ويتشكك في قصصهم وينحى عليهم باللوم الشديد ويتهمهم بالغِلْظَةِ والفظاظة إن كان ما ينسب إليهم من الأخبار صحيحاً. ويثني في مقابل ذلك ثناء عاطراً على حياة المدن وما فيها من بنيان مشيد، ومياه جارية، وأشجار وارفة، وطيور صادحة، وملذات من كل نوع، وغلمان لو بعث المرقش من قبره لهام بهم حبّاً ولعزف عن النساء.

بل لقد بلغت به الثورة حدّاً لم يعد معه قادراً على الاستماع إلى أولئك الذين يصفون المنازل الخالية الموحشة، ولذلك راح يصبّ غضبَه عليهم، معنفاً لهم وموبخاً إياهم، وداعياً بالشقاء والبؤس والحرمان لهم، ومهوناً من شأن الأعراب الذين يتعلقون بحياتهم ويعتمدون عليها في فنهم، يقول[1] :

---

(١) ديوانه ص: ٤٦.

عاجَ الشقيُّ على دارٍ يُسائِلُها وعُجْتُ أسألُ عن خَمَّارَةِ البلدِ
لا يَرْقَئُ اللهُ عينيْ مَنْ بكى حجراً ولا شفى وجدَ مَنْ يَصبو إلى وَتَدِ
قالوا ذكرتَ ديارَ الحيِّ من أسدٍ لا دَرَّ درُّكَ قُلْ لي مَنْ بنو أسدِ
ومَنْ تميمٌ ومن قيسٌ وإخوتُهم ليسَ الأعاريبُ عندَ اللهِ من أحدِ
دعْ ذا عدمتُكَ واشْرَبْها مُعَتَّقَةً صَفراءَ تعبقُ بينَ الماءِ والزَّبَدِ[1]
كم بينَ مَنْ يَشْتري خمراً يَلَذُّ بها وبينَ باكٍ على نُؤْيٍ ومُنْتَضَدِ

فقد ضاق ذرعاً بمعاصريه من الشعراء لما بينه وبينهم من مفارقات غريبة في الحياة والمذهب الفني، فهم يصطنعون المرور على الدّيار اصطناعاً، ويتكلفون وصفها تكلّفاً، وما يزالون بها يسائلونها عن أهلها متناسين حاضرهم وحياتهم، وهو مشغولٌ بالبحث عن مواخير الخمارين وحاناتهم، مما جعله يندّد بهم وبأشهر القبائل العربية مكانة وأصلاً وتاريخاً، ومما دفعه إلى أن يدعوهم بكل قوة إلى ترك المذهب القديم، والأخذ بالمذهب الجديد في الحياة والفن، ذلك المذهب القائم على شرب الخمر ووصفها لا على التعلق بالديار وتصويرها.

ويقف الدارسون من ثورة أبي نواس على القديم ودعوته إلى الجديد على طَرَفَيْ نقيضٍ، فمنهم مَنْ يفسرها تفسيراً شعوبياً سياسياً، فيه أشياء من الظنِّ والهَوَى والرجم بالغيب ومجانبة الصواب، لأنه لم يعتمد على دراسة النصوص، والنظر في الشعر الذي هاجم فيه وصف الأطلال. ومنهم من يفسرها تفسيراً حضارياً علميّاً فيه الدقة والصحة والاعتدال، لأنه استخلصه من دراسة شعرِه، ورَبَطَه بتغير الحياة الاجتماعية وتطوُّرِها في عَصْرِه.

---

(١) تعبق: تتحرك.

ومن الفريق الأول الدكتور طه حسين ، فإنه يزعم أن مذهبه الجديد ليس مذهباً شعرياً وفنياً فحسب ، وإنما هو مذهب سياسي أيضاً ، إذ كانت غايته هي إعلاء الفرس ورفعهم والحطّ من شأن العرب والإزراء بهم وتحقيرهم ، فهو يقول[1] : إنه «كان يذمّ القديم لا لأنه قديم ، بل لأنه قديم ولأنه عربي ، ويمدح الحديث لا لأنه حديث ، بل لأنه حديث ولأنه فارسي ، فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور».

وإلى مثل ذلك ذهب الأستاذ عباس العقاد إذ يقول[2] : «لم يَخْفَ على أحد من أبناء عصره ما كان يعنيه بالإنحاء على الطلول وباللجاجة في هذا الإنحاء ، ولم يكن هو يخفي مقصده منه وهو يتبعه بالإنحاء على الأعراب من كل قبيل ، ويقابل بين الخيام وإيوان كسرى ، وبين الزروب والميادين . فلهذا نهاه الخليفة عن الاستمرار في هذه اللجاجة وأمره بوصف الطلول ... ولم يأمره بالكفّ عنه لأنه جديد ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذي لا يفهم سواه من هذا التهوس بتحقير الأطلال وأهلها ، وخشي منه مغبته بين القبائل المتحفزة في تلك الآونة ، فنهاه عنه نهياً عن هجاء سياسي لا تحمد عقباه».

ويتفق عبد الرحمن صدقي معهما في بعض ما ذهبا إليه ورجحاه ، من أن دعوته كانت تمت بسبب إلى النزعة الشعوبية ، إذْ يقول[3] : «إنه أبى بما كان له من رَحِمٍ موصولة بالفارسية ، ونزعة ظاهرة للشعوبية ، وبما كان يتذوقه في هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة إلا أن يكون لسان صدق فيكون ترجمان عصره ، ولا

---

(١) حديث الأربعاء ٢ : ٩٠ .

(٢) أبو نواس الحسن بن هانئ ، دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي ص : ١٤٤ .

(٣) أبو نواس ، قصة حياته وشعره ص : ١١٦ .

يعدو وصفه ما يقع تحت حسه ، وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقه في خشية المتهيبين وتستر المهربين ، بل رفع علم الثورة نهاراً ، ودعا دعوة المصلحين جهاراً » .

كذلك يرى الدكتور محمد مندور أن من العوامل الفاعلة في إخفاقه في دعوته إلى التجديد أنها لم تكن ثورة على الأصول والرسوم الفنية الجاهلية فحسب ، بل لأنها كانت مشوبة بروح الشعوبية والغض من شأن العرب وتقاليدهم[1] . ويدمغ الدكتور محمد نبيه حجاب دعوته بالصبغة الشعوبية دمغاً ، فهو يقطع بأنه كان يقصد من النعي على القدامى وقوفهم بالأطلال إلى غرضين أساسيين ؛ أولهما : تمجيد الخمر وإشاعة الإباحة ، وثانيهما : الحطّ من شأن العرب وآدابهم ، والدعوة إلى هجر أساليبهم التي طالما تمجّدوا بها ، حتى لا يبقى لهم مجال بعد ذلك من فخر بهذا التراث القديم[2] .

ومن الفريق الثاني الدكتور شوقي ضيف ، فإنه خَفَّفَ من تهمة الشعوبية الملصقة به ، وردّ ما فرط منه في جنب العرب إلى تماجنه ، إذ يقول[3] : « إن أبا نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار ؛ فشعوبيته من لون آخر ، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين ، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجري فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفاً ، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار ، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر ، ونحن

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ص : ٧٢.

(٢) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص : ٢٩١.

(٣) العصر العباسي الأول ص : ٢٣١.

نظلمه إذا سمينا ذلك شعوبية حقة ، إنما هو تماجن وإمعان في التماجن ، ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية ، بل لقد بكاها كثيراً».

وانتهى كل من عبد الحليم عباس وطه أحمد إبراهيم إلى أن دعوته إلى التجديد دعوة فنية خالصة أراد أن يربط بها ربطاً وثيقاً بين الفن والواقع ، ويصل بينهما وصلاً قوياً. ويستدلّ الأول على رأيه بقوله[1] : «إنه لم يذكر من مناقب الفرس إلا ما يتصل بالشراب وعيش الحاضرة ببغداد ، ولم يذكر للأعراب إلا عيشهم النكد وصحراءهم المجدبة ، كما أنه لم يتعرض للعقل الفارسي والمناقب الفارسية ولا فضلها على ما عند العرب. وهو يفرق بين الأعراب والعرب ، فالأعراب سكان البادية لا صلة له بهم ، ولا وشيجة بينه وبينهم ، أما العرب سكان الحاضرة فقد كان لا يضن عليهم بالمدح إن سكنت شياطين عصبياتهم. ومن ناحية أخرى فإنه أراد أن يتجاوز عن طريقة الشعر القديم وأن يغرق في وصف المناعم والمباهج التي كانت بين يديه وتحت متناول سمعه وحسه ، وهذه المناعم والمباهج أكثرها أعجمية ، فهو يذكر أهلها بالخير ، وطريقة الطلول والدمن عربية ، والزراية بها زراية بالعرب وذوقهم ، فخيل إلى العرب أنه يمدح الفرس ويتعاجم مع أنه لم يردها أعجمية أو عربية وإنما أرادها حقاً وصدقاً». ويقول ثانيهما[2] : «إنه كان هدّاماً للقديم في خمرياته ، مؤسساً للجديد في مدائحه ، وكانت عقيدته أن الشعر يجب أن يكون مظهراً للحياة ، وصورة للمجتمع ، وأن الشعراء يجب أن يعيشوا في الحاضر لا في الماضي ، وفي الواقع لا في الذكريات ، وأن يصوروا ما هم فيه لا ما يمدهم به الخيال».

ويبدو أن أبا نواس لم ينزع منزعاً شعوبياً في دعوته وثورته ، إنما كان يهدف إلى

---

(١) أبو نواس ص : ١٠٨ ، ١١٤.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص : ١٠٧.

الصدق الفني. فقد لاحظَ أن شعراء الجاهلية كانوا يفتتحون قصائدهم بوصف الأطلال والبكاء في الديار، كما كانوا يصفون بيئتهم وما فيها من قفار وأشجار وحيوان دون أن ينكر ذلك عليهم لأنهم إنما كانوا يصورون بيئتهم الطبيعية وأحوالهم الاجتماعية وما قامت عليه من الرحلة المستمرة والتنقل المتواصل. وهاله أن يغض معاصروه من الشعراء أنظارهم عن بيئتهم وواقع حياتهم وأن ينفصلوا عنهما انفصالاً تاماً، ويستلهموا حياة الماضين وتراثهم الفني ويتخذوه المثل الذي يحاكونه ويقلدونه تقليداً ليس فيه أي أثر للحاضر، مع أن كل شيء في حياتهم قد تغير، إذ استوطنوا المدن التي تجري فيها الأنهار، وتزخر بالأشجار والورود والرياحين من كل لون، كما تعقدت العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة. وارتقت وسائل اللهو، وكثرت الحانات. وانتشرت دور الرقص والغناء، وأقبل عليها الشباب يطلبون المتاع واللذة من كل نوع، مما يؤذن بأن تتطور المقدمات مع تطور الحياة.

ولكنه وجد الشعراء يعزفون عن حياتهم ويعكفون على حياة غيرهم، ولذلك أخذ يدعوهم إلى العيش في حاضرهم والاستمداد منه في فنهم، موازناً بين حياة الأعراب وحياة أهل المدن، ومبيناً الفروق الواسعة بينهما، ولافتاً أبصارهم إلى ما حولهم من روعة الطبيعة وسحرها ومناظرها الخلابة، وحاضّاً لهم على ألا يُشْغَلُوا عنها بمعاهد البادية وقفارها. وهو حضّ أسرف فيه إسرافاً انتهى به إلى ذم الأعراب والتهوين من شأنهم، مما حمل بعض الدارسين على أن يتوهَّمُوا أنه كان يعمد إلى ذلك عمداً ويقصد إليه قصداً، لكي يَغُضَّ من قَدْرِ العرب ويُعْلي من شأن الفرس؛ غير أنَّ كل ما جرى على لسانه كان غباراً رقيقاً تطايرَ على جوانب ثورته، فلم يُحَطِّمْ راياتها، ولم يَمْحُ شعاراتها، بل ظلت راياتها مرفوعةً، وشعاراتها واضحةً، وهي شعارات الدَّعْوةِ إلى أنْ يكونَ الأدب تصويراً صادقاً للحياة.

ومعنى ذلك أنَّ دعوته إلى الجديد كانت ثورةً فنيةً خالصة تقوم على أسس

حضاريةٍ صافيةٍ ، لا تشوبها شائبةٌ من شعوبيةٍ وغير شعوبيةٍ . وشعرُهُ يدلُّ على ذلك دلالةً قويةً ، وهو أوثقُ مَصْدرٍ يمكنُ أن تُستَظهَرَ منه أصولُ دعوته . وقد تعلَّقَ من وَصَموهُ بالشعوبيّة بالأبيات التي شغب فيها على العرب ، ليُحقِّقُوا التُّهمَةَ بشهادة لسانه ، وأغفلوا الأبيات التي عبّر فيها عن حقيقة مذهبه ، وهي تثبتُ أنه كان يبتغي الصدقَ في الفن ، فهو يقول[1] :

صفةُ الطلولِ بلاغةُ القُدْمِ فاجعَلْ صفاتِكَ لابنةِ الكرمِ
فعلامَ تذهَلُ عن مشعشعة وتهيمُ في طَللٍ وفي رسمِ
تصفُ الطلولَ على السماعِ بها أَذَوُو العيانِ كانت في العِلْمِ
وإذا وصفتَ الشيءَ مُتَّبعاً لم تخلُ من زَلَلٍ ومن وهمِ

فالمسألة ليست مسألة شعوبية ولا ما يشبه الشعوبية ، وإنما هي دعوة لمعاصريه من الشعراء أن يكونوا صادقين مع الناس في فهم صدقهم مع أنفسهم في حياتهم . فكيف يصفون مناظر الأطلال ومشاهد الصحراء وهم بعيدون كل البعد عنها؟ بل كيف يزعمون أن هذه القوالبَ القديمة صالحةٌ لاستيعابِ تجاربهم العاطفية الحقيقية التي لم تنشأ في مثل تلك الأجواء التي خُلِقَتْ فيها تجارب الجاهليين واستُمِدَّتْ منها تلك القوالب؟ ولمَ يكونون مُقَلِّدينَ ولا يَفسَحُونَ في أعمالهم الفنية لحاضرهم لكي ينمو ويَزحَمَ القديم؟ إنهم إن استهلوا مدائحهم بتصوير المعاهد الدائرة فإنهم لا يصورون واقع حياتهم ، بل يصورون حياة غيرهم التي لم يعيشوا فيها ولا خبروها ولا بصروا بأمورها ، وإنما هم يتخيلونها تخيلاً مما يفضي بهم إلى الخطأ في تمثلها وتصويرها .

---

(1) ديوانه ص : ٥٨ .

وها وهو ذا يفصح عن رأيه ويشرح موقفه من البادية وحياتها مرة أخرى فيقول [1] :

ما لي بدارٍ خَلَتْ من أهلها شُغُلُ ولا شَجاني لها شَخْصٌ ولا طَلَلُ
ولا رسومٌ ولا أبـكي لمنـزلـةٍ للأهـلِ عنـها وللـجيرانِ مُـنـتَـقَـلُ
ولا قـطـعتُ على حَرْفٍ مُـذَكَّرَةٍ في مِرْفَقَيْها إذا استُعرِضْتَها فَتَلُ [2]
بـيـداءَ مـقـفـرةً يـومـاً فـأنـعتُـهـا ولا سَرَى بي فَأَحكيهِ بها جَملُ
ولا شَتَوْتُ بها عـامـاً فَأَدرَكَني فيها المصيفُ فلي عن ذاكَ مُرْتَحَلُ
ولا شَدَدْتُ بها من خيمةٍ طُنُباً جَارى بها الضَّبُّ والحرباءُ والوَرَلُ
لا الحزنُ مني برأيِ العَينِ أعرفُهُ ولـيس يَعرِفُني سهـلٌ ولا جَبَلُ

فهو لم يكن يبيح لنفسه أن يصف البادية ويبكي ديارها ويحزن على الجيران المرتحلين كما كان يفعل معاصروه ، فقد انقطعت الأسباب بينه وبينها ، وانعدمت صلته بها ومعرفته لها ، بحيث أصبح يجهل حقيقتها جهلاً مطبقاً . وآيةُ ذلك أنه لم يَجُزْ قفارَها وفَيافِيها لا في الليل ولا في النهار ، كما أنه لم يَقْضِ فَصلَ شتاء بها لكي يدركَهُ المصيف وينتقل عنها ، ولا نَصَبَ خيمتَه فيها لكي يرى حيوانها ، بل هو لا يعرف أرضها الغليظة ولا سهولها وجبالها . ولذلك يكون من العبث والكذب أن يتظاهَرَ في فواتح قصائدِهِ بأنه يُشْغَلُ بها ، ويسترجعُ ذكرياته فيها .

إلى غير ذلك من الأمثلةِ التي تثبت أنه كان يستوحي في دعوته مظاهر الحياة العباسية ، وما جَدَّ فيها من ألوان المتعة ، ووسائل اللهو ، وأدوات الحضارة المادية ،

---

(١) ديوانه ص : ٦٩٨ .

(٢) الحرف المذكرة : الناقة الصلبة الشديدة . الفتل : اندماج في مرفق الناقة .

ومناظر الطبيعة الرائعة[1] ، لكي يُوثِّقَ بين الفن والحياة ، فيكون الفن صورة للحياة ، ومما يؤيد ذلك أنه لم يكن يهتف وحده بالدعوة إلى الجديد ، والصدق في الفن ، بل كان بجانبه شعراء كثيرون ، سبقت أسماؤهم ، وبان من أشعارهم أنهم كانوا يستمدّون في الدعوة إلى الجديد من حياتهم الحاضرة ، وما طرأ عليها من تَطوّرٍ جعلها تختلفُ عن الحياة الماضية أشدّ الاختلاف. ويؤكد ذلك أنَّ الدعوة كانت عامة ، وانها كانت تعتمد على جوانب حضارية ، كما يرجح براءته من تهمة الشعوبية التي ألْصقَها بعض الباحثين بدعوته وثورته الفنية.

---

(١) انظر ديوانه ص: ١١٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ، ١٩٦.

خاتمة

الزَّندَقَةُ حَرَكَةٌ دينيّةٌ سياسيّةٌ ، ابْتغَى أَصْحابُها بَعثَ الدِّياناتِ الثَّنَوِيَّةِ الفارسيّة ، وكان أكْثَرُهُم يَعتنقونَ المانويَّةَ خاصةً ، وكانَ أهلُ الإباحةِ منهم يتأثَّرونَ المَزْدكِيَّةَ أيضاً . وقد دَبَّروا لِطَمْسِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ ، ونَسْفِ مُثُلِ الأُمَّةِ العَرَبيَّةِ ، لِيُقَوِّضُوا الدَّولَةَ العَرَبيَّةَ الإسلاميَّةَ ، ويُعيدُوا الدَّوْلَةَ الفارسيَّةَ الثَّنَوِيَّةَ !

وكانَ الزَّنادِقَةُ مُخَادِعينَ أذكياءَ، ودُهاةً خُبَثاءَ، فَتَستَّروا بالإسلامِ ، وأسرُّوا الكُفرَ ، إخفاءً لِعقائِدِهم ، وتَغْطِيَةً لأَهْدافِهم ، وتَيْسيراً لِعَمَلِهم ، وكانَ رُؤَساؤُهُم وأتْباعُهُم منَ الموالي الفُرْسِ ، وكانَ شُعراؤُهُم أهمَّ مَن جدَّ منهم في إحياءِ تُراثِهِم الدِّينيِّ ونَشرِهِ ، وأكبر مَن لجَّ منهم في تَخْريبِ الإسْلامِ وتَهْديمِهِ ، وأشْهَرَ مَنْ نَشَطَ منهم في تَشْويهِ الخُلُقِ العَرَبيِّ وتَحطيمِهِ. واشْتَطَّ في ذلك منهم الشعراءُ الموالي الكُوفيُّون أكثَرَ منَ البَصْريِّينَ ، لأنَّ الكوفةَ سبقَتِ البَصْرَةَ في الزَّندَقَةِ ، وفاقَتْها في الإباحة . وكان مُطيعُ بنُ إياس ، وحَمَّادُ عَجْرَدٍ ، وأبو العتاهيةِ أخْطَرَ الزَّنادِقَةِ من الموالي من أهلِ الكوفةِ ، وكانَ بَشَّارُ بنُ بُرْدٍ ، وصالحُ بن عبد القُدُّوس أخطَرَ الزَّنادِقَةِ من الموالي مِنْ أهْلِ البَصْرَة .

وكان بجانبهم مُجَّانٌ وفَسَقَةٌ وعُصاةٌ منَ الشّعراء من أهْلِ الكُوفَةِ مِثلُ أبي دُلامَةَ ، وعليٌّ بن الخليل ، ووالبةُ بن الحُبابِ ، ومِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ مِثلُ سَلْم الخاسر ،

وأبان بن عبد الحميد، وأبي نواس. وجاراهُمْ في المُجُونِ والفِسْقِ والمَعْصِيَةِ بَعضُ الشُّعراءِ العَرَب، مثل أدَم بن عبد العزيز، ويحيى بن زيادٍ. وقد اتُّهموا جميعاً بالزَّندَقةِ الدِّينيَّةِ، وبَدَا من دراسةِ أخبارِهم وأشْعارِهم أنَّ زَندَقَتَهُم أقربُ إلى الزَّندَقةِ الاجتماعيَّةِ، فإنهم اتُّهموا بالزَّندَقَةِ لخلاعَتِهم وبطالتِهم، وتماجُنِهم وتعابُثِهم، وَشَكِّهم وارتيابِهم، وتَملُّحِهم وتَظَرُّفِهم في سُكرِهِم ونَشوَتِهم، وطَرَبِهم وعَرْبَدَتِهِمْ، لا لِكُفْرِهم وإلْحادِهِمْ، وإشْراكِهِمْ بالله، وانْسلاخِهِمْ من الإسلام في صَحْوَتِهِمْ وَيَقْظَتِهِمْ، وطَوِيَّتِهِمْ ودَخيلَتِهِم.

والشُّعوبيّةُ حركةٌ ثقافيّةٌ حضاريةٌ، تَوَخَّى أربابُها إعْلاءَ الفُرسِ على العرب، وهي تُصوِّرُ نُمُوَّ وَعْيِ الموالي، وإحساسِهِمْ بماضيهم، واعتزازِهِمْ بِتُراثِهِم، وانْبثاقَ النزعةِ القَوميَّةِ الانْفِصاليَّةِ عندَ الفُرسِ والخُراسانيّة.

وكانَ بَشَّارُ بنُ بُرْدٍ أكبرَ دُعاةِ الشُّعوبيّةِ منَ الشعراء المَوالي، إذْ كانَ أشدَّهم سُخْطاً على العَرَبِ، وتحقيراً لهم، وأطوَلَهم افتخاراً بالفُرسِ والخُراسانيّةِ، وتَنَفُّجاً بهم، وأوضَحَهم تمثيلاً لآمالِهِم الاستِقلاليَّة، وأقْواهم تَثقيفاً للموالي، وأصْرَحَهم تَشْجيعاً لهم على الخُروجِ من أَحْلافِهم، والرُّجوعِ إلى أُصُولِهم. ويَتَضَمَّنُ شِعرُهُ مَسائلَ الخُصُومَةِ بينَ الموالي والعرب، ويُبيِّنُ أنها كانَتْ مُستَفحِلةً في المجتمعِ العبّاسيِّ منذ النِّصْفِ الأوَّلِ منَ القرنِ الثاني، وأَهمُّها مُساهَمَةُ الفَريقَيْنِ في الدَّعوةِ العباسيَّةِ، وتَسابُقُهم في الأنْسابِ والأمْجادِ، وما أرجَفَ به الموالي مِنْ أنهم شيعَةُ الدَّعوَةِ، وأنصارُ الدَّولَةِ، وحماةُ الخِلافة، وسُلالةُ المُلوكِ والأحرارِ، وأهْلُ المُلْكِ والحَضارة ! !

ورمى فَريقٌ من الباحثين أبا نُواسٍ بالشُّعوبيّةِ، لأنه ثارَ على وَصفِ الأطلالِ، ودَعا إلى وَصْفِ الخَمْرِ في مُقدِّماتِ القصائد، واحتجَّ لِمَذْهبِهِ احْتجاجاً قَوِيّاً، شَغَبَ في بَعضِهِ على العَرَب، وذَمَّ حَياتَهُم القاسيةَ الجافيةَ. وقد صَحَّ من دراسةِ

شعرِهِ في هذا البابِ أنه لم يكن يُقارِنُ بينَ بداوةِ العربِ وحضارَةِ الفُرْس ، ليرفَعَ الفُرسَ على العَرَب ، بل كانَ يُقارِنُ بينَ خُشُونَةِ الحياةِ البَدَويَّةِ ورِقَّةِ الحياةِ العباسيّةِ وما فيها من ألوانِ المُتْعَةِ الماديَّةِ ، لِيَنتَصِرَ لدَعْوَتِهِ ، ويُقْنِعَ خُصُومَهُ بِمَذْهَبِهِ ، وشاركَهُ في ذلك غَيرُ شاعرٍ من شعراءِ عَصْرِهِ ، ممن لم يكن لهم صلةٌ بالشُّعوبيّةِ ، بل كانوا يُدافعون عن قَضِيَّـةٍ فنيَّةٍ خالصةٍ ، لا تجاوزُ الدَّعوةَ إلى التَّجديدِ في الشِّعرِ ، والرَّغبةَ في الرَّبطِ بينَهُ وبَينَ الحاضِرِ.

المصادر والمراجع



١ — المصادر القديمة :

— **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، لأبي الريحان، محمد بن أحمد (— ٤٤٠ هـ) — اعتنى بنشره إدوارد سخاو — طبع ليبزك ١٩٢٣.

— **أخبار أبي نواس**، لأبي الفضل، جمال الدين بن مكرم بن منظور المصري (— ٧١١ هـ) — الجزء الأول طبع مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٤ — الجزء الثاني طبع مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٢.

— **أخبار أبي نواس**، لأبي هفان، عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي (— ٢٥٧ هـ) — تحقيق عبد الستار أحمد فراج — نشر مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٣.

— **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، لأبي عمر يوسف بن عبد البر (— ٤٦٣ هـ) — تحقيق علي محمد البجاوي — طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة.

— **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، لأبي الحسن، علي بن محمد الشيباني (— ٦٣٠ هـ) — نشر المكتبة الإسلامية ببيروت.

— **الإصابة في تمييز الصحابة**، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (— ٨٥٢ هـ) — طبع مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ.

— **الأغاني**، لأبي الفرج، علي بن الحسين بن محمد الأموي الأصفهاني (— ٣٥٦ هـ) — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسي.

— **أمالي المرتضى**، للشريف المرتضى، علي بن الحسين (— ٤٣٦ هـ) — تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٥٤.

— **الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية**— تحقيق الأب لويس شيخو— طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٤.

— **الأوراق**، قسم أخبار الشعراء، لأبي بكر، محمد بن يحيى الصولي (— ٣٣٥هـ)— طبع مطبعة الصاوي بالقاهرة ١٩٣٤.

— **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، لجلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (— ٩١١هـ)— طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٢٦.

— **البيان والتبيين**، لأبي عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (— ٢٥٥هـ)— حققه وشرحه حسن السندوبي— طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٢.

— **تاريخ بغداد**، لأبي بكر، أحمد بن علي بن ثابت (— ٤٦٣هـ)— طبع مكتبة الخانجي بمصر ١٩٣١.

— **تاريخ خليفة بن خياط**، لخليفة بن خياط العصفري (— ٢٤٠هـ)— تحقيق سهيل زكار— طبع وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٨.

— **تاريخ الرسل والملوك**، لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري (— ٣١٠هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم— طبع دار المعارف بمصر.

— **التاريخ الكبير**، لأبي عبد الله، محمد بن إسماعيل بن ابراهيم البخاري (— ٢٥٦هـ)— طبع حيدر آباد الدكن (١٣٦١هـ).

— **تاريخ اليعقوبي**، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (— ٢٩٢هـ)— طبع ليدن ١٨٨٣.

— **تقريب التهذيب**، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (— ٨٥٢هـ)— حققه عبد الوهاب عبد اللطيف— طبع دار المعرفة ببيروت ١٩٧٥.

— **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، لأبي القاسم، علي بن الحسن بن عبد الله (— ٥٧١هـ)— طبع دار المسيرة ببيروت ١٩٧٥.

— **تهذيب التهذيب**، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (— ٨٥٢هـ)— طبع حيدر آباد الدكن ١٣٢٥هـ.

— **ثلاث رسائل للجاحظ** : نشرة يوشع فنكل — طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٤ هـ.

— **الجرح والتعديل** ، لمحمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (— ٣٢٧ هـ) — طبع حيدر آباد الدكن ١٩٥٢ .

— **جمهرة أنساب العرب** ، لأبي محمد ، علي بن سعيد بن حزم (— ٤٥٦ هـ) — تحقيق عبد السلام هارون — طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

— **الحيوان** ، لأبي عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (— ٢٥٥ هـ) — تحقيق عبد السلام هارون — طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٨ .

— **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** ، لعبد القادر البغدادي (— ١٠٩١ هـ) — طبع المطبعة الأميرية ببولاق.

— **الديارات** ، لأبي الحسن ، علي بن محمد الشابشتي (— ٣٨٨ هـ) — تحقيق كوركيس عواد — طبع مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٦ .

— **ديوان الأخطل** : نشر الأب أنطون صالحاني اليسوعي — طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩١ .

— **ديوان بشار بن برد** : نشر محمد الطاهر بن عاشور — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

— **ديوان ديك الجن الحمصي** : تحقيق عبد المعين الملوحي ومحي الدين الدرويش — طبع دمشق .

— **ديوان المعاني** ، لأبي هلال ، الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (— ٣٩٥ هـ) — طبع مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٢ هـ.

— **ديوان أبي نواس** : تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي — طبع بيروت ١٩٥٣ .

— **ذيل زهر الآداب** ، لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (— ٤٥٣ هـ) — طبع المطبعة الرحمانية بمصر.

— **رسائل البلغاء** : اختيار وتصنيف محمد كرد علي — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٦ .

— **رسائل الجاحظ** : جمعها ونشرها حسن السندوبي — طبع المطبعة الرحمانية بمصر.

— **رسائل الجاحظ** : تحقيق عبد السلام هارون— طبع مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٥ .

— **رسالة أبي عامر بن غرسية في الشعوبية** : المجموعة الثالثة من نوادر المخطوطات— تحقيق عبد السلام هارون— طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٤ .

— **زهر الآداب وثمر الألباب** ، لأبي اسحاق ، ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (— ٤٥٣ هـ)— تحقيق علي محمد البجاوي— طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

— **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** ، لجمال الدين بن نباتة المصري (— ٧٦٨ هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم— نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٤ .

— **سرقات أبي نواس** ، لمهلهل بن يموت بن المزرع— تحقيق محمد مصطفى هدارة— نشر دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٧ .

— **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، لعبد الحي بن العماد الحنبلي (— ١٠٨٩ هـ)— طبع مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .

— **شرح نهج البلاغة** ، لعز الدين أبي حامد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد (— ٦٥٥ هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم— طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

— **الشعر والشعراء** ، لأبي محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (— ٢٧٦ هـ)— تحقيق أحمد محمد شاكر— طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

— **كتاب الطبقات** ، لخليفة بن خياط العصفري (— ٢٤٠ هـ)— تحقيق سهيل زكار— طبع وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٦ .

— **طبقات الشعراء** ، لعبد الله بن المعتز (— ٢٩٦ هـ)— تحقيق عبد الستار أحمد فراج— طبع دار المعارف بمصر.

— **طبقات فحول الشعراء** ، لأبي عبد الله ، محمد بن سلام الجمحي (— ٢٣١ هـ)— تحقيق محمود محمد شاكر— طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

— **الطبقات الكبرى** ، لمحمد بن سعد بن منيع (— ٢٣٠ هـ)— طبع دار صادر ببيروت ١٩٥٨ .

— **طبقات النحويين واللغويين**، لأبي بكر، محمد بن الحسن الزبيدي (— ٣٧٩هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم— طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٣.

— **العقد الفريد**، لأحمد بن محمد بن عبد ربه (— ٣٢٨هـ)— طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

— **عيون الأخبار**، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (— ٢٧٦هـ)— طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٥.

— **الفخري في الآداب السلطانية**، لمحمد بن علي بن طباطبا (— ٧٠٩هـ) طبع بيروت ١٩٦٠.

— **الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني**، لمؤلف مجهول— مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٦٣٢أدب.

— **الفرق بين الفرق**، لأبي منصور، عبد القادر بن طاهر البغدادي (— ٤٥٦هـ)— تصحيح الشيخ محمد بن زاهد بن الحسن الكوثري— طبع مكتب نشر الثقافة الإسلامية بمصر ١٩٤٨.

— **الفهرست**، لأبي الفرج، محمد بن إسحاق بن النديم (— ٣٨٥هـ) طبع مكتبة خياط ببيروت، وطبع دار المعرفة ببيروت.

— **فوات الوفيات**، لمحمد بن شاكر الكتبي (— ٧٦٤هـ)— تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة— وتحقيق الدكتور إحسان عباس— طبع دار الثقافة ببيروت.

— **الكامل**، لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد (— ٢٨٥هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة— طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٦.

— **لسان العرب**، لأبي الفضل، جمال الدين بن مكرم بن منظور المصري (— ٧١١هـ)— طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠١هـ.

— **لسان الميزان**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (— ٨٥٢هـ)— طبع حيدر آباد الدكن ١٣٣١هـ.

— **المحاسن والمساوئ**، لابراهيم بن محمد البيهقي— طبع بيروت ١٩٦٠.

— **محاضرات الأدباء**، لأبي القاسم، حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (— ٥٠٢ هـ)— طبع المطبعة الشرقية بالقاهرة ١٣٢٦ هـ.

— **المختار من شعر بشار**، للخالديين، أبي بكر محمد، وأبي سعيد ابني هاشم— تصحيح السيد محمد بدر الدين العلوي— طبعة مطبعة الاعتماد بالقاهرة.

— **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، لأبي محمد، عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (— ٧٦٨ هـ)— طبع حيدر آباد الدكن ١٣٣٧ هـ.

— **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن، علي بن الحسين المسعودي (— ٣٤٦ هـ)— تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد— طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨.

— **المزهر في علوم اللغة وآدابها**، لجلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (— ٩١١ هـ)— شرح محمد جاد المولى ورفاقه— طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

— **المعارف**، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (— ٢٧٦ هـ)— تحقيق ثروت عكاشة— طبع دار الكتب المصرية ١٩٦٠.

— **معجم الأدباء**، لأبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (— ٦٢٦ هـ)— طبع مطبعة دار المأمون بالقاهرة— وتصحيح مرجوليوت— طبع مصر ١٩٢٣.

— **معجم البلدان**، لأبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (— ٦٢٦ هـ)— طبع طهران ١٩٦٥.

— **مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين**، لأبي الحسن، علي بن اسماعيل الأشعري (— ٣٣٠ هـ)— تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٠.

— **الملل والنحل**، لأبي الفتح، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (— ٥٤٨ هـ)— تخريج محمد بن فتح الله بدران— طبع مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٦.

— **الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء**، لأبي عبيد الله، محمد بن عمران المرزباني (— ٣٨٤هـ)— تحقيق علي محمد البجاوي— طبع دار نهضة مصر ١٩٦٥.

— **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، لأبي عبدالله، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (—٧٤٨هـ)— تحقيق علي محمد البجاوي— طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٦٣.

— **كتاب الورقة**، لأبي عبد الله، محمد بن داود الجراح (— ٢٩٦هـ)— تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج— طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

— **الوزراء والكتاب**، لأبي عبد الله، محمد بن عبدوس الجهشياري (— ٣٣١هـ)— تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه— طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٨.

— **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (—٣٩٢هـ)— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي— طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٥١.

— **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (— ٦٨١هـ)— تحقيق الدكتور احسان عباس— طبع دار صادر ببيروت.

ب — المراجع الحديثة :

— **أبو العتاهية**، لمحمد أحمد برانق — طبع مطبعة مصر بالقاهرة ١٩٤٧ .

— **أبو العتاهية حياته وشعره**، لمحمد محمود الدش — نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨ .

— **أبو نواس**، لعبد الحليم عباس — طبع دار المعارف بمصر.

— **أبو نواس قصة حياته وشعره**، لعبد الرحمن صدقي — طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

— **أبو نواس الحسن بن هانئ**، دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي، لعباس محمود العقاد — طبع مطبعة الرسالة بالقاهرة.

— **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري** للدكتور محمد مصطفى هدارة — طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .

— **ألحان ألحان**، لعبد الرحمن صدقي — طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٧ .

— **أمراء الشعر في العصر العباسي**، لأنيس المقدسي — طبع المطبعة الأميركانية ببيروت ١٩٣٦ .

— **تاريخ آداب اللغة العربية**، لجرجي زيدان — طبع مطبعة الهلال بالقاهرة.

— **تاريخ الأدب العباسي**، لرينولد نيكسون — ترجمة الدكتور صفاء خلوصي — نشر المكتبة الأهلية في بغداد ١٩٦٧ .

— **تاريخ الأدب العربي** ، لكارل بروكلمان— الجزء الثاني ، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار— طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

— **تاريخ النقد الأدبي عند العرب** ، لطه أحمد ابراهيم— طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٧ .

— **الجذور التاريخية للشعوبية** ، للدكتور عبد العزيز الدوري— طبع دار الطليعة ببيروت ١٩٦٢ .

— **حديث الأربعاء** ، للدكتور طه حسين— طبع دار المعارف بمصر.

— **حركات الشيعة المتطرفين** ، للدكتور محمد جابر عبد العال— طبع مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٤ .

— **الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية** ، لفون كريمر— ترجمة مصطفى طه بدر— نشر دار الفكر العربية بالقاهرة ١٩٤٧ .

— **دراسات في الأدب الاسلامي** ، لمحمد خلف الله أحمد— طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٧ .

— **الدولة العربية** ، ليوليوس فلهاوزن— ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة— طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ .

— **السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية** ، لفان فلوتن— ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم— طبع مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .

— **شعراء عباسيون** ، لغوستاف غرنباوم— دراسات ونصوص شعرية ترجمها وأعاد تحقيقها الدكتور محمد يوسف نجم— نشر دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٥٩ .

— **الصراع بين الموالي والعرب** ، للدكتور محمد بديع شريف— طبع دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٤ .

— **ضحى الإسلام** ، لأحمد أمين— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦١ .

— **كتاب العربية** ، ليوهان فك— ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار— طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥١ .

— **العصر العباسي الأول**، للدكتور شوقي ضيف— طبع دار المعارف بمصر.

— **العصر العباسي الأول**، للدكتور عبد العزيز الدوري— طبع مطبعة التفيض ببغداد ١٩٤٥.

— **العقيدة والشريعة في الإسلام**، لإجناس جولدتسهر— ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه— طبع دار الكاتب المصري بالقاهرة ١٩٤٦.

— **فجر الإسلام**، لأحمد أمين— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٦٥.

— **الفلسفة والمجتمع**، لإبراهيم عبد المجيد اللبان— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٠.

— **قصة الأدب الفارسي**، لحامد عبد القادر— طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥١.

— **مظاهر الشعوبية في الأدب العربي**، للدكتور محمد نبيه حجاب— طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٦١.

— **مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي**، للدكتور عبد العزيز الدوري— طبع دار الطليعة ببيروت ١٩٦٩.

— **مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي**، للدكتور حسين عطوان— طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٤.

— **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، للدكتور عبد الرحمن بدوي— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٤٥.

— **نفسية أبي نواس**، للدكتور محمد النويهي— طبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٣.

— **النقد المنهجي عند العرب**، للدكتور محمد مندور— طبع مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٩٤٨.

— **الوليد بن يزيد عرض ونقد**، للدكتور حسين عطوان— طبع دار الجيل ببيروت ١٩٨١.



